

كتابي



اعترافات

جان چاك روسو

الجزء الثاني

Looloo

www.dvd4arab.com

المطبعة
المؤسسة العربية الجديدة
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: ٢٠٠٤

محمّد



اعترافات جان جاك روسو

الجزء الثاني

 **Looloo**

www.dvdArabi.com

الجزء الأول - في سطور

ولدت في (جنيف) - في عام ١٧١٢ - لأب كان يعمل في صناعة الساعات ، ولأم توفيت عند مولدى - وبدلاً من أن يكرهنى أبى لذلك ، فإنه أسرف فى حبى ، لأننى كنت شديد الشبه بأبى .

تنبه احساسى قبل أن يقتبه فكرى . ثم عهد أبى إلى أسلوب خطر ، إذ اشركنى فى قراءة الروايات والكتب الدسمة .

اضطر أبى إلى أن يهجر (جنيف) عقب مشاجرة بينه وبين عسكري فرنسى ، كادت تلقى به إلى السجن دون مبرر قانونى . فبقيت فى كنف خالى « برنار » ، الذى كان متزوجاً من ممتى ، والذى أرسلنى مع ابنه إلى « بوسى » لتلقيم فى رعاية القس الميروتستانى « لامبرسييه » ، وتلقى العلم على يديه ويدي أخته التى نبه عقابها إياى ، المشاعر الحسية والشهوانية فى كيانى !

على اثر عقاب ظالم ، لاذت لم ارتكبه ، كرهت الظلم ، وولت طمأنينة طفولتى . . والحقتى خالى بمكتب موثق للمعتود ، فلم استمتع هذا العمل . ومن ثم الحقنى كصبى - أو تلميذ صانع - لدى حمار ينقش على الممادن . وهناك اختلطت بالعمال الذين كانوا يكبروننى ، وتعلمت السرقة ، سبها وإن معلمى كان يقسو على بالعقاب والحرمان . ومع ذلك فإننى لم أكن أسرق حبا فى المال أو الحيازة . . وإلى جانب هذا ، اشتد إقبالى على القراءة حتى أصبح تهوسا .

القضائي - السيد سيمون - الذى ابدى ارتياحا لصحبتى .. وكان مشوه الجسم ، شديد القصر ، كبير الرأس ، لذلك كان يحطوله أن يعقد مقابلاته في الصباح ، وهو في السرير ، حيث تبدو رأسه ذات القسمات الجميلة ، ولا يبدو جسده المشوه !

والآن .. تابع قراءة هذا الحادث الذي بدا به « روسو » الكرامة الرابعة من اعترافاته .

وفي ذات صباح ، بينما كان ينتظر في سريره - أو بالأحرى ، على سريره - أصحاب الشكايات ، وقد ارتدى ثلنسوة بيضاء يديعة ، مزدانة بزائدتين عريضتين من شريط وردي اللون ، وصل أحد الريفيين وطرق الباب . وكانت الخادم قد خرجت ، فما أن سمع السيد سيمون الطرقات ، حتى صاح مجيئا : « ادخل ! » .. وهو إذا لفظ الكلمة بشيء من القوة ، اتبعته بصوته الحاد . ودخل الرجل ، فبحث عن مصدر هذا الصوت النسوي ، وما أن رأى في السرير ثلنسوة وشريطا ، حتى هم بالخروج ثانية ، وهو يقدم « للسيدة » اعتذارات بالغة ! فغضب السيد سيمون ، ولم يزد إلا صراخا ، فتأكد الريفي من فكرته ، ورأى أنه قد أهين ، فافترقه بالشتائم ، وقال له - لها : « لست سوى ماجةرة » ، وإن السيد الضابط القضائي لا يضرب بحياته المنزلية مثلا طيبا ! .. واشتد بالسيد سيمون الغضب ، فلم يجد في تناول يده سوى الوعاء الذي يقضى فيه حاجته في المخدع ، فأوشك أن يلقي به على رأس الرجل المسكين ، لولا أن وصلت مدبرة بيته !

واضطرتني قسوة معلمي ، ونفوري من حياتي ، إلى الهرب من (جنيف) .. وانتهى بي المطاف إلى سيدة محصنة في (انيسى) ، كان ملك سردينيا قد خصها بمعاشي ، لأنها اعتنقت الكاثوليكية .. تلك هي « مدام دي غاران » ، التي أشفت على ، وأرسلتني إلى دبر نيزت فيه عقيدتي البروتستانتية ، وأصبحت كاثوليكية .

واستطيت بعد ذلك حياة الفرحال ، وعانيت الفاقة والمتاعب . ثم انتهيته إلى العودة إلى مدام دي غاران ، التي رحبت بي ، وانزلتني من نفسها منزلة الابن ، وأغردت لي غرفة في دارها ، وراحت تنفق على تعليمي الموسيقى ، ورغم انكماش مواردها .. وتعلقت بهذه السيدة نعلقا ملك على كل حواسي وعقلي .. وبهرور الأيام صرت أدمعها « ماما » !

وكانت هذه الحياة أبهج من أن تدوم . ففسد أوفقتني « ماما » مرة لأعاون السيد « لوميتير » ، الذي كان رئيسا لفرة الموسيقى بكنيسة (انيسى) ، والذي اختلف مع بعض رهبان الكنيسة فشاء أن يفر من وجوههم .. وقد رافقته إلى (ليون) ، حيث أخذت تعاوده نوبات الصرع ، لفوط إسراره في الشراب ، ففررت منه في إحدى هذه النوبات ، وعدت إلى (انيسى) .. وإذا بي افاجأ بأن « ماما » قد رحلت في بعض شئونها ، ولم أدر لها مقصدا أو مقرا !

واقمت فترة مع « فينتور » ، وهو شاب كثر أمرقه من قبل ، كان يزعم أنه موسيقي موهوب . وكان لبقا ، أنيقا ، مرحا ، يستهوى الإناث .. وعرفتني « فينتور » بالضابط

وإذا كان هذا القزم الضئيل قد شوهت الطبيعة جسمه ، فإنه لقي تعويضا في الناحية العقلية التي كانت بطبيعتها مقبولة ، والتي كان يعنى بتحسينها . ومع أنه كان يقال منه إنه كان مستشارا قضائيا موفقا ، إلا أنه لم يكن يحب مهنته . فالتى بنفسه في غمار الأدب ، واستطاع أن يوفق . ولقد اكتسب - فوق كل شيء - تلك اللباقة السطحية ، تلك الموهبة التي تبعث في المجتمع طرافة ، سيما مع النساء ! .. كان يعرف عن ظهر قلب دقائق المائورات (١) وما إليها ، وقد أوتي فن إبرازها ، وربطها بالمناسبات ، وإحاطتها بجو غريب ، وكان الذي حدث مثلا منذ سنتين عاما ، حكاية وقعت بالأمس ! وكان مليا بالموسيقى ، يحسن الغناء - بدرجة مقبولة - بصوته الآدمي . وقصارى القول أنه أوتي مواهب أجمل مما يحتاج إليه مستشار قضائي . وكان بحكم مجاملته لنساء (أنيسى) قد أصبح « موضة » بينهن ، فكن دائما يسبحنه وراءهن وكأنه « تسفاس » صغير ! .. حتى لقد راح يزعم أنه كان محظوظا لدى النساء ، فكان ذلك يطربهن كثيرا . وكانت سيدة منهن - تدعى « مدام ديبيانى » - تقول إن أقصى ما يشتهيها هو أن يقبل امرأة في ركبته (٢) !

ولما كان مطلعا على كتب الادب الراقى ، ومشغول بالحديث عنها ، فإن كلامه لم يكن ممتعا فحسب ، وإنما كان مفيدا

(١) مجموعات الأقوال المأثورة عن بعض الشخصيات ، والمطرائف

المفيدة الموضلة بهم ..

(٢) تمنى أنه لا يستطيع أن يصل الى منها أو يدها لقهر تامته !

أيضا . وعندما اكتسبت - فيما بعد - ميلا إلى الدروس ، أنهيت معرفتى به ، فأندت من ذلك نفعا عظيما . وكنت أسمى في بعض الأحيان من (شامبيرى) - حيث كنت إذ ذاك - لكى أزوره . وقد أذكى هو في هذا الميل وشجعه ، وكان يقدم لى بعض الإرشادات في مطالعاتى ، فكنيت كثيرا ما أنتفع بها . ولسوء الحظ ، كانت تعبر هذا الجسد الواهن نفس مرهقة الحس ، وقد قدر له - بعد ذلك بسنوات - أن يرتكب ذنباً لا أدريه ، مما أحزنه ، فلم يلبث أن قضى تحبه . وبإلها من خسارة ! لقد كان - يقينا - رجلا طيبا ، ضئيل الجسم ، يبدأ المسرء بالضحك منه ، ثم ينتهى بأن يحبه ! .. ومع أن حياته لم تكن مرتبطة بحياتى في شيء ، إلا أنني أخذت عنه بعض دروس نافعة ، فראيت - بدافع من السرفان - أن أخصه بحيز من ذكرياتى !



وما أن انصرفت من لندن السيد سيهون ، حتى هرمت إلى الشارع الذي كانت الأنسة جالى (١) تقيم فيه ، مهنيا نفسى بأن أرى شخصا ما ، داخلا أو خارجا ، أو فاتحا إحدى النوافذ ، على الأقل ! .. ولكن شيئا ما لم يلح لى ، ولا هسرة ! بل إن البيت ظل - طيلة مكثى هناك - مغلقا تماما ، وكأنه لم يعبر قط بسكان . وكان الشارع صغيرا ومقفرا ، فكان وجود إنسان

(١) اعتاد الملتحق في اسبانيا أن يتلأ على تارمة الطريق ، بالقرب من دار

الحبيبة ويهشى في المزج على « الجيتار » حتى أن تظن الى وجوده ، فتنم عليه بنظرة !

كفيلا بأن يستلقت الانتظار .. وبين الحين والحين ، كان يعبره مار ، ما بين داخل أو خارج من البيوت المجاورة . وقلقت من أجل نفسي ، فقد تراءى لى أنهم كانوا يحدثون سر وجودى هناك . وأمضتني هذه الفكرة ، فقد اعتدت دائما أن أقدم شرف وطمانينة أولئك الأعراء لدى ، على ممراتى الخاصة .

وأخيرا ، مللت لعبة العاشق الأسباني (١) ، ولما لم يكن ثمة «جيتار» معى ، فقد اعزمت الكتابة إلى الأنسة دى جرافينرييه . وكنت أفضل أن أكتب لصديقتها ، ولكنى لم أكن أجسر ، فضلا عن أنه كان من الأليق أن أبدا بالتي كنت مدينا لها بمعرفة الأخرى ، والتي كنت معها أكثر ألفة ومودة . وما أن أتيت رسالتى ، حتى حملتها إلى الأنسة «جيرو» (٢) ، وفقا لما اتفقت عليه مع الأنستين عندما ائترقنا ، وكانتا هما اللتان اقترحتا هذه الطريقة للتواصل . ذلك أن الأنسة «جيرو» كانت تحترف تنجيد الأثاث ، وقد عملت حيناً في دار السيدة جالى ، ومن ثم فقد كان دخول الدار مباحا لها . والحق أن اختيار هذه الوسيلة لم يبد لى موفقا ، ولكنى خشيت ألا ترشح الفناتان سواها ، إذا أنا أثرت أى اعتراض . كما أننى لم أجرؤ على القول بأنها كانت تعمل لحسابها الخاص .. وكنت أشعر بالضعة لمجرد

(١) الأنسة جالى والأنسة دى جر الفينرييه هما الفناتان اللتان قضى روسو معها يوما بيهيجا في الريف (المصحات ٢١٦ - ٢٢٢ من الجزء الأول) .

(٢) «جيرو» هي صديقة لوصيفة بدم دى فاران المدعوة «ميرسيريه» وكانت «جيرو» قد أعلنت على روسو الحب ، ورغم نفوره الشديد منها :

أنها كانت تجرؤ على أن تظن نفسها - في نظرى - منتمية إلى نفس جنس الأنستين ! على أننى ارتضيت في النهاية هذه الوسيلة لنقل رسالتى ، نظرا لعدم وجود سواها ، فأقدمت عليها برغم كل النذر !

واكتشفت «جيرو» سرى منذ الكلمة الأولى، فما كان هذا بالأمر العسير . وإذا كانت الرسالة الموجهة إلى فتاة شابة لا تشى بحقيقة الأمر ، فإن ارتياكى واضطرابى كانا كفيلين بأن يكشفنا سرى ! وقد يخطر بالبال أن هذه الجهة لم تبعث في نفس الفتاة أى سرور ، ولكنها في الواقع تكفلت بها ، وأدتها بأمانة . وفي الصباح التالي هرعت إليها ، فوجدت الرد المفسود . وما كان أسرعنى في الخروج من دارها ، لأقراه وأقبله دون حرج ! .. وليست بى حاجة إلى أن أفيض في هذا ، ولكن الذى يحتاج إلى إسهاب « هو مملك الأنسة جيرو » ، فقد وجدت فيه من الرقة والاعتدال فوق ما كنت أتوقع . كانت من الحكمة بحيث رأت أنها - بسنى عمرها السبع والثلاثين ، وبعينها الشبيهتين بعينى الأرنب ، وبأنفها الملوث بالسعوط ، وبصوتها الحاد الرقيق وبشرتها السوداء - لا يمكن أن تبارى فناتين شابتين ، ملبئتين بالحسن ، وفي كل أبهة الجبال .. ومن ثم لم تشأ أن تغدر بهما « كما لم تشأ أن تخدمهما .. بل إنها أثرت أن تفقدنى على أن تساعدما على الظفر بى . (كما سيبدو فيما بعد) .

١٧٢٢ سنة ٧

وكانت «ميرسيريه» قد بدأت تفكر - منذ فترة - في العودة إلى (فريبور) ، إذ أنها لم تطلق أى ثأ من سيوتها ،

وما لبثت الأنسة جيرو أن حملتها على أن تقرر ذلك ، بل إنها ذهبت إلى أبعد من هذا ، فأدخلت في روعها أن من المستحسن أن يرأفها أحد إلى دار أبيها ، ورشحتني لذلك^(١) وأرأت ميرسريه الصغيرة - التي لم أكن بفيضا إليها - أن الفكرة صالحة ، فإذا بهما تحدثاني عنها ، في نفس اليوم ، وكأنها أمر مغرور منه ! ولما لم أجد ما يضرني في البعد بهذه الطريقة ، فقد وافقت ، وأنا أحسب أن الرحلة لن تعدو ثمانية أيام على الأكثر . ولكن جيرو لم تحسب مثل هذا الحساب ، وتولت تدبير كل شيء . واضطرت إلى أن أكتف بحالتي المالية ، فسرعان ما دبرت لي الموارد ، إذ تكفلت «ميرسريه» بنفقاتي . وتعويضا عن الخسارة التي تكبدتها بذلك ، وافقت الغفاة - تحت إلحاحي - على أن ترسل متاعها البسيط مقدما ، بينما نقطع نحن الرحلة على الأقدام ، بتمهلين .. وهذا ما حدث !

ولكم يؤسفني أن أتحدث عن فتيات عديدات كن يحبينني .. على أنني لا أجد مبررا لأن أزهو بما خرجت به من كل هذه الغراميات .. ومن ثم أرى أن بوسعي أن أقول الحق دون تمويه ، فإن الأنسة «ميرسريه» - التي كانت أصغر سنا وأقل دهاء من جيرو - لم تبد قط نشاطا كالذي كانت هذه تبديه لإغرائني ، وإنما كانت تقلد لهجتي وصوتي وإلغائي ، وتردد كلماتي ، وتوليئني من الاهتمام ما كان ينبغي أن أوليها

(١) كانت هذه هي الحيلة التي لجأت إليها «جيرو» الماكرة كي تبعد روسو عن محبوبته ، ومن المدينة كلها !

إياه .. كما كانت تحرص دائما على أن ننام في حجرة واحدة ، إذ كانت شديدة الخوف .. ! وهي ألفة نادرة ما تقف عند هذا الحد ، في رحلة تجمع بين شاب في العشرين وفتاة في الخامسة والعشرين ! .. ولكن هذا هو عين ما جرى ، في هذه المناسبة . فبالرغم من أن «ميرسريه» لم تكن ذميمة ، فإن سذاجتي لم تقف عند حد أنني لم أعمد - خلال الرحلة بأسرها - إلى النطق بألفه مغالطة غصب ، وإنما بلفت بي السذاجة أنني لم أفكر - مجرد تفكير - في شيء من هذا القبيل على الإطلاق ! .. بل إنه لو خطرت لي هذه الفكرة ، لمجرت لغيائي عن أن أفيد منها ! فما كنت لأتصور كيف تنام فتاة وشاب في غرائي واحد .. وكنت أخال أن الاستعداد لمثل هذا الأمر الرهيب يتطلب قرونا من الزمن ! .. وإذا كانت ميرسريه البائسة قد طبعت - حين تكفلت بنفقاتي - في جزاء من هذا القبيل ، لقد خاب حسنها ، لأننا بلغنا «غريبور» بنفس الحال التي غادرنا بها (أنيسي) تباه !

وعندما مررنا بجنيف ، لم أسع لزيارة أحد ، ولكني أوشكت أن أصاب بمرض من فرط انفعالي وأنا أعبر جسور المدينة . أبدا ما أقبلت على هذه المدينة ، ولا ولجت أبوابها دون أن أحس بقلبي يغوص وقد أثقلته الانفعالات الطاغية ! .. فبينما كانت صورة الحرية النبيلة تسمو بروحي ، كان التفكير في المساواة والاتحاد ورقة الخلق يؤثر في نفسي إلى الدرجة التي تدمع عندها عيناي ، ويبعث في حسني احتدية على كوفي قد حرمت من كل هذه النعم ! .. وكم كنت أخطأ ! .. ولكنكم

كان هذا الشعور طبيعيا ، كذلك ! — لقد كنت أخال أنني أرى كل هذه النعم في وطني ، لأنني كنت أحملها في سويداء قلبي !

واضطربنا إلى أن نهر بمدينة (نيون) . . . قول كنت اجتازها دون أن أرى أبى الشيخ ! ؟ لو أنني فعلت ، لكنت خليقا بأن أموت — بعده — كمدا . . . ومن ثم تركت ميرسيري في الفندق وذهبت لأراه ، برغم كل الاعتبارات . آه ، ما كان أشد خطئي إذ أوجست من لقائه . . . فيما أن اقتربت منه ، حتى تفتح قلبه لعواطف الأبوة العارمة . . . وكم بكى عندها تعانقنا . . . ولقد ظن — بادئ الأمر — أنني عدت إليه ، فانبأته بتصتي وبخطئي . . . ومارض في وهن ، وراح يبصرني بالأخطار التي كنت أعرض نفسي لها ، قائلا إن أقصر الفزوات والحماقات هي أفضلها . . .

وفيما عدا ذلك ، لم يداخله أي ميل إلى فصبى على البقاء ، وأرى أنه كان في ذلك على حق . ولكن من المؤكد أنه لم يبذل كل ما كان في وسعه لاستبقائي ، لها لأنه كان يرى — في تقديره — أن من واجبي ألا أعود إليه ، ولها لأنه كان في حيرة . . . ولعله لم يكن يدري ما الذي يفعله بي في مثل تلك السن التي بلغتها . . .

ولقد علمت فيما بعد أنه كون لنفسه عن زميلتي في الرحلة فكرة كانت جد ظالمة وجد بعيدة عن الحقيقة ، ولكنها — على أية حال — كانت طبيعية ! . . . وكانت زوجة أبى امرأة طيبة ، على شيء من الدهاء والقول المعسول ، فقد تظاهرت بالرغبة في استبقائي للعشاء . . . ولكني لم أتحك ، وإن وعدتني بأن أبقى معها وقتا أطول عند عودتي ، وعهدت إليهما بحزمة متاعى الصغيرة ، التي كنت قد أرسلتها في مركب ، والتي كنت حائرا

فيما أفعله بها . وفي اليوم التالي رحلت مبكرا ، وأنا جد مقتبط بأننى رايت والدى ، وأننى وجدت الجراحة على أن أؤدى واجبي !

ووصلنا بسلام إلى (غريبور) ، وكانت مغاللات الأنسة ميرسيري قد خفت عندما اقتربت نهاية الرحلة . حتى إذا وصلنا ، لم تعد تبدو لى سوى الفتور ، كما أن أباهما — الذى لم يكن غارقا في الرخاء — لم يولنى حفاوة بالغة ، فاضطرت إلى أن أقضى ليلتي في إحدى الحانات . . . وزرتهما في اليوم التالي ، فدعوانى إلى العشاء ، وقبلت الدعوة . . . ثم افترقنا دون ما دموع ، وعدت في المساء إلى حائتى . وفي اليوم التالي رحلت ، دون أن أدري وجهة أقصدها !

وكانت تلك فرصة أخرى أرادت فيها العناية أن تمنحنى ما كنت أبتغيه لكي أنفق أيامي في هناء . . . فلقد كانت ميرسيري غفاة جد طيبة ، ولئن لم تكن بالذكية ولا بالجيلة ، فانبأها لم تكن — كذلك — بالدمية ، كما أنها كانت على شيء من النشاط وكثير من الرزانة . وكانت تعرض أحيانا لنوبات قصيرة هابرة ، تقضيها في بكاء ، ولكن هذه النوبات لم تكن تفضى قط إلى عواشب عاصفة . ولقد كانت الفتاة صادقة الليل نحوى ، فكان بوسعى أن أتزوجها دون عناء ، وإن أحترف مهنة أبيها (١) — إذ أن ميلي للموسيقى كان كفيلا بأن يجعلني أحب هذه المهنة — وإن استقر في (غريبور) ، وهى بلدة صغيرة ، قليلة الجمال ،

(١) يفهم من هذه العبارة أن أباهما كانا يكرهان

ولكنها تضم قوما طيبين . وكنت بذلك ساحرم بلا شك من متع عظيمة ، ولكنى كنت خليقا بأن أعيش فى سلام إلى آخر لحظة فى حياتى . ولقد كنت جديرا بأن أعرف - أكثر من أى أمرىء آخر - أنه لم يكن ثمة ما يبرر التردد لحظة واحدة ازاء صفقة كهذه !

وعلى أثر رحيلى من (فريبور) لم أرجع إلى (نيون) ، وإنما اتجهت إلى (لوزان) ، فقد شئت أن أتلى بمنظر البحيرة الجميلة التى تشاهد هناك فى أكثر أجزائها اتساعا . ولم تكن أغلب البوامث الضخمة التى تقرر مسلكى ، بوامث جاهدة . . فإن المناظر التى تشاهد عن بعد ، نادرا ما كانت من القوة بحيث تحفزنى على العمل . كما أن المستقبل غير المضمون كان يجعلنى انظر دائما إلى المشروعات التى يتطلب تنفيذها أجلا طويلا ، نظرتى إلى حيل خادعة ! . . وأنا بطبعى ، انغمس فى الآمال كفىرى ، طالما كانت لا تكبدنى شيئا ، أما إذا كانت تتطلب رعاية مستمرة فيأتى لا أمضى وراءها . . وأن أقل متعة صغيرة تعرض لى ، وتكون فى متناول يدى ، لأكثر إغراء لى من مباهج الفردوس . . على أننى استثنى من ذلك، المتعة التى يعقبها ألم ، فهى لا تغرينى قط ، لأننى لا أحب سوى المسرات النقية الخالصة ، وهذه لا يحظى بها المرء اطلاقا عندما يعرف أنه إنما يهيئ نفسه للندم !

وكنت بحاجة ماسة إلى بلوغ أى مكان . . فكان أقرب الأماكن هو أفضلها ! ولما كنت قد ضللت طريقي « فقد الفيتى - ذات مساء - فى (مودون) ، حيث انفلت القليل الذى كان قد تبقى

معى ، ما عدا عشرة « كروغرات » (١) لم تلبث أن تبددت فى الغذاء ، فى اليوم التالى . . حتى إذا بلغت - فى المساء - قرية صغيرة على مقربة من (لوزان) ، دخلت إحدى الحانات وليس فى جيبى دائق أدفعه لقاء مبيتى ، بل إننى لم أكن أدري ما قد يكون من أمرى ! وكنت جد جائع ، فجلدت وطلبت عشاء ، كما لو كنت أملك أن أدفع ثمنه ! . . ثم أويت إلى مضجعى دون أن أحمل هما ، فاستغرقت فى نوم هادى . . وبعد أن أغطرت - فى الصباح التالى - وحاسبت مضجعى ، أردت أن أتذكر له صديرى رهنا، لقاء السبعة « باترات » (٢) ، التى بلغتها نفقاتى . ولكن الرجل الطيب أبى ، وقال إنه - والحمد للسماء - لم يجرّد أحدا قط من ثيابه ، وأنه ما كان ليشرع فى ذلك لقاء سبعة « باترات » ، ومن ثم فقد بات فى وسعى أن يحتفظ بصديرى ، على أن أدفع له حقه متى استطعت . ولقد تأثرت لطيبته ، ولكن بدرجة أقل مما كان يتبغى ، وأقبل مما صرت أشعر كلما تذكرت الأمر بعد ذلك . وقد بادرت بارسال المبلغ إليه فيها بعد ، شاكرا ، مع رجل اتقنته . . على أننى بعد خمس عشرة سنة ، مررت بلوزان ، فى عودتى من إيطاليا ، فشعرت بأسف صادق لكونى نسيت اسم الحانة واسم الرجل ، وإلا لأذهب لرؤيته ، ولحظيت بسرور حقيقى وأنا أذكره بالخير الذى أسداه ، وأثبت له أنه لم يضعه فى غير موضعه ! . . وكم من خدمات أكثر أهمية ، بلاشك - ولكنها بذلت بكثير من

(١) « كروغرات » عملة المانية وتسموطة تدمية .

(٢) « باترات » عملة المانية أخرى .

التفضيل والمن - بدت لى أقل استحقاقا للعرفان من العمل
الإنسانى البسيط الذى بذله هذا الرجل الطيب فى غير زهو !

وفىما كنت أقرب من (لوزان) ، رحلت أتأمل الضيق الذى
وجدتنى فيه ، والوسائل التى أستطيع بها أن أنلزع نفسى منه
دون أن أطلع زوجة أبى على تعاسى ! .. وأخذت أقيس
نفسى - فى سفرى على الأقدام - بصديقى فنتور عندما وصل
إلى (أنيى) ، فإذا بهذه الفكرة تثبت الدفء فى نفسى، حتى أننى
اعتزمت أن أكون « فنتور » صغيرا فى (لوزان) ، دون أن يجول
بخاطرى أننى لم أوت لطفه ولا مواهبه .. وقررت أن أتسوم
بتدريس الموسيقى التى لم أكن على علم بها ، وأن أزعج أننى
وفدت من باريس - التى لم أزرها قط ! - وبناء على هذا
المشروع البديع ، شرعت فى السؤال عن فندق صغير أستطيع
أن أجد فيه مقرا مريحا بأبض النقات . إذ لم تكن ثمة مدرسة
للمساحة أستطيع أن أعرض عليها معوقى ، كما أننى لم أكن
من الغباء بحيث أندس وسط أهل الفن ! .. ودلتى البعض على
شخص يدعى « بيروتيه » كان يؤجر غرضا فى داره . وتجلى لى
أن هذا الـ « بيروتيه » كان خير رجل فى العالم ، وقد أحسن
استقبالى . وإذ رويت له أكاذيبى الصغيرة - كما دبرتها -
وعدتى بأن يكرمنى لدى الناس ، وأن يسعى لياتينى ببعض
التلاميذ . وقال لى إنه لن يسألنى أجرا إلا بعد أن اكتسب
نفودا . وكان أجر المنزل خمسة دنانير بيضاء (١) ، وهو أجر

(١) (ECL) عملة تدمية من الفضة .

زهيد بالنسبة للكان ، ولكنه كان باعظما بالنسبة لى . ولقد
تصحتى « بيروتيه » بأن أكون فى البداية « نصف نزيل » ، أى أن
أستمتع بالإقامة ، وبفداء يتألف من حساء دسم - لا أكثر -
وبعشاء طيب فى المساء .. غوافقت . كان هذا الـ « بيروتيه »
المسكين يقدم لى كل هذه الميزات عن طيب خاطر ، وعن خير
نية فى الدنيا . ولم يكن يدخر وسعا كى يساعدنى !

ترى لماذا قدر لى - وقد وجدت كل هؤلاء الناس الطيبين
فى صباى - ألا أجد منهم فى كبرى إلا القليلين ؟ .. أكون
نوعهم قد انقرض ؟ .. لا ، ولكن الطبقة التى اضطر إلى البحث
عنهم فيها اليوم ، لم تعد عين الطبقة التى كنت أعثر عليهم فيها
من قبل ! ذلك لأن نداء الأحاسيس الفطرية يزداد ترددا وانهداما
لدى الناس الذين لا يسمع التمشدق بالعواطف العظمى بينهم
إلا قليلا ! .. أما بين أبناء الطبقات الراقية ، فإن المشاعر الفطرية
تختنق ثمنا ، فلا يعلو سوى صوت المصلحة أو الغرور !

وكتبت لأبى من (لوزان) ، فأرسل حزمة متاعى ،
وخصنى بنصائح رائعة ، كان خليقا بى أن أفيد منها .. وكنت
قد لاحظت أننى أصبحت أتعرض لفترات من الشرود لم أدر
مآناها ، بل كنت لا أشعر خلالها بنفسى - وهنا أيضا بإدرة من
البوادر التى تستحق الملاحظة ! - ولكى تدرك إلى أى مدى كنت
أفقد رأبى ، وإلى أى مدى « ففكرت » نفسى - أى تشبهت
بفنتورا ، إن صرح هذا القول - يكفى أن ترى كيف من الأعمال
الجنونية كنت آتيها معا ، وفى آن واحد .

الذى لا يكاد يصدق ، ولكنه الحقيقة الخالصة — أردت أن أوتج هذا الإنتاج الراقى بشكل يليق به ، غاضبت في النهاية أغلبية بدعيّة كانت تتردد في الطرقات ، ولعل الناس أجمعين لا يزالون ينكرونها ، وهذا نصها :

« يا للتجور .. وبيا للوجود .. ماذا ؟ ! »

هل غدرت حبيبك كلاريس بأهلك ؟ ! .. الخ .. »

وكان فننور قد لقنني هذا اللحن — الذى يعزف على أوتار الطبقة الثانية — مع كلمات أخرى بذنية « نذكرته بفصلها . ومن ثم أضفت في نهاية لحنى هذا المقطع وأنفساه الخفيضة » وقدمت الجميع على أنها من ابتداعى ، في اعتداد ، وكأننى كنت أخاطب قوما من سكان القمر !

واجتمعت الفرقة لعزف لحنى ، غشحت لكل فرد نوع الحركة ، وطريقة الأداء ، وعلامات تكرار الأجزاء ، وانهمكت في ذلك كل الانهماك .. غفضى العازفون خمسا أو ست دقائق — بدت لى كخسة أو ستة قرون ! — في تنسيق أصواتهم وآلاتهم ، حتى أصبحوا أخيرا على تمام الابهة ، فوقعت الضربات الخمس أو الست إشارة الانتهاء ، على بنضدة القيادة ، بانبوبة بدعيّة من الورق ، مساد الصمت ، وبدأت أوقع الوقت في عظيمة وجد .. وبدأ العزف ! — لا ، فمئذ ظهور « الأوبرا » الفرنسية على قبة الحياة ، لم تسمع مثل تلك « الضوضاء » ! — ومهما يكن قد خالج القوم بصدد براعتي المزعومة ، فإن الأمر كان أسوأ من أى شيء توقموه ! .. وكلم الموسيقيين ضحك ، منها فتح المستمعون عيونهم عن آخرها .

مدرسا للتعناء دون أن أعرف كيف أفك رموز أى لحن ! — إذ أن الشهور المسخة التى قضيتها مع « لوميتز » لم تكن بالكافية ، حتى إذا كنت قد أغدت منها ! — ثم أئننى كنت قد تعلمت على يدى أستاذ ، وكان هذا كافيا لأن يجعلنى لا أكثر بالدراسة (١) !

وإذ صرت باريسيا من (جنيف) ، وكاثوليكي في بلد بروتستانتى ، فقد رايت أن على أن أغير اسمى كما غيرت عقيدتى ووطنى ، إذ كنت أحاول دائما أن أصبح أقرب بما أكون إلى المثل العظيم الذى اتخذته . وقد كان يسمى نفسه « فننور دى فيلنيف » ، لذلك تلبت اسم « روسو » إلى « ووسور » ، أو « فوسور » ، واسميت نفسى « فوسور دى فيلنيف » ! ولقد كان « فننور » على معرفة بالتلحين ، وإن لم يقل شيئا عن ذلك .. أما أنا . فبدون معرفة بالتلحين ، رحت أفخر ببراعتى أمام العالمين .. وبدون أن أستطيع تمييز أبسط أغنية دارجة ، جعلت من نفسى ملحنا ! .. ولم يكن هذا كل ما فى الأمر . فقد قدمت إلى السيد دى تريوران — وكان أستاذا فى القانون ، أحب الموسيقى واعتاد أن يقيم حفلات موسيقية فى داره — فثبنت أن أعرض عليه « عينة » من براعتى ، وعكفت على وضع لحن لإحدى حفلاته فى جرة بالغ ، وكأننى كنت أعرف كيف أؤدى المهمة ! .. وواظب على العمل خمسة عشر يوما فى إعداد هذا اللحن الجميل ، وفى نسخ صورته ، وفى تقسيم أجزائه ، وفى توزيعها بأطمنان بالغ ، وكان اللحن تحفة متناسقة . وأخيرا — الأمر

(١) لعله يتصد أن الفن لم يكن موهبة أصيلة فى نفسه .

يسدوا آذانهم ، ولكنهم لم يعرفوا لذلك وسيلة . وعمد العازفون القساء - رغبة في السخريّة - إلى المزف بشدة كافية لأن تخرق طبلة اذن الاصم (١) !

وأوتيت من الجلد ما يكفى لأن أستمّر في دورى دون توقف ، وإن راح عرقى يتصيب غزيرا في الواقع . . فقد منعتى الحياء ، فلم أجروا على الهرب . بينما كان الجميع جالسين . . وعلى سهيل المزاء ، سمعت المساعدين المحيطين بى يتهايمون بعضهم في أذان بعض ، أو - بالأحرى - في أذنى . . فقال أحدهم : « ليس في هذا ما يطلق ! . . » وقال آخر : « يا لها من موسيقى جنونه ! . . » وقال غيره : « يا للحن الشيطاني ! . . مسكين أنت يا جان جاك ، فما طمعت . . في تلك اللحظة - في أن تنتزع أنفامك هذه يوما ، وفي حفرة ملك فرنسا وحاشيته بأسرها ، تيمّات الدهشة ، وتصفيق الإعجاب . . وأن تتهايمس النسوة الفاضلات ، في المقصورات المحيطة بك : « يا لها من نغمات ساحرة ! . . أية موسيقى فائقة ! . . كل هذه الأنغام تنفذ إلى القلب ! . . »

على أن الذى رد القوم إلى رضاهم ، هو ذاك المتقطع الذى أصفته في النهاية . . فما أن عزفت بضع نغمات منه ، حتى سمعت التهفّات تتصاعد من كل جانب . . وأخذ كل امرئ

(١) في الأصل : تخرق اذن أحد الخمسة عشر عشرينا . . كتابة عن تزييل المنشقى الذى يحمل هذا الاسم « الضمة عشر عشرينا » في باريس ، والذي أنشئ في الأصل لياوى ٢٠٠٠ أغنى . .

يهنّتى بذوقى الجميل ، ويؤكد لى أن هذا المتقطع كتيل بان يذيع اسمى ، وأنتى جدير بان تردد انغماسى في كل مكان . . ولست بحاجة إلى أن أصف غمى ، ولا إلى أن أعترف بأننى كنت أستحقّه !

وفي اليوم التالي ، جاء أحد العازفين - وكان يدعى « ليولود » - ليرانى ، وكان من الأمانة بحيث أنه لم يهنّتى بنجاحى . . فلذا شعورى العميق بحماقتى ، وبالخجل والندم والياس من جراء الحال التى انحدرت إليها ، واستحالة إيفاء طلبى مقلّقا على هذه الآلام الجسيمة . . إذا شعورى هذا يحملنى على أن افتح قلبى له ، وأن أطلق العنان لدموعى . . وبدلا من أن أكتفى بأن أعترف له بجهلى ، أفضيت إليه بكل شيء ، وسألته أن يكتفم سرى ، فوعدنى بذلك ، وبر بوعده على النحو الذى يمكن تصوره . . فما أن حل مساء اليوم ذاته ، حتى كانت (لوزان) بأسرها قد عرفت حقيقتى ! . . وكان أعجب ما في الأمر ، أن أحدا لم يطلعنى على أنه قد عرفها ، ولا « بيرونيه » الطبيب ، الذى لم يحجم ، برغم ذلك كله ، عن إيوائى وإطعامى !

وقدر لى أن أعيش . . ولكن في حزن غامر . . وكان من جراء موقف كهذا ، أن لوزان لم تعد بالنسبة لى مقاما مستحبا ، فلم يقبل التلاميذ زراعات . . بل أننى لم أظفر بطليدة واحدة ، ولا بأحد من أبناء المدينة . . كل الذين ظفرت بهم كانوا اثنين أو ثلاثة من الألمان الذين كانوا من الغباء بقدر ما كنت من الجهل ، وكانوا يضايقوننى إلى درجة الموت . . على يدى - ولو عازفين غير منتظمين -

بيت واحد . كانت فيه فتاة صغيرة - كانتا الحية - اخذت
تتلوى باملاعى على كثير من القطع الموسيقية التى كنت عاجزا
عن قراءة « نوناتها » ، ثم كانت تنطلق فى الغناء - بعد ذلك -
امام مدرس الموسيقى لتريه كيف يجب ان يؤدى اللحن ! ..
وكننت لا اكاد استطيع ان اقرا اى لحن من اول نظرة . حتى
اننى - فى الحفلة الباهرة التى تحدثت عنها - كننت عاجزا عن
ان اتتبع العزف لحقة لاتنين ما اذا كان العاززون يحسنون
توقيع ما كان تحت يمى ، وما كننت قد افنته بنفسى ! .. ام لا !

وفى عمرة هذا الهوان ، وجدت عزاء فى الاتياء التى كننت
اتلقاها بين وقت وآخر ، من الصديقتين الفانتين . . . فلقدت
اعتدت دائما ان اجد طاقة مرغفة عظيمة فى الجنس الآخر .
فليس ثمة ما يواسى احزائى - فى المصائب - اكثر من انثى
لحيفة تعنى بى ! .. على ان همذا القراسل لم يلبث ان انتقع
بعد ذلك بقليل ، ولم يقدر له ان يستأنف قط . . . غير ان ذلك
كان فى الواقع ذنبى ، إذ انثى عندما غيرت محل إقامتى ، أغفلت
ان ابعث إليها بمنوانى . ثم نسبتهما تماما - إذ كننت مضطرا -
بحكم الضرورة - إلى ان افكر فى نفسى باستمرار !

ولقد انقضى وقت طويل دون ان اتحدث عن « ماما » (١)
المسكينة . على ان المرء يكون جد مخطئ إذا ظن اننى نسيتها

(١) رأينا فى الجزء الاول كيف اطلق روسو على راعيته الكرمه « مدام

دى غاران » لقب « ماما » .

هى الأخرى ، فإننى لم اكف عن التفكير فيها ، وعن الشوق
إلى العثور عليها ثانية ، لا حاجتى المادية فحسب ، وإنما لما
هو أكثر من ذلك . . . لحاجتى القلبية ! .. كان تعلقى بها -
برغم ما كان عليه من حرارة وحنان - لا يحول بينى وبين
ان أحب غيرها ، ولكن على غير شاكلة حبى لها ! فإن النساء
جميعا كن - على السواء - مديونات بعاطفتى لمفانئن . .
أما هى ، فكانت لها مكانة غريذة ، دونها مكانات الأخريات . فلم
تكن مفانئهن تعدو عليها . . بل لقد كان من المحتمل ان تهرم
« ماما » وان تصبح دمية ، وأنا مقيم على حبها ، دون ان
يقبل شغفى بها ! .. كان قلبى قد نقل إلى شخصها كل التمجيد
الذى استشعره من قبل نحو جمالها . فما كانت عواطفى نحوها
لتتغير قط - . . . منها يكن التغير الذى يتعرض مظهرها له -
طالما ظلت فى جوهرها هى بذاتها ! .. وكننت ادرك تماما
أقنى مدين لها بالفضل ، ولكنى لم افكر فى ذلك قط . فى الواقع
.. بل كان ما فعلته وما لم تفعله من أجلى سواء عندى ، إذ
اننى لم احببها عن شعور بالواجب أو بالمصلحة الذاتية .
ولا عن خضوع وامثال ، وإنما احببتها لأننى خلقت كى احبها !
.. وكننت عندما اتع فى هوى أية امرأة أخرى ، اشغل بها -
كما ينبغى ان اعترف - فيقل تفكيرى فى « ماما » . . . ولكنى
كننت إذا ما عدت للتفكير فيها « افكر بنفس المتعة . وما شغلت
بها قط - . . سواء كننت على حب أو لم يكن - دون ان اشعر
باننى لن اجد سعادة حقيقية قط . الحياة طالما كانت سعيدة
عنها !

ومع أنني لم أسمع عنها منذ أمد طويل ، إلا أنني لم أعتقد قط بأننى فقدتها تماما . ولا خطر لى أن من الممكن أن تكون قد نسيتنى . وكنت أقول لنفسى : « إنها لن تلبث أن تعلم - طال الوقت أو قصر - بأننى شريد وحيد ، فتبعث إلى بها يطلبتنى إلى أنها على قيد الحياة . ولسوف ألقاها ثانية ، بكل تأكيد . وفى انتظار ذلك ، كان من يواصب البهجة أن أعيش فى مستقر رأسها ، وأن اجتاز الطرقات التى سارت فيها من قبل ، وأمر بالبيوت التى كانت تقيم فيها . . كل هذا بالحدس والنخمين ، فقد كان من نزواتي الحمقاء أننى كنت عاجزا عن أن أحمل نفسى على الاستسلام عنها . بل عن ذكر اسمها « ما لم تكن ثمة ضرورة ماسة . . كان يبدو لى أننى بذكر اسمها أشتى بكل ما كانت تلهمنى إياه من مشاعر ، وأن فمى يفضح سر قلبى . وأننى أخرجها بطريقة ما ! كذلك خيل لى أن تحرجه عن ذكر اسمها كان يمزج بشعور ما كان يوحى لى بأن أحدا قد بذكرها أبهى بسوء ! فقد كان الناس يكتفون من الحديث عن الخطوة التى اتخذتها ، ويمسكون سلوكها بعض الشيء . لذلك أثرت ألا أسمع أى شئ يقال عنها - على الإطلاق - . خوفا من أن يقال لى ما لا أتوق إلى سماعه !

ولما لم يكن تلاميذى يشغلوننى كثيرا ، وكان مسقط رأسها لا يبعد عن (لوزان) بأكثر من أربعة فراسخ ، فقد قضيت ثلاثة أيام أو أربعة أتمشى هناك ، دون أن يتارقنى أعذب شعور عرفته . كان لمنظر (بحيرة جنيف) وضافها البديعة سحر يأسر عيني دائما ، ولا قبل لى بوصفه . - سحر لم يكن

يتحصر فى جمال المنظر فحسب ، بل كان يشتمل أيضا على شئ أكثر جاذبية ، وأقدر على التأثير على . والسيطرة على مشاعرى . وفى جميع المرات التى كنت أقتررب فيها من مقاطعة (فود) ، كان يضاهرنى شعور ينطوى على ذكرى « مدام دى غاران » - التى ولدت هناك - وأبى ، الذى عاش هناك ، والآنسة دى « فيلسون » التى استمتعت بأولى ثمار حب صباى . وكثير من الرحلات البهيجة التى قمت بها فى طفولتى . . وسبب آخر - فيما يبدو لى - كان أكثر إثارة واشد غموضا . وأقوى سلطانا من كل هذه مجتمعة . . كانت الرغبة المتأججة فى هذه الحياة الهائلة الوداعة - التى كانت تقر منى برفق اننى ولدت لها - تتجه دائما إلى مقاطعة (فود) ، على مقربة من البحيرة . . ووسط الريف الفاتن . . كنت أصيبو إلى أن يكون لى بستان على شاطئ هذه البحيرة دون سواها ، وإلى أن يكون لى صديق أمين ، وامرأة لعيفة ، وبقرة ، وزورق صغير . . ولن أنعم بسعادة كاملة على الأرض ، إلا إذا تحقق لى كل هذا ! وأنى لأضحك من السذاجة التى كانت تحصدونى إلى زيارة هذه البلاد مرارا ، لمجرد البحث عن هذه السعادة الخيالية ! وكنت أدهشى دائما إذ كنت أجد سكانها - لا سيما النساء مقوم - على التقبض مما كنت أئشد . . لكم كان يهولنى هذا التناقض ! . . أبدا لم يلح لى أن كلا من المقاطعة وأهلها قد خلق من أجل الآخر !



وفي خلال الرحلة إلى (غيفاي) (١) - أطلقت نفسي -
وأنا أتمشى على شاطئ البحيرة الجميلة - للشجون المذبة -
نإذا بقلبي يندفع في شوق إلى آلاف من الفائن البرية -
وأترعت نفسي بالانفعالات ، فرحت أتهجد وأبكي كالطفل ! ..
كم من مرة توقفت لأبكي ما شاء لي البكاء ! .. وكنت أجلس
على حجر كبير ، أتسلى بتأمل دموعي وهي تتساقط في الماء !

وفي (غيفاي) ، أقمت في (لاكلية) . وفي خلال اليومين
الذين أقمتهما هناك دون أن أرى أحدا ، تملكني نحو هذه
المدينة حب ظل يلاحقني في كل رحلاتي - وحملني - في
النهاية - على أن أقيم فيها مبعدا لأبطال خيالي القصصى . وأنى
لاقول - عن طيب خاطر - لأولئك الذين أوتوا ذوقا وحسا
مرهقين : « اذهبوا إلى غيفاي . وجوسوا خلال ريفها ، وتأملوا
المواقع ، وتبشوا على ضفاف البحيرة ، وقولوا ما إذا كانت
الطبيعة لم تخلق هذا البلد الجميل لجوليا وكليروس (٢) ..
ولكن ، لا تتوقعوا أن تجدوهم هناك ! » .. على أنى أعود الآن
إلى قصتي :

ولما كنت كاثوليكيًا ، وقد اعترف بى كذلك ، فقد رحلت
أمارس جهارا ، وبدون إحجام ، العقيدة التى اعتنقتها ..
وكنت - في أيام الأحد ذات الجو المعتدل - أحضر الصلاة في
(أسين) ، على مبعده فرسخين من (لوزان) ، فكانت أقطع

(١) مسقط رأس مدام دي « نگران » .

(٢) هؤلاء الثلاثة من أبطال قصة روسو الطويلة : جلويج الحنيفة .

المسافة عادة في صحبة شبرى من الكاثوليكين ، أذكر منهم
بالذات شخصا كان يحترف التطريز الباريسى ، وقد غاب عنى
اسمه - ولم يكن الرجل باريسيا على شاكلتى - وإنما كان
باريسيا صبيها ، من باريس . وكان تقيًا مؤمنا . ذا قفلة
طيبة كبناء (شامبانى) ، وقد بلغ من حبه لوطنه أنه لم يسمح
لنفسه البتة بالارتياح في أننى باريسى مثله ، خوفا من أن
يضيع على نفسه فرصة الحديث عن باريس . وكان لدى السيد
« دى كروزا » - مساعد الحاكم - بستانى من باريس كذلك ،
ولكنه كان أقل طيبة ، وكان يرى أن من المساس بكرامة
بلده أن يجرؤ أى إنسان على أن ينتمى إليها دون أن يكون له
حق في هذا الشرف ! .. لذلك راح يملطرنى بالأسئلة - وهو
يبتسم في خبث ، بلهجة الوائق من أنه لن يلبث أن يكتشف
غلطة ! ولقد سألتنى مرة عن أبرز معالم (مارشيه نيف) ،
فأجبته اعتباطا ونخبطا ، كما يستطيع المرء أن يحدث . وجدير
بى اليوم - وقد أقمت في باريس عشرين عاما - أن أكون على
دراية بها ، ومع ذلك ، فلو أن أحدا وجه الى سؤال كهذا
السؤال ، لما كان ارتياكى في الإجابة أقل منه يومئذ ، ولاستفتج
أى امرئ - من هذا الارتباك - أننى لم أظن باريس قط ! ..
إلى هذا الحد يكون المرء معرضا للاعتماد على ظواهر خداعة ،
ولو صادف الحقيقة !

وليس يوسمى أن أذكر تماما مدة إقامتى يومئذ في (لوزان) .
فإننى لم أحمل من هذه المدينة ذكرًا من حدة . شربى شربة
هو أننى حين وجدت نفسي عاجزا عن كسب عيشي -

نزحت منها إلى (نيوشاتيل) حيث قضيت الشتاء . ولقد كنت في هذه المدينة أكثر توفيقا ، إذ كان لدى تلاميذ ، كما أننى كسبت منها ما مكنى من الوقاء بدينى لصديقى الطبيب «بيرونيه» ، الذى كان من النبل بحيث أرسل الى - فى الماضى - حزمة متسامى الصخرة « برغم أننى كنت مدينا له بمبلغ كبير !

ولقد تعلمت الموسيقى - دون قصد منى - خلال تدريسي إياها . وكانت حياتى على ندر لا بأس به من الدعة . كانت حياة تكفى لأن يفتح بها أى رجل عاقل . ولكن قلبى القلق كان يصبو إلى شيء آخر . . . وكنت فى أيام الأحسد والأيام الأخرى التى أخلو فيها من العمل ، أرتع فى الربف والغابات المجاورة . دون أن أكف عن التجوال . والتأمل . والفنيد . وكنت إذا ما خرجت من المدينة ، لا أعود إليها قبل المساء . وفى ذات يوم ، كنت فى (بودرى) فولجت غنودا لأتناول الغداء . ولما بى أرى رجلا طويل اللحية ، ذا حلة بفسجية على النمط اليسوانى ، وقلنسوة من الفرو ، وقد أوتى مظلوا يتم عن نيدل . وكان يجد عناء - فى أكثر الأحيان - فى أن يجعل القوم يفهمون ما كان يبنى ، إذ كان لا يكاد ينطق بغير لهجة ركيكة لا مسبيل إلى تمييزها تقريبا ، ولكنها كانت شديدة الشبه باللغة الإيطالية ، ولا لغة غيرها . وفهمت كل ما كان يقول تقريبا ، وكنت الوحيد الذى فهم . ولم يجد الرجل بوسعه أن يوضح ما يبغى إلا بتبادل الإشارات مع صاحب الفندق ومع أبناء المنطقة ، فوجهت إليه بضع كلمات بالإيطالية ، فهما تماما ، فنهض وعانقنى فى

ابتهاج . وسرعان ما تعارفنا ، ومنذ تلك اللحظة عملت مترجما له . وكان غداؤه شهيا ، فى حين أن غدائى كان أقل من المتوسط ، غدعائى إلى أن أشاركه طعامه ، فلم أيد تمتعا بذكر . وبينما كنا نشرب ونتكلم ، وثقنا من تألفنا ، فلم ينته الغداء حتى أصبحنا لا نطيق اغترافا ! . . وروى لى أنه كان قسما يونانيا ، و « أرشمندريت » لبيت المقدس ، وقد أوعد لجمع اكتبابات من أوربا لتجديد كنيسة المهمد المقدس . واطلعنى على شهادات بديعة من القيصرة والإمبراطور ، كما كان لديه كثير غيرها من ملوك آخرين . وكان جد راض عما جمع حتى ذلك الحين ، ولكنه كان قد صادف فى المانيا صعوبات لا تخطر بالبال . إذ أنه لم يكن يفقه كلمة واحدة من الألمانية أو اللاتينية أو الفرنسية ، فكان مضطرا إلى الاقتصار على لغته اليونانية . وعلى اللغة التركية ، واللغة الفرنجية ، مما لم يسعته كثيرا فى البلدان التى لم يكن ملها بالنسبتها . لذلك عرض على أن أصبح له فاكون له سكرتيرا ومترجما . وإلى جانب أن حلتى البنفسجية المتواضعة - التى كنت قد ابتعتها حديثا - لم تكن تنسجم مع مركزى الجديد ، فلنقنى لم أوت من أناقة المظهر سوى قسط بسيط ، مما جعله يعتقد أن الفلتر بى أمر غير عسير . ولم يكن فى ذلك مخطئا ، سرعان ما تم اتفاقنا . إذ أننى لم أطلب شيئا ، فى حين أنه وعد بالكثير . . وبدون احتياط ، ولا ضمان . ولا معرفة ، أسلمته قبايدى . . وهكذا رحلت من الغد فى طريقى إلى بيت المقدس !

وبدأنا رحلتنا بمقاطعة (نورد) - ذلك الحين - من طرس .

إذ إن كرامته الكنيسية لم تكن لتسمح له بأن يقوم بدور المتسول . ولا بجمع الاكتسابات من خاصة القوم . على أننا عرضنا مهبته على مجلس الشيوخ ، فمنحه مبلغاً صغيراً . ومن هناك يمشي شطر (بيرن) ، وهبطنا في فندق « أوفوكون » ، وكان في ذلك العهد نزلاً طيباً ، يؤمه وسط طيب . وكانت المائدة حافلة ، ومحفوفة بالعناية . وكان قد انقضى وقت طويل اضطرت فيه إلى الغزول بالفنادق الرخيصة ، ومن ثم فقد كان لزاماً علي أن أهيب نفسي لتسويض ما غافني . وكانت الفرصة سانحة ، فاستغللتها . ولقد كان السيد الارشمندريت « نفسه رجلاً طيب المأثرة » مشغولاً بالمائدة ، برها ، يجيد الحديث مع من كانوا يفهمونه . ولم تكن تنقصه المعرفة . وكان يجيد عرض بلاغته اليونانية بكثير من البراعة . وحدث ذات يوم أنه أصاب أصبعه بجرح عميق . بينما كنا نكسر بندقا عقب الغداء ، فلما انسأب الدم دافقاً ، عرض أصبعه على الحضور وهو يقول ضاحكاً : « ألا ابدوا إعجابكم يا سادة .. إنه دم بيلاسجي ! » (١) .

ولم تكن خدمتي له قليلة النفع في (بيرن) ، فلم أخرج منها بنتيجة سيئة كما كنت أخشى ، وإنما كنت أكثر جرأة وأبلغ حديثاً مما لو كنت أعمل لنفسي ! .. على أن الأمور لم تجر



وبينما كنا نشرب ونتكلم ، ولقنا من نالنا ، فلم يلبث الغداء حتى أصبحنا لا نطق إلا بالفرنسية ! ..

(١) نسبة إلى « بيلاسجو » ، وهو منبر حريق كان ينتشر قديماً على سواحل وفي جزر شرقي البحر الأبيض المتوسط ، في « بيرن » ، ليعبر عن الشهادة.

بالبساطة التي جرت بهيما في (غريبور) ، بل كان لابد من مؤتمرات طويلة وعديدة من كبار رجال الدولة كما ان نحصى شهادات « الارشيمندريت » لم يكن بالمسألة التي تتم في يوم واحد . وأخيرا ، عندما تمت الإجراءات اللازمة ، كان علينا ان نعرض الأمر على مجلس الشيوخ ، فذهبت مع « الارشيمندريت » بوصفى مترجما له ، فطلب إلى أن أنكم ، وكان هذا آخر ما توقعته ، فما خطر بيالى أن ثمة ضرورة - بعد المحادثات الطويلة مع الأعضاء فرادى - إلى مخاطبة المجلس مجتمعا ، وكأنها لم يدر من قبل أى حديث ! .. فتصوروا ارتباكى ! .. تصوروا رجلا خجولا مثلى ، يطالب بأن يتكلم لا أمام ملا من الناس فحسب ، وإنما أمام مجلس شيوخ (بيرن) بالذات .. وأن يتكلم ارتجالا ، وليست أمامه مذكرة واحدة معدة .. كان هذا ما أوشك أن يقتلنى ! .. ومع ذلك فإننى لم أجبن ، وإنما عرضت في وضوح وإيجاز مهمة الارشيمندريت . واطريت تقوى الأراء الذين ساهموا في الاكتساب الذى جاء لجمعه ، ولكنى أثير حمية مثل هؤلاء السادة الفخام ، قلت إنه من غير المتوقع إزاء كرمهم المألوف أن يكونوا أقل من أولئك .. ثم حاولت أن أثبت لهم أن مثل هذا العمل الخيرى يعم المسيحيين جميعا ، دون ما تمييز بين مذاهبهم .. وانتهيت بأن وعدت كل من يساهم فيه ببركات من السماء !

ولن أقول إن خطابى كان مؤثرا ، بيد أنه صادق - بالتأكيد - هوى لدى المستمعين . وعند مفادرة الاجتماع ، تلقى « الارشيمندريت » تبرعا سخيا مشرقا ، فضلا عن إطراءات لذكاء

سكرتيره ، نعمت بمهمة ترجمتها إليه ، وإن لم أجسر على أن أنقلها بنفسها ! وكانت هذه هي المرة الوحيدة في حياتى التي تكلمت فيها على الملأ أمام صاحب سلطان ، ولعلها أيضا المرة الأولى التي تكلمت فيها بلباقة وإجادة . فإى تحول في تصرفات نفس الرجل ! .. لقد ذهبت أخيرا - منذ ثلاث سنوات - إلى « اغردون » لأزور صديقى القديم السيد « روجان » ، فاستقبلت وفدا جاء يشكرنى إذ أهديت مكتبة البلدة بعض الكتب .. والسويسريون خطباء بارعون - ومن ثم انطلق هؤلاء السادة في الخطابة لى ، ووجدتنى مضطرا للرد ، ولكنى ارتبكت بدرجة كبيرة حين شرعت في ذلك ، واضطربت أفكارى إلى درجة جعلتنى أوجز وأجعل نفسى موضع السخرية ! .. وعلى الرغم من أننى خجول بطبيعتى ، إلا أننى كنت جسورا في بعض الأحيان - في شبابى - ولكنى لم أكن كذلك قط في كبرى .. فكلما ازدادت تعمرا على المجتمع ، قلت قدرتى على أن أكفي نفسى وغما لاساليبه في الحديث !

وإذ غادرنا (بيرن) ، ذهبنا إلى (سولير) ، إذ ارتأى الارشيمندريت أن يجتاز المانيا ثانية ، عائدا عن طريق المجر أو بولندا ، وهى رحلة بالغة الطول . ولكنه لم يخش طولها ، إذ كان كيه خليقا بأن يمتلئ خلال الطريق بدلا من أن يفرغ ! .. أما أنا - نكان سواء لدى أرحلت على جواد أو على قدمى ، فما كنت لأبتغى أفضل من الترحال بهذا الشكل ، طيلة العمر .. ولكن كان مكتوبا لى ألا أعض في «مرحلاتي» !

كان أول ما فعلناه عند وصولنا إلى (سولير) هو الذهاب
تحتية السيد سفير غرنسا . وكان هذا السفير - لثوء حظ
أسبقى - هو « المركيز دى بوناك » الذى كان مسفيرا لدى
الباب العالى « والذى قدر له أن يكون على معرفة وأغنية بكل
ما يتعلق بكنيسة المهد المقدس . وقضى الارشيمندريت ربع
ساعة فى المقابلة التى لم يسمح لى بحضورها . لأن السيد
المسفير كان يفهم لسان الفرنجة ويعادلتنى - على الأقل - فى
اقتان الحديث بالإيطالية . وعندها خرج صاحبى اليونانى -
هميت بأن أتبعه ، ولكنى استوقفت ، إذ حان دورى لمقابلة
السفير ، فقد تقدمت على أننى ياريسى ، ومن ثم تحت ولاية
صاحب السعادة ! وسألنى السفير عن اكون . وناشدنى أن
أقول الحقيقة ، فوعدت بذلك ، ورجوت بأن يأذن لى بأن أخلو
إليه ، فآذن لى ، وصحبنى إلى مكتبه ، وأغلق الباب . . . وإذ ذاك
ارتيمت على قدميه ، وبررت بوعدى . . . وما كنت خليقا بأن
أضن بالكلام ، ولو لم أمد بشيء ، إذ كانت الرغبة المستمرة فى أن
أفضى بها فى صدرى تدفع قلبى إلى شفتى فى أية لحظة . .
وإذا كنت قد كشفت حقيقتى دون تحفظ للموسيقى « ليتولد »
فما كان من المحتمل أن الجأ إلى التكم امام المركيز دى «بوناك»!

وبدا عليه الاقتناع بقصتى القصيرة ، وبالصرحة التى
فضفضت بها عن صدرى ، فأمسك بيدى وقادنى إلى السيدة
زوجة السفير ، فقدمنى إليها ، وأوجز لها قصتى - فظلمتنى
السيدة دى بوناك فى رفق ، وقالت إننى يجب ألا أترك مع ذلك
الراهب اليونانى . ومن ثم تقرر أن أبقى فى الدار حتى يربا ما يمكن

أن يفعل من أجلي . ووددت أن أذهب فأودع ارشيمندريتى
المسكين الذى كنت أشعر ببيل نحوه . فلم يؤذن لى ، وإنما أوفد
إليه من أتباعه بأننى قد احتجزت . . . وأن هو إلا ربع ساعة ،
حتى كانت حزمة مناعى الصغيرة قد وصلت . وعهد بى إلى
السيد دى لامارتنيير - بكتابة السفارة - فقال وهو يرينى
الفرقة التى أعدت لى : « لقد شغل هذه الحجرة - فى عهد
كوث دى لوك - رجسلا مشهور كان له نفس اسمك (١) » ،
وعليك وحذك أن تملأ مركزه من جميع الاعتبارات . حتى يقال :
روسو الأول ، وروسو الثانى ! » . . . وما كان لهذا التشابه -
الذى كم أعلق عليه أهلا إذ ذاك - أن يستهوى مطالبى ، لو قدر
لى أن أطلع على المستقبل فأرى الثمن الذى كان مقدرا على أن
أدفعه من أجله يوما !

ولقد أثار قول السيد « دى لامارتنيير » فضولى ، فقرأت
بؤلغات ذلك الذى شغلنى غرفته . وإزاء المجاملة التى وجهت
الى ، واعتقادا بنى بأننى أوتيت موهبة الشعر ، ظلمت أغنية
فى مدح السيدة دى بوناك ، كمحاولة أولى ، على أن هذه النزوة
لم يطل أمدها . . . ولقد اعتدت أن انظم الشعر جزاءا - بين

(١) كان الشخص المتصور هو جان بابتيست روسو (١٦٧١ - ١٧٤١) .

وكان شاعرا غنائيا فرنسيا . . . وهناك « روسو » ثالث « هو « بيير روسو »
(١٧٢٥ - ١٧٨٥) وكان كاتب مسرحيا . وقد قيل بهذا الصدد : « ثلاثة
بؤلين يدعون باسم روسو » ذاع صيتهم من باريس الى روما : روسو
الباريسى كان عظيما ، وروسو الجنين كان حقاً ، وروسو التولوزى كان
.. هباء ! » .

وقت وآخر - فهو مران لا بأس به لتدريب المرء على الرشاقة في تكوين العبارات ، ولتحسين الأسلوب النثرى ، ولكنى لم أجد في الشعر الفرنسي قط جاذبية كافية لأن تجعلنى أفرغ له !

ورغب السيد دى لامارتير في أن يرى أسلوبى ، فأننى أن اكتب عين القصة التى رويتها للسيد السفير ، فكتبت له رسالة طويلة - سمعت أنها الآن في حوزة السيد دى مارثان ، الذى ظل زمنا طويلا ملحقا بالسفارة في عهد المركيز دى بوناك ، والذى خلف السيد دى لامارتير في عهد تولى السيد دى كورتى السفارة ! - ولقد رجوت السيد دى بالمشيرب أن يسعى للحصول لى على نسخة من هذه الرسالة . . وإذا قدر لى أن أظفر بها بوساطته ، أو بوساطة سواه ، فسوف توجد في المجموعة التى ستلحق باعترافى .

وأخذت الخبرة التى بدأت أحظى بها . تخفف من جهوح مشروعاتى الخيالية شيئا فشيئا . فلم أقتصر - مثلا - على عدم الوقوع في هوى السيدة دى بوناك فحسب ، بل إننى رأيت لتوى أننى لن أجد مجالا كبيرا للرقى في دار زوجها ، إذ كان السيد « دى لامارتير » راسخا في منصبه . وكان السيد دى ماريان متريبا ليخلفه ، مما كان لا يدع لى مجالا للأمل - مهما يكن الحظ - في أكثر من منصب مساعد السكرتير ، الذى لم يكن يستهوينى كثيرا . ومن ثم غائنى حين استشرت فيما يطلب أن أفعل أبديت رغبة شديدة في الذهاب إلى باريس . واستنساغ السيد السفير هذا الراى ، الذى بدا خليقا بأن يخلصه منى على الأقل ! . . وقال السيد دى مرغيه السكرتير

المرجع للسفارة . إن صديقه السيد جودار - وكان ضابطا سويسريا برتبة كولونيل ، في خدمة فرنسا - كان يبحث عن شخص يمهّد إليه برعاية ابن أخيه ، الذى التحق بالخدمة وهو بعد صغير السن . ومن ثم فقد رأى أننى خليق بأن أروق له . وبناء على هذه الفكرة ، التى قبلت في تسرع ، تقرر سفرى . . فطار قلبى فرحا ، إذ رأيت أمامى رحلة تنتهى بى إلى باريس! . . ومتحونى بعض خطابات للتوصية - ومائة فرنك للاتفاق على الرحلة ، نصحبها نصاب طيبة . . ثم رحلت !

وقضيت في هذه الرحلة خمسة عشر يوما ، أعدها بين الأيام السعيدة في حياتى . وكنت شابا ، وموفر الصحة ، وكان معى مال كاف ، وآمال وافرة ، وقد انطلقت في الرحلة على قدس . وكنت أسافر وحيدا ، وقد يعجب المرء - إن لم يكن قد ألم بطباعى - إذ يرانى اعتبر ذلك ميزة ، فقد كانت تصوراتى الفاعمة تؤنسنى ، ولم يكن بوسع الواقع أن يهضم عن أروع من هذه القصص التى كان يوحى الى بها خيالى المتلجج . . وهكذا كنت إذا عرض على امرؤ مجلسا في عربة ، أو اقتراب منى شخص في الطريق ، أعبس خشية أن يهدم الصرح الذى كنت أبنيه في خيالى أثناء سبرى ! . . على أن أفكارى كانت في هذه المرة « عسكرية » صرعة ، فقد كنت موشكا أن أكون مرافقا لرجل عسكرى ، وأن أصبح عسكريا أنا الآخر ، إذ كانت التدابير قد اتخذت لكى التحق بالمدرسة العسكرية . ورحت أمثل نفسى في زى ضابط ، وقد حملت ريشة بيضاء بدبعية ، فأنعم قلبى بهذه الفكرة الرفيعة . . ولدت لى معنى . . غيمات باهية

عن هندسة التحصينات ، فقد كان خالي مهندسا ، ومن ثم فقد اعتبرت نفسي - بطريقة ما - عسكريا بالفطرة! .. وكان قصر نظري عقبة ، ولكنها عقبة لم تزعجني ، فقد عولت على أن أعوض هذا العيب بالجهد والشجاعة . وكنت قد قرأت أن الماريشال (شومبيرج) كان قصير النظر ، فلماذا لا يكون الماريشال روسو على شاكلته ! .. وهكذا رحت أتدأ على حرارة هذه الأوهام حتى أنني لم أعد أرى سوى فرق بين الجند ، ومتاريس . وسلال الطوابي (١) ، والمدفعية ، وشخصي وسط النار والدخان ، أصدر الأوامر في هدوء . وأنا أمسك بمنظار الميدان في يدي ! .. ومع ذلك ، فأنني عندما كنت أجتاز المناطق الريفية الجميلة ، كنت أرى الأدغال والجداول ، فيجعلني هذا المنظر الفتان أتفقد حسرة ، وأشعر في غمرة ابتهاجي بالجد أن قلبي لم يخلق لمثل هذا الضجيج ، وسرعان ما كنت أتمثل نفسي وسط خرابي الحبيبة - دون أن أدري كيف انتقلت إليها - نابذا إلى الأبد أعمال مارس (٢) !

كم كذبت مشارف باريس الشكرة التي كانت لدى عنها ! .. كانت المناظر التي رأيتهما تزين ظاهرها مدينة (تورين) ، وجمال طرقاتها ، ومتناسق صفوف بيوتها ، قد جعلتني أطعم في سؤي

(١) أداة استوائية الشكل ، مفتوحة الطرفين ، كانت تملأ نارا ويستخدم

بها في بناء الحصون ، في ذلك العهد .

(٢) إله الحرب .

من ذلك كله في باريس ، فكنت أتمثلها مدينة لها من الجمال بقدر ما لها من الاتساع ، وقد أوتيت أبهى حسن .. لا يرى المرء فيها سوى شوارع رائعة ، وقصور من مرمر وذهب ! .. فلما دخلتها عن طريق ضاحية (سان مارسو) ، لم أرى سوى شوارع صغيرة قذرة قبيحة ، وبيوت بشعة سوداء . وجو من الدنس والفقر ، ومتسولين ، وحوزيين . وتجار للثياب القديمة ، ومتنادين يعلنون عن العلاج بالركة وعن القبعات القديمة ! .. كل هذا صدمني منذ البداية ، إلى درجة أن كل العنيلة الحقيقية التي رأيتهما في باريس - بعد ذلك - لم تقو على أن تقضى على هذا الأثر الأول ، ومن ثم ظلت أكن دائما نفورا خفيا من الإقامة في هذه العاصمة ! .. واستطيع أن أقول إن المدة التي عشتها فيها - بعد ذلك - لم تشغل باكملها إلا في السعي وراء موارد تمكنني من العيش بعيدا عنها !

هكذا تكون ثمار الخيال البالغ النشاط ، الذي يتمادى إلى ما وراء مبالغات البشر ، والذي يطعم دائما في أن يرى أكثر مما يقال له ! .. فكم امتدحت لي باريس ، حتى أنني صورتها لنفسي على غرار بابل القديمة ، التي كان من المحتفل - لو قدر لي أن أزورها - أن أجد فيها الكثير الذي لا يتفق مع الصورة التي أكون قد رسمتها لها في خيالي ! .. ولقد حدث لي الشيء نفسه عندما زرت دار « الأوبرا » ، التي سارعت إلى مشاهدتها في اليوم الذي أعقب وصولي .. ثم وقع لي الشيء ذاته - فيما بعد - عندما زرت (فرساي) ، ثم حين شهدت البحر للمرة الأولى . وسوف يظل الأمر ذاته مرادفاً كلما رأيت

ولقد حالت مدام دي مرفيه نفسها بيني وبين قبول هذه المقترحات، إذ استنكرتها .. وكذلك أبدى ابنها عين الشعور. ودار البحث عن عمل أخسر لي ، فلم يسفر عن شيء . وبدأت في تلك الأثناء أحس بحاجة ماسة إلى المال ، فما كانت الفرصات المانة التي أنفقت منها على رحلتي لفكيني فترة أطول . على أنني - لحسن الحظ - تلقيت من لدن السيد المستر منحة صغيرة أخرى . كانت عظيمة النفع لي . واعتقد أنه ما كان ليتخلى عنى لو أنني كنت قد أوتيت مزيدا من الصبر . ولكن التقاعس . والانظرار ، والاسترحام أهو مستحيلة بالنسبة لي .. فانهضت عن هذه الأسرة ولم أعد أتردد عليها !

ولم أكن قد نسيت « ماما » المسكينة ، ولكن كيف كان لي أن أعر عليها ؟ أين كان لي أن أبحث عنها ؟ .. وكانت « مدام دي مرفيه » - التي عرفت قصتي - قد ساعدتني في هذا البحث فترة طويلة ، دون جدوى .. وأخيرا ، علمت أن « مدام دي ماران » قد غادرت باريس منذ شهرين ، ولكن أحدا لم يدر هل ذهبت إلى (سافوي) أم إلى (تورين) ، بل أن بعض الناس قالوا إنها عادت إلى سويسرا . وما كنت بحاجة إلى أن أضيع وقتا في عقد العزم على الإنطلاق في أثرها ، وأنا واثق من أن البحث عنها - أيا كان مكانها - سيكون في الأقاليم أيسر من كل ماقدور لي أن أقوم به في باريس !

وقبل أن أرحل ، مارست براعتي الشعرية الجديدة في رسالة إلى الكولونيل جودار ، نلت منه فيها بأقصى ما استطعت ! ولقد عرضت هذا الهديان على مدام دي « مرفيه » ، فبدلا

من أن تلومنى - كما كان يتبغى أن تفعل - ضحكت كثيرا من سخرياتي ، وكذلك فعل ابنها الذي لم يكن يحب السيد جودار ، على ما أعقد - وخليق بي أن أعترف بأنه لم يكن أهلا للحب - وهكذا الفيتنى مبالا إلى إرسال القصيدة إليه ، بعد أن وجدت تشجيعا على ذلك ، فحزمت الصفحات ، وكتبت عليها عنوانه . وإذ لم يكن في باريس خدمة داخلية للبريد - يومئذ - فقد وضعت الخطاب في جيبى ، وأرسلته من (أوكسير) عندما بررت بها . وما زلت أضحك أحيانا عندما أفكر في الإيماعات التي لا بد أن يكون الكولونيل قد أبداها وهو يقرأ هذه القصيدة التي وصفته أدق وصف ، والتي بدأت هكذا :

« أغلقت أيها الكهل الآثم ، أن نزوة حمقاء

نوحى الى بالثوق إلى ثوبية ابن أخيك ؟ » !

ولقد كانت هذه القصيدة الصغيرة ركيكة في الواقع ، بيد أنها لم تكن تنفكر إلى الطلادة ، كما كانت ثم عن استعداد طيب لفرن « الهجاء » .. على أنها كانت الهجو الوحيد الذي أنساب من قلبي ، فإن قلبي لم يحو من الخبث ما يمكنني من استقلال موهبة كهذه ، وإن كنت أرى أن المرء يستطيع أن يحكم - من بعض المجادلات القلمية التي اكتبها من وقت إلى آخر ، دفاعا عن نفسى - أنني لو كنت قد أوتيت روح الصراع ، لعز على من يهاجوننى أن يضحكوا عقب الفزأل !

إن أكثر ما أسف عليه من تفصيلات حياتي التي قدر لي أن تضيع من ذاكرتى ، هو أنني لم أكتب يوميات عن أم غري .

فما قدر لي قط أن أكون أكثر تفكيراً ، وأكثر استمراء لوجودي وحياتي ، وأكثر قرباً من حقيقتي - إذا جاز لي أن أقول هذا - مما كنت في تلك الرحلات التي كنت أقوم بها سراً على قدمي . نفى المشي شيء ينعش نشاطي ويسمو بالتفكير . وأنا لا أكاد أفكر عندما أكون سالكنا ، لا بد لجسمي من أن يكون في حركة حتى يتحرك عقلي . إن رؤية الريف ، وتتابع المسائل الممتعة ، والخلاء ، والشجيرة المتفتحة والصحة الطيبة اللذين اكتسبتهما بالمشي ، والحياة الحرة في الفنادق الريفية .. وغياب كل ما يجعلني أحس بانني عائلة على غيري ، وكل ما يفكرني بمركرى ، وكل ما يفكرني بحالي .. كل هذا يطلق روحي من عقالي . ويمنحني جراحة بالغة في التفكير ، ويلقي بي - كما ينبغي أن يقال - في بحار الكائنات الشاسعة لكي أجمعهم وأفرزها وانسحقها كما يحلو لي . دون ما حرج أو خوف ! .. كنت أتصرف في الطبيعة بأسرها ، وكأنني المسيطر عليها .. فكان قلبي في تنقله من شيء إلى شيء يتحد مع تلك الأسباب التي تروق له ويميزها عن سواها ، ويحيط نفسه به برؤى فائقة ، وينتشئ بأحاسيس غنية . وإذا كنت - في سبيل تسجيل هذه الأحاسيس وإثباتها - استعذب وصفها في نفسي ، فأية خطوط قوية ، وأية ألوان مبهجة ، وأية تعبيرات متألقة أضفيها عليها ! .. وقد يقال إن هذه كلها قد وجدت في مؤلفاتي وإن كانت قد كتبت في سني أفولتي .. آه ! ليت أحداً قد رأى ما كتبت في صدر شبابي ، وما ألفت في رحلاتي . وما أنشأت من أفكار لم أكتبها إطلاقاً ! .. وقد تقولون : لماذا لم تكتبها ؟ .. وأجيب أنا : ولماذا أكتبها ! .. لماذا أحرم نفسي

السحر الواقعي للذة ، لكي أقول للغير إنني استمتعت بهذه اللذة ؟ .. وقيم يعني القراء ، والجمهور ، والأرض بأسرها ، ما دمت أخلق في السماء ؟ .. ثم ، أفتراثني كنت أحمل - في رحلاتي - ورقاً وأقلاماً ؟ .. لو أنني كنت قد فكرت في كل هذا ، لما واثني شيء مما كان جديراً بالتسجيل .. أنني لم أكن أتنبأ بموعد الأفكار ، وإنما كانت تواترني عندما تشاء هي ، وليس حين أشاء أنا ! .. وكانت تمتنع عن موافاتي ، أو تأتي زرافات فتطفئ على بقوتها وعددها . وما كانت عشرة مجلدات في اليوم بكافية لتدوينها ! فمن أين لي الوقت الذي أكتبها فيه ؟ .. كنت إذا بلغت بلداً ، لا أفكر إلا في غداء شهى . وإذا بارحت بلداً ، لا أفكر إلا في سير سريع ، فقد كنت أحس بأن ثمة نعيماً جديداً على الأبواب ، فلا أفكر إلا في السعي إليه !

وما شعرت بكل هذا يوماً قدر ما شعرت به في رحلة العودة ، التي أتحدث عنها . نفى طريقي إلى باريس ، كانت خواطري محدودة بما كنت ذاهباً لعمله هناك ، إذ كنت قد انصرفت إلى الحياة العملية التي ظفنت أنها كانت تنبسط أمامي ، والتي كنت خليقاً بأن أخوضها بكثير من الفخر . ولكن هذه الحياة كانت غير تلك التي دعاني قلبي إليها ، وقد آذت مخلوقات الواقع كائنات الخيال .. كان الكولونيل جودار وابن أخيه لا يتسقان مع بطل مثلي . أما الآن ، فقد تخلصت من هذه العقبات : بفضل السماء ، وأصبح في مقدوري أن أغوص وفق هواي في عالم الأوهام ، إذ لم يبق أمامي سوى هذا العالم ! .. ولقد همت فيه تماماً ، حتى أنفدت ذات هوى عدة مرات

فعلا ، ولكنى كنت خليقا بأن اغتم لو أننى سلكت طريقا أكثر
اتجاها إلى مقصدي . ذلك لأننى توهمت أنى لن أبحث أن أجد
نفسى على الأرض من جديد ، لدى ومسولى إلى اليوم .
فوددت ألا أبلغها أبدا !

وفى يوم من الأيام ، انخرعت عن طريقى عمدا . لأننى
عن كتب مكانا تراهى لى جديرا بالإعجاب . وبلغ من ابتياجى
به أنى أكثر من الدوران حوله . حتى ضللت تماما فى النهاية !
.. وبعد عدة ساعات من السير على غير هدى ، وقد أنهكتنى
التعب وبرح الجوع والعطش ، دخلت لدى فلاح لم تكن
داره جبيلة المظهر ، ولكنها كانت الوحيدة التى رايتها نيمما
حولى . وكنت أخال أن الأمر كما فى جنب أو فى سويسرا
عموما ، حيث يخف جميع السكان الميسورى الحال إلى إظهار
كرمهم . وسألت هذا الفلاح أن يمنحنى ما اتسأله غداء ،
عارضاً عليه أن أرفع الثمن . فقدم لى لبنا خثرا وقطعة من
خبز الشعير الخشن ، قائلا إن ذلك كان كل ما لديه . فشربت
اللبن جذلا ، وأكلت الخبز ، بقشه و « رفته » ! بيد أن هذا
لم يكن قوتا كافيا لرد النشاط إلى رجل أنهكه التعب ..
وأدرك الفلاح - الذى تفرس فى عن كتب - صدق قسيتى ، بما
تجلى له من شهيتى ، فصارحنى بعد ذلك فورا بأنه استطاع
أن يبين أننى كنت شابا طيبا وأميناً (١) ، وأقننى لم آت كى

(١) من الجلى أن ملامحى - فى ذلك العهد - لم تكن قد تسببت معه
اللامح التى رسمت فى صورى بعد ذلك ..



وفى يوم من الأيام ، انخرعت عن طريقى عمدا ، لأننى لم أكن مكانا
تراهى لى جديرا بالإعجاب .

ابتز منه مالا .. ثم فتح باب مخزن صغير - بأفسرب من المطبخ - وهبط منه ، وعاد بعد دقيقة برغيف مديح من خبز التمع المحمص - وقطعة شمعية من لحم الخنزير . وان توخى التقدير فى حجمها ، وزجاجة نبيذ أنعش مرأعا غوادى أكثر من كل ما عداها ! .. وأضاف إلى ذلك قطعة سميكة من المعج ، لمحضيت بفساء لم يحط بمثلها قط عابر سبيل ! .. وعندما حان وقت الدفع ، عاود الرجل قلقة وخوفه . غلب أن يأخذ شيئا من نقودى ، ورفضها فى اقتزاع لم يأتى . والطريف فى الأمر أننى لم استطيع أن اتصور ما كان يفيقه . وأخيرا ، أطلق هذه الكلمات الرهيبة وهو يرتجف : « محصلو العوائد » و « جردان القيو » (١) ! .. وفهمنى أنه كان يخشى نبيذه بسبب العوائد . وكان يخفى خبره بسبب الحرام (العشور) ، وأنه يندو رجلا ضائعا لو ارتاب هؤلاء فى أنه لم يكن يتصور جوها ! .. ولقد ترك كل ما قاله الرجل عن هذا الموضوع - الذى لم تكن لدى أنه فكرة عنه - أثرا لن يمحى . كان بمثابة « بذرة » الكراهية التى لا تخبو ، والتى راحت تذكو فى قلبى - منذ ذلك الحين - ضد المظالم التى كانت تحيق بالشعب القسسى ، وضد الطفافة . كان هذا الرجل لا يجرؤ . ورغم يسر حاله - على أن يأكل الخبز الذى كسبه بعرق جبينه ، ولم يكن يهلك أن يتفادى خرابه إلا بأن يبدى نفس الشقاء الذى كان يسبطر على من حوله ! .. وغادرت داره وأنا موزع

(١) « جردان القيو » لقب كان يطلق ق ذلك العهد على مشغولى الحكومة الذين يتفقدون موارد المرء ويتفقدون ما ينبغي عليه أن يدفع من مكوس وضرائب.

بين السخط والغائر ، أرى لحظ تلك البلدان الجميلة التى لم تسبخ الطبيعة هباتها عليها إلا لتجعلها مريسة لحصلى الضرائب المتوحشين !

هذه هى الذكرى الواضحة الوحيدة التى ثبتت لى من كل ما حدث خلال تلك الرحلة . ولست أذكر إلى حوارها سوى اننى حين اقتربت من « ليون » ، شعرت بميل إلى أن أطيل طريقى كى أسمى إلى مشاهدة ضفاف (اللينيون) ، فقد كان بين القصص التى تراءى مع أبى ، قصة لم أنسها ، بل كثيرا ما عادت إلى ذاكرتى . . تلك هى « استويه » (١) ! .. فسالت عن الطريق إلى (غوريز) . وبينما كنت أجتاذب أطراف الحديث مع صاحبة أحد الفنادق ، علمت أن تلك المنطقة كانت ذات موارد طيبة للعمال ، وأن فيها كثيرا من المساكين « وأن القوم يجيدون صناعة الحديد . فعدا هذا القول من جموح خيالى فى الحال . إذ أدركت أن من غير الملائم أن أسمى للبحث عن أمثال « ديانا » و « سيلفاندر » (٢) بين قوم من الحدادين ! .. ولا بد أن المرأة الطيبة - التى شجعتنى على هذا النحو - خللتنى صانع أقفال مرتزق !

ولم يكن ذهائلى إلى « ليون » دون ما غرض على الإطلاق ، فما أن وصلت إليها حتى سعت إلى جهة (شامبوت) لزيارة الأنسة « دى شاتليه » ، صديقة مدام « دى فاران » التى

(١) قصة من غرام الرعاة للرواى

(٢) مشاكين من الآلهة يرد ذكرهما فى

كانت قد أعطتني رسالة لها عندما ذهبت مع السيد « لوميتز » . ومن ثم فقد كان ثمة تعارف بيننا . واتسدتني الأنسة «دى شاتيليه» بأن صديقتها «مدام دي غاران» كانت قد برزت - فعلا - بليون ، ولكنها تجهل ما إذا كانت قد واصلت رحلتها حتى «بييمونت» . بل أنها عند رجليها لم تكن مستقرة الرأي على ما إذا كانت ستعرج على «سافوا» أم لا واتسادت الأنسة أنها على استعداد لأن تكتب في طلب الأنباء . إذا شئت . وإن خير ما ينبغي أن أفعله هو أن أنتظر في «ليون» وقبّلت الاقتراح ، ولكنني لم أجري على أن أقول للأنسة دى شاتيليه إنني كنت ملهوا على الجواب المرتقب ، وإن كبسي الصغير الناضب لم يكن يتبع لي الانتظار طويلا ! ولم يكن ما صدني عن المصارحة أنها أصابت استقبالي ، غيى - على التقيض - قد أبدت لي كثيرا من الجاهلات . وعاملتني في مساواة جردتني من الجراء على أن أخفي عنها حالي . وإن أهبط من مكانة الزميل المقبول ، إلى مكانة المستجدي التعس !

ومع أنني ألزم تسلسل الحوادث التي أوردتها في هذا الكتاب ، فأنني أعود بالذاكرة إلى رحلة أخرى إلى «ليون» أقمت بها في عين تلك الفترة ، وإن لم يكن بوسعي أن أحدد زمانها بالضبط ، وقد وجدت نفسي خلالها في ضائقة شديدة . وثمة حادث صغير - من العسير أن أرويهِ - لا يتبع لي قط أن أنساها ! فقد كنت ذات مساء أجلس في «بيلكور» ، بعد عشاء جد خفيف ، أفكر في وسيلة أنقزع بها نفسي من ضيقى . وإذا برجل له مطير أولئك المشتغلين بالحريز ، الذين يدعون في «ليون» باسم «القماشين» .

ووجه إلى الخطاب - غرذدت عليه . ولم نكد نسترسل في الحديث نحو ربع ساعة ، حتى عرض على - بنفس اليهود الذى كان يلأزمه ، ويدون أى تمرير في ليجته - أن نلبو معا في الريف . وانظرت أن يبين نوع اللهو . ولكنه شرع - دون أن ينبس بكلمة أخرى - يصور لي مثلا لهذا اللهو (١) وكنا متلاصقين تقريبا ، ولم تشتد ظلمة الليل بعد بدرجة تحول دون رؤية العمل الذى تبنا له . ولم يكن له مطمع في شخصي ، فما من شيء ثم - على الأقل - عن هذا القصد . كما أن المكان لم يكن ملائما لذلك . . . فهو لم يكن ينبغي - كما قال لي - سوى أن يلبو ، والهو لنا الآخر ، كل منا على حدة . وقد بدا له هذا أمرا بسيما ، حتى أنه لم يخطر ببالي أنني قد لا أنظر إلى الأمر نظرتي ! ولقد جزعت لهذه القصة ، حتى أنني نبضت مسرعا - دون أن أرد عليه - وهربت بأقصى ما استعفتني ساقاي . وأنا أتوهم أن ذلك الشقى كان في أئري ! وكنت من الاضطراب بحيث أنني بدلا من أن أقصد إلى ماوئى عن طريق «سان دومينيك» ، انطلقت أعدو بجوار أرصفة الميناء ، فلم ألق حتى كنت قد عبرت الجسر الخشبي . وأنا أرثف وكأني عائد لقوى بعد ارتكاب جريمة ! ولقد كنت غريسة لتلك الرذيلة من قبل . ولكن هذا الحادث أبرأني منها زمنا طويلا !

وقد صادقت - في أثناء الرحلة الثانية - مفارقة من نفس النوع تقريبا ، ولكنها عرضتني لخطر عظيم . وإليك قصتها :

كنت قد أحسست بأن مواردى أوشكت أن تنضب . فآخذت أقصد في اتفاق المبلغ الضئيل المتبقى ، بحيث أصبحت لا أتناول وجباتى في الفندق إلا لما . . ثم لم أعد أتناول منها شيئا عندك على الإطلاق ، إذ كان يوسى أن أحظى في الحانة . فذهب أو ستة « سو » . بشعب يفوق ما كنت أحظى به في الفندق . ستة وعشرين وإذا لم أعد أتناول طعامى في الفندق لم أدر كيف كان لى أن أظل أبيت هناك . إذ أتى خجلت من أن أثقل حجرة دون أن أتبع لصاحب الفندق مجالا كافيا للربح . وكان الفصل بديع الجو . لكن الحر اشتد في إحدى الأمسيات ، ففكرت أن أقضى الليل في الميدان العام . وما أن استلقيت على مقعد عريض هناك ، حتى مر راجب : فرائى نائما على هذا النحو ، وإذا ذلك اقترب فسألنى عما إذا لم يكن لى ماوى . وأفضيت إليه بحالى ، فبدأ عليه التآثر ، وجلس إلى جوارى ، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث ، وكان حديثه مقاسيا ، إذ كان كل ما قاله يوحى إلى بخير فكرة عن الناس . ولما رآنى أئسست إليه ، قال لى إنه لم يكن يملك مسكنا خفيا واسعا ، بل كان مسكنه يتألف من حجرة واحدة ، ولكنه ما كان يتينا ليدعنى أنام في الميدان العام . ولما كان الوقت متأخرا ، ولا سبيل إلى البحث عن ماوى لى ، فقد عرض على نصف سريرى في تلك الليلة . وقبلت العرض ، وقد خالجتى الأمل في أن أكون تسد عثرت على صديق قد يستطيع أن يكون ذا نفع لى . وذهبنا إلى مسكنه ، فأنشعل ضوءا تراعت حجرتى لى على هديه مناسبة ، برغم صغرها . وأخذ مضيقى بكرمتى في أدب جم ، ثم أخرج من

وعاء زجاجى بعض الكريز الذى كان منقوعا في التبنذ فأكال كل منا اثنين ، ثم أوفنا إلى السرير .

وكانت لهذا الرجل نفس ميول صاحبى اليهودى الذى كان في دار الضيافة بالدير (١) ، ولكنه لم يبدها بمثل وحشية ذلك ، إنما لأنه أدرك أن يوسى أن أصل بصونى إلى الأسماك ، فخشى أن يضطررنى إلى الدفاع عن نفسى وإنما لأنه كان في الواقع ضعيف الثبوت من خطئه ، فلم يجزئ على أن يشترح بصراحة بتحقيقها . وإنما حاول استئثاره انفعالاتى دون أن يستمر شكوكى ! ولما كنت قد تعلمت من التجربة الأولى ، فأننى أدركت سراعا مقصده ، فارتجفت ولم أكن أعرف في أى منزل ولا بين أى يدين كنت ، فخشيت أن أدفع حياتى ثمنا لأية ضجة أحدثها فتنظّهرت بتجاهل ما كان ينبغي منى ، ولكنى أبدت استياء شديدا من ملاطفاته ، وإذا عقدت العزم على ألا أقبل أى تساد منه ، فقد تصرفت بحيث اضططرته إلى أن يكبح نفسه . ثم تحدثت إليه بكل ما أوتيت من لطف وحزم وبدون إبداء أى ارتياب في شيء ، اعتذرت له بتجربتى السابقة عن القلق الذى أبدته نحوه ، ورحلت أباغ في رواية تلك التجربة بمعارات مفعمة بالاستبشاع والاشمئزاز ، بحيث أثرت اشمئزاه على ما اعتقد ومن ثم عدل عن شائته القذرة تماما فمضينا ما تبقى من الليل في هدوء . بل أنه ذكر لى كثيرا من الأمور الطيبة الرقيقة ، فما كان بالتاكيد من الميزات ، برغم أنه كان وغدا كبيرا !

وفى الصباح، لم يشأ السيد الراهب أن يبدو مستاءة فتحدث من تناول الإفطار - وسأل إحدى ابنتى صاحبة الدار - وكانت جميلة - أن تحضر لنا فطورا ، فقالت له أن لا وقت لديها لذلك . ووجه الرجاء إلى أختها ، فلم تنفضل عليه برد ! ... وظلنا ننتظر ، ولا أثر لفطور ! .. وأخيرا انتقلنا إلى حجرة الأبنسين ، فإذا بهما يستقبلان الراهب بنذر خضيل من التطف . ولم يكن لى أن أطعم فى استقبال أفضل : فإن كبرى الفثنائين دأست - وهى تستدير - طرف قدمي بكعب حذاءها المديب . وكانت فى قدمي بقرة (كاللو) شديدة الأيلام - اضطررتنى من قبل إلى أن أقطع طرف حذائى - أما الفتاة الأخرى عقد جذبت من خلفي فجأة مقعدا كنت أحم بالجلوس عليه . - بينما كانت أميها تلقى من النافذة بعض الماء الذى أغرق وجبى ! .. وعلاوة على ذلك كن، أينما جلست ، يقيصننى للبحث شيء ما ! .. أبدا لم ألق فى حياتي مثل هذه « الحفاوة » .. وكنت أرى فى نظراتها المهينة الساخرة سخفا مكتوما ، كنت من الفباء بحيث لم أفتقه . وفى ذهولى ودهشتي ، وأشكت أن أخال أن الشيطان قد استولى عليهن جميعا . فبدأت أشعر بجزع شديد . وفى تلك الأثناء ، أدرك الراهب - الذى كان يظلم بانه لم يكن يرى أو يسمع - أن لا أمل فى فطور ، فقرر مياحة الدار . وأسرع خلفه وأنا مقتبض بالافلات من الشيطانات الثلاث ! وفى أثناء سيرنا ، عرض على أن نذهب فننظر فى مقهى . وعلى الرغم من أننى كنت شديد الجوع ، إلا أننى لم أقبل هذه الدعوة التى لم يصر عليها بعد ذلك ، ومن ثم افترقنا بعد أن

اجتزنا ثلاثة شوارع أو أربعة . أما أنا فقد كنت مبتهجا إذ غاب عني منظر كل ما كان يمت إلى تلك الدار اللينة . . وأما هو فكان مرتاحا - غيما اعتقد - إذ ابتعد بى عنها حتى لا يسأل على أن أعرفها . . وإذا لم تكن قد عرضت لى من قبل أمثال هاتين المعامرتين ، سواء فى باريس أو سواها ، فأنها لم تخلفا فى نفسى أثرا طيبا عن أهل «ليون» ، بل ظلت دائما أعتبر هذه المدينة مثالا للمدينة الأوربية التى يسودها افطع فساد !

ولا تساعد الظروف التى انحدرت إليها فى تلك المدينة . على الاحتفاظ عنها بذكريات طيبة . ولو كنت قد خلقت على غرار سوانى : لو أوتيت مثلا موهبة الاقتراض ، أو أن أكون مدينا لفندقى ، لسهل على أن أنزع نفسى من الحرج ، ولكن مقدرتى على هذا الأمر كانت تعادل تمورى منه . ولكي تتصوروا إلى أى مدى بلغ عجزى ونغورى ، يكفي أن تعرفوا أننى بعد أن قضيت حياتي كلها - تقريبا - فى الفاقة ، وكنت أوشك فى كثير من الأحيان على ألا أجد القوت ، لم ألق يوما من « أن مغالبية ينقود إلا أجبتها فى اللحظة عينها . وما عرفت الطريق إلى القروض قط ، بل كنت دائما أؤثر العناء على الدون المالية !

ولقد كان من العذاب حقا أن أهبط إلى درك قضاء الليل فى الشارع ، الأمر الذى حدث لى مرارا فى «ليون» ، فلقد آثرت أن استقل الدراهم القليلة التى بقيت لى فى دفع ثمن خبزي ، بدلا من دفع أجر مأوى . . فخذ كل واحد منكم حذره من خطر الموت جوعا ! .. والعجيب !

تلك الظروف القاسية - قلعا ولا حزيننا ! لم يكن لدى أدنى قلق
بصدد المستقبل . بل رحت أنتظر - منتظنا - الذي الذي كان
لا بد أن يتلقاه الأنسة « دى شانيليه » .. وقتت أيام في العراء .
مستلقيا على الأرض . أو على مقعد عريض . مستغرقا في
التعاس وكائن في سرير من الورود .. وانكر - بوجه خاص -
أننى انتفتحت ليلة ممطرة خارج المدينة ، على أرض طريق ممتدة إلى
جانب نهر (الرون) أو (الساؤن) - فلبت أذكر أى النهرين
كان ! - وكانت نخف بالجانب الآخر للطريق حذائق أقيمت
على ارتفاع فوق مستوى الأرض . وكان الحر قائظا في نهار
ذلك اليوم ، ولكن الليل كان يديعا . وقد روى الندى الأعشاب
الظائمة .. ولم تكن قمة ربيع . إذ كانت الليلة ساكنة . والنسيم
رقيقا ، خلوا من الرطوبة .. وقد خلقت الشمس وراءها -
بعد الغروب - أبخرة حمراء في السماء ، أحال انعكاسها الماء
إلى لون الورد .. وكانت أشجار الحدائق العالية عابرة بالليل
التي راحت تتجاوب بالشدو . وأخذت أتمشى في نشوة ، مسلها
حواسي وفؤادى لهذه المتعة الضافية ، فلم تداخلنى سوى حسرة
- تمثلت في زفرة - لأننى كنت مضطرا إلى استهزاء هذه المتعة
وحدى .. وواصلت السير إلى ساعة متأخرة من الليل ، وأنا
مستغرق في تأملاتى الناعمة ، دون أن أفطن إلى أن التعب قد
أدركنى .. ولكنى انبهرت إلى ذلك أخيرا ، فالتفت بنفسى - في
اغتياب - على قاعدة « كوة » أو باب زائف تحت في جدار سياج
الحدائق ، وقد تعالقت الأفتان مؤلفة شبه « مسقف » فوق
سريري .. كما جثم بلبل فوق رأسى مباشرة - وراح يغرد لى
.. حتى نمت .

وكان نعاسى لطيفا . كما كان استيقاظى الطف . فقد كان
الصباح رائعا . ووقعت عيناى - حين فتحتها - على الماء
والخضرة . وريف بديع ! .. ونهضت من مرقدى ، فنهطت .
وإذ شعرت بالجوع انطلقت طرويا صوب المدينة ، وقد عقدت
العزم على أن أنفق على فطوري القلمتين الأغصيتين اللتين بيننا
من نقودى ! .. وكنت مبتهجا ، حتى أننى أخذت أردد
إحدى أغاني « باتيستان » التي كنت أحفظها عن ظهر قلب .
وكان عنوانها : « حمام ثوميرى » .. ألا غلبارك السماء
« باتيستان » الطيب وأغنيته ، فقد أتاحا لى فطورا أفضل مما
كنت أنتوى ، وغداء أكثر امتاعا - وهما وجبتان لم تكونا في
الحسبان قط ! - فبينما كنت سائرا أغنى - على خير حال -
سمعت شخصا ظمى . فالتفت . وإذا بأحد « الأتولونيين » (١)
يتبعنى . وقد لاح أنه كان ينصت إلى غنائى في طرب . وبادأنى
بالحديث : فحياتى - وسألتى عما إذا كنت على المام بالموسيقى ،
فأجبت : « بعض الشيء » ، بلهجة توحى إليه بأننى كنت
أعرف الكثير .. وتابع سؤالى ، فروبت له شطرا من قصة
حياتى ، وإذا ذلك سألنى عما إذا لم يكن قد سبق لى أن نسخت
« نوتات » موسيقية ، فقلت له : « كثيرا » - وكان هذا صديقا ،
إذ كان معظم ما تعلمته من الموسيقى عن طريق النسخ - فقال :
« حسنا ! تعال معى » ففى وسعى أن أشفلك بضعة أيام ، لن

(١) « الأتولونيين » أتباع مذهب علمائى في الزهدنة . وكثيرا ما يندرجون

تحت جملة « صليبي مائلة » ، وهو وسام « ملكة فرنسا » .
في العرب .

يعموزك خلالها شيء .. على شريطة ألا تفادر الحجر قط !
.. ووافقت عن طيب خاطر ، فنبهته !

وكان هذا الانطواني يدعى السيد روليشون
الموسيقى ويحذقها ويغنى في الخفلات الصغيرة التي كان يقيمها
مع أصدقائه . ولم يكن في هذا سوى كل ما هو برى وشريف .
ولكن هوايته كانت تنحدر - كما اتضح لي - إلى تيوس كان
مضطرا إلى التسمر عليه بعض الشيء وقادني إلى حجر
صغيرة نزلت بها ، فوجدت فيها كثيرا من القطع الموسيقية التي
نقلها هو ، كما أعطاني سواها لكي أنقلها ، وكانت من بينها الأغنية
التي كنت أرددها ، والتي كان يزعم أن يغنيها بعد أيام ..
وقضيت ثلاثة أيام أو أربعة وأنا عاكف على النسخ طيلة الوقت ،
بإستثناء وقت الطعام - فما كنت في أي يوم من أيام حياتي
أكثر شغية ولا أفضل غداء مما كنت خلال تلك الأيام ! - وكان
الرجل يحمل الطعام إلى بنفسه من المطبخ ، ولا بد أن لعام
القوم كان طيبا شغيا ، إذا صح أن ما كان يقدم لي كان من
طعامهم العادي ! .. ولقد كنت طيلة عمري لا أجد في الأكل
منعة ، وجدير بي أن اعترف كذلك بأن هذه الوجبات جاءت في
الوقت المناسب تماما ، إذ أنني كنت جافا كالخشب . ورحبت
أعمل بنفس الإقبال الذي كنت أكل به ، وهو إقبال لم يكن
بالقليل ! .. على أنني ، في الواقع ، لم أكن دقيقا في عملي بقدر
ما كنت سريعا - وقد حدث بعد ذلك ببضعة أيام أن قابلني
السيد روليشون في الطريق ، غائبا بين منسوخاتي جعلت

العزف الموسيقى مستحيلا ، لأنها وجدت مليئة بالشطط
والفكرار والتحريف . ومن الواجب أن اعترف بأنني اخترت
المهنة الوحيدة التي كنت أقل الناس استعدادا لها ، لا لأن
علاماتي الموسيقية لم تكن جيدة أو لأنني لم أكن دقيقا في النقل ،
وإنما لأن الملل من عمل جد طويل . كان يشتت بالي إلى درجة
أنني كنت أقضي في الحو وقتا أطول مما كنت أقضي في الكتابة .
وإلى درجة أن منسوخاتي لم تكن صالحة للتنفيذ - بالعزف -
بما لم أجد عناية فائقة بمراجعتها .. وهكذا أسأت أنجاز عملي .
في الوقت الذي كنت أسعى فيه لأدائه على خير وجه .. وبدلا
من أن أسرع ، إذا بي أتخبط ! على أن هذا لم يمنع السيد
روليشون من أن يحسن معاملتي إلى النهاية ، ومن أن يمنحني
كذلك - عند انصرافي - ديناراً لم أكن أستحقه البتة ، وإن كان
قد أنقذني من ضائقتي .. وإن هي إلا أيام قلائل ، حتى تلقيت
نبا من " ماما " - التي كانت في (شامبيري) - مصحوباً بقود ،
كي الحق بيا . الأمر الذي أسرعت إلى تحقيقه مسرورا . ومنذ
ذلك الحين حتى اليوم . كثيرا ما أوشكت موارد المسألة على
النفاد ، ولكنها لم تذهب في نضوبها قط إلى الدرجة التي
اضطرت معها إلى الصوم . وإني لأذكر تلك الفترة من حياتي
بتعب شديد الشعور بالعناية الإلهية ، فلقد كانت تلك آخر مرة
في حياتي أشعر فيها بالنعاسة والجوع !

ولقد مكثت في (ليون) سبعة أيام أو ثمانية . في انتظار
بعض معام كانت " ماما " قد عهدت لي بالمرور بها .

وفى أثناء هذه الفترة كنت أكثر مثابرة على زيارة الأنسة من
ذى قبل ، فرحت انعم بالحديث إليها عن صديقتها - ولم أعد
منقل البالي إلا بترك الأفكار القاسية التى كانت معاودنى عن
مركزى ، وإلا بمحاولة إخفاء هذا المركز . ولم تكن الأنسة
« دى شاتيليه » بالشابة ، ولا بالجيلة ، ولكنى لم تكن تنظر
إلى الملاحه ، وكانت رقيقة الأعطاف ، ودودة . كما كان ذكائها
يضىء بهاء على هذا الود . ولقد أوتيت ذلك الشغف بالتأمل
الخلقى الذى يتوخد إلى دراسة الشخصيات ، وإليها ادين بور
حافظ أصلى دمعنى إلى هذا الاتجاه . وكانت مشغوفة بقصص
« ليساج » ، لا سيما قصة « جيل بلا » التى حدثتني عنها
وأعارتنيها ، فقرأتها فى استمتاع ، ولكنى لم أكن قد نكحت
بعد بحيث افقه هذا النوع من القراءة ، إذ كنت أنشد القصص
الحافلة بالأحاسيس الرغبة . وهكذا قضيت وقتى إلى جوار
مدفأة الأنسة « دى شاتيليه » فى استمتاع وانفصاع . ومن
الحق أن الأحاديث الطريقة ذات الطابع الفكرى - التى تصدر
عن امرأة موهوبة - أصلح لتكوين الشاب من كل ما فى الكتب
من فلسفة متحذلقه . . . ولقد تعرفت - بين المقيمين فى
(شاسوت) وأصدقائهم - إلى فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها ،
تدعى الأنسة « مير » ، لم أبلها إذ ذاك اهتماما عظيما ، ولكنى
شغلت بها حبا بعد ذلك بشأنى أو تسع سنوات . . . وكنت على
حق فى تدليهى بها ، فقد كانت فتاة ساحرة (١) .

(١) سيرد ذكرها فى القسم الخاص بسنة ١٧٤١ من التراجم السابقة .

وفى غمرة انشغالى بتوقع رؤية « ماما » الطيبة - عما
قريب - أعملت أوهامى قليلا ، إذ عوضنى الهناء الحقيقية
التي كانت فى انتظارى . عن السعى وراء الخيالات . . فبلى لم
أعثر على « ماما » مرة أخرى فحسب ، وإنما وجدت فى قربها ،
ويوساطتها ، ظرفا مواليا ، إذ أشارت فى رسالتها إلى أنها
عثرت لى على عمل كانت تأمل أن يروق لى ، كما أنه لم يكن
ليقصينى عنها . ولقد أرهقت حدسى فى التكهن بنوع ذلك العمل ،
ببذ أنه كان لابد للمرء من أن يصبح نبيا حتى يصيب الحدس . . .
وكان لدى من المال ما يكفى لأن أقوم برحلة مريضة . وقد رغبت
الأنسة « دى شاتيليه » فى أن استأجر جوادا ، ولكنى لم أكن
أملك أن أوافقها ، وكنت على حق . ولولا ذلك لفقدت متعة آخر
رحلة على الأقدام فى حياتى - فلست أستطيع أن أصف النزهات
التي كثيرا ما كنت أقوم بها فى الضواحي المجاورة أثناء إقامتى
فى (موتير) ، بأنها رحلات على الأقدام !

ومن الأمور العجيبة أن خيالى لا يخلق قط راضيا إلا عندما
تكون حالى غير مرضية ، كما أنه - من ناحية أخرى - يغفو
أقل ما يكون ابتساما عندما يبتسم كل ما حولى . . . فإن رأسى
النكد لا يستطيع أن يتكيف مع الأشياء ، فهو لا يقنع بتجميل
الأمور ، وإنما يصبو إلى الخلق والابتداع . . . كما أن الأشياء
الحقيقية لا تبدو له إلا كما هى فى الواقع ، فهو إنما يجيد تنسيق
الأشياء الخيالية فحسب . وعلى هذا القدر ، لا دار . . . أن
أكون فى الشقاء ، إذ شئت أن أم - **روح الروح** .

وصف جهال مناظر الطبيعة - وجب ان اكون داخل الجدران
.. ولقد قلت مائة مرة إنه لو كان عد قدر لى يوما أن التى فى
غياهب (الباستيل) ، لكنت قد رسمت أبدع صورة للحرية !

وعندما بارحت (ليون) ، لم تكن أرى أمامى سوى مستقبل
باسم .. ولقد كنت سعيدا ، وكان لى الحق فى ذلك . بعد ان
حرمت هذه السعادة وأنا أغادر باريس .. ومع ذلك لم أكن
أنعم خلال هذه الرحلة بتلك الخواطر البهيجة التى كانت ترافقنى
فى الرحلة الأخرى . كان قلبى جذلا . وكان هذا كان غاية
الأمر . ورحت أقترب فى اشتياق نحو تلك الصديقة الرائعة
التي كنت أسعى لرؤيتها من جديد ، واتذوق مقدما حلاوة
العيش بالقرب منها ، ولكن فى غير نشوة سكرى ، إذ كنت دوما
أتوقع ذلك ، فكانها لم يكن غيبا أنا مبتل عليه شيء جديد ! ..
ولقد خامرني القلق بصدد ما كنت مقدما على عمله ، وكأنها كان
فى ذلك ما يدعو إلى الإشفاق .. وكانت أفكارى ساكنة وأدعة
وليسيت « سماوية » ، تسلب الروح والعقل . رجعت إلى
المادية تجتذب نظرى ، فكانت أولى مناظر الطبيعة اهتمامى ..
كنت لاحظ الأشجار والدور والجداول - وأحدث نفسى عند
ملفاتح الطرق ، فقد كنت فى خوف من أن أضل . ولكنى لم
أضل على الإطلاق .. وبإيجاز : لم أعد أطلق بين السحب .
وإنما كنت دائما حيث كنت .. فلم أبعد قط عن الواقع !

وأنا فى الحديث عن رحلاتى ، ثلما كما أنا فى أدائها ،
لا تعجل بلوغ غايتى .. وهكذا كان قلبى يخفق طربا وأنا أقترب
من « ماما » العزيزة ، ولكنى لم أغد السير إليها ، فإتنى أحب السير

كما يروق لى ، ولا أتوقف إلا حين يحلو لى .. فحياة التجوال
هى التى ثلاثمنى ، والمسر على الأقدام ، فى وقت بديع ، وفى
بلد جهيل ، دون ما تعجل ، ونحو غاية مرغوبة ، هو أكثر
أساليب العيش طرا ملائمة لتوقى ! وقبلا عدا ذلك ، فإن
ما أعنيه « بالبلد الجليل » أصبح معروفا : فما من بلاد مبسوطة
الأديم بدت لعينى جميلة ، منها يكن جمالها .. بل لابد لى من
سيول ، وصخور ، وأشجار صنوبر ، وغابات سوداء ، وجبال ،
وطرق منحدره أتسلقها أو أهبطها ، ومهاوى من حولى تثير
رغبى ! ولقد أتحت لى هذه المتعة ، واستمرأتها فى أروع
سحرها ، وأنا أقترب من (شامبيرى) .. فغير بعيد من جبل
شديد الانحدار - يسمى (با دى لاشيل) - كان ثمة نهر
يجرى تحت طريق واسعة منحوتة فى الصخر : عند البقعة
المسماة (اشاي) . وكان نهرنا قصيرا ، يتدفق جامحا عبر مهاوى
سحيقة بدا أنه حفرها خلال آلاف السنين .. وكان ثمة سياج
على حافة الطريق لثفادى النكبات ، مما مكننى من أن أطل على
الاعماق ، وأن أحظى بالدوار وفق هواى ! .. ذلك لأن من الأمور
الطريفة فى مزاجى أننى أميل إلى الأماكن السحيقة الانخفاض ،
التي يدور لها رأسى ، وأننى أحب هذا الدوار كثيرا ما دبت
مطمئنا إلى سلامتى .. ومن ثم انحنيت فى المثلثان فوق
السياج ، ومددت أنفى فى الفضاء ، وأستلهم من سويته .
أتأمل - بين وقت وآخر - الزبد الذى يعلو فى كفت

اسمع هديره وسط صراخ الغريان وصيحات الطيور الجارحة التى كانت تحلق من صخرة إلى صخرة ، ومن دغل إلى دغل ، على بعد مائة فرسخ تحتى .. وفى البقاع التى كانت الأرض تنبسط عندها فى انحدار شديد ، حيث لم تكن الأشجار من الكثافة بحيث تحول دون مروق الحصى ، رحت اجمع اكبر ما استطعت حمله من الأحجار ، ووضعتها على السباح ، ثم أخذت أطوح بها واحدة بعد أخرى ، مستمذبا رؤيتها وهى تمرق ، ثم ترتطم فتتشم إلى الف عطمة ، قبل أن تبلغ قاع الهالوية !

وإذ ازددت قريبا من (شامبيري) رايت منظرا مشابها . ولكنه من نوع مخالف : كانت الطريق تمتد عند أقدام صخرة كانت أبدع مسقط مائى شهدته فى حياتى . وكان الجبل منحدرًا إلى درجة تجعل الماء يندفع فى الفضاء ، ثم يهبط بعيدا فى قوس كبير ، بحيث يستطيع المرء أن يمر بين الماء والصخرة دون أن يبتل أحيانا ! ولكن كان من السهل أن يخدع الإنسان إذا لم يكن حذرا فى حسابه . ذلك لأن الماء — عند انحداره من هذا الارتفاع الشاهق — يتشقق ويسقط فى رشاش .. فإذا ما اقترب المرء من هذه السحابة من الرذاذ ، اخضل بالماء فى لحظة ، دون أن يفطن — فى يادى الامر — إلى أنه قد ابتل !

* * *

ووصلت أخيرا .. ورايتبا من جديد ! .. ولم تكن وحيدة ، فقد كان المدير العام للأقليم لديها فى اللحظة التى دخلت فيها عليها . وبدون أن اتكلم ، تناولت يدى وقدمتنى إليه بذلك اللطف الذى كان يفتح لها كل القلوب : « ها هو يا سيدى هذا الشاب المسكين ، ففكرم برعايته طالما أستحق الرعاية ، ولن اشعر بعد ذلك بقلق من أجله ، بقية حياته ! » .. ثم وجهت إلى الخطاب قائلة : « أنك الآن يا بنى فى خدمة الملك .. اشكر السيد المدير ، إذ هيا لك أسيايب العيش ! » .. وفتحت عني الواسعتين دون أن أقول شيئا ، ودون أن أدري قيم يتبني أن أفكر ، إذ أن طموحي المظرد للنمو أدار راسى ، فتصورت نفسى للتو مديرا صفرا ! .. ومن المؤكد أن حظى لم يرق إلى الذلق الذى أوحى به إلى خيالى هذه البداية ، ببسده كنان بكفيتى إذ ذاك أن أمعيش محسب ، وقد كان ما دبر لى أكثر مما رجوت .. وهاكم جليلة الامر :

خطر للهلك « فيكتور اماديه » — على ضوء الصروب السابقة ، وحالة الميراث الذى آل إليه عن آباءه — أن هذا الميراث لن يلبث أن يقلت منه يوما ، ومن ثم فقد سعى إلى استنزاف موارده . ولما كان قد قرر — قبل ذلك بسنوات قلائل — أن يخضع الأشراف لضريبة العشور ، فإنه أمر بإجراء تقدير عام لجميع الأراضى ، لتعيين مساحتها ونقيتها . فبقيت تلك غرض الضريبة العقارية، وإعادة تنظيمها بزيادة من ...

وكان هذا العمل قد بدأ في عيد الأب، واستؤنف في عيد الابن.. .
 واستخدم لهذه المهمة مائتان أو ثلاثمائة شخص من يتولون
 مسح الأرض - وكانوا يدعون مهندسين - ومن الكتاب الذين
 أطلق عليهم لقب السكرتيرين . وقد حصلت لى « ماما » على
 منصب بين هؤلاء الآخرين . ومع أن المنصب لم يكن عظيم
 المورد ، إلا أنه كان يدر ما يكفى للمعيشة عن سعة في تلك المنطقة.
 وكان السبب في الأمر أن هذا التعيين كان مؤقتا . ولكنه جعلنى
 في وضع يمكننى من البحث عن منصب أفضل وارتقاب الحصول
 عليه . وكان من بصيرة « ماما » أن تعينت الظفر لى برعاية
 خاصة من المدير ، حتى أنهكن من الانتقال إلى منصب أرسخ
 مكانة ، إذا ما حانت نهاية عملى في المنصب الأول .

ودخلت الخدمة عقب وصولى بإيام قلائد . ولم يكن في
 هذا العمل شيء من العناء . نسرعان ما خبرته . وهكذا تدر لى
 للمرة الأولى - بعد أربع أو خمس سنوات قضيتها في النجرات ،
 والطيش ، والمذابح ، منذ بارحت (جنيف) - أن أبدا في كسب
 عيشى بعمل مشرف !

ولقد تبدو هذه التفصيلات المسببة عن باكورة صباى .
 أمورا صيبانية .. ولكنى غير مستاء لذلك . فعلى الرغم من
 أننى ولدت رجلا - لاعتبارات معينة - إلا أننى ظلت طفلا
 لا يمد طويل ، ولا أزال كذلك لاعتبارات كثيرة أخرى .. وأنا لم

اعد بأن أقدم للرأى العام شخصية عظيمة ، وإنما وعدت بأن
 اصف تلك الشخصية التى أوتيتها . ولابد - لكى تعرفونى في
 كبرى - من أن علموا الماما كافيا بصباى ، ذلك لأن الأشياء
 المادية - بوجه عام - أقل انطبعا في نفسى من ذكرياتها ، كما
 أن جميع أفكارى تتخذ شكل صور خيالية .. في حين أن
 الأحداث الأولى التى طبعت نفسها على صفحة ذهنى ظلت
 باقية « ولم تمك الأحداث التى انطبعت بعدها سوى أن تندمج
 فيها ، بدلا من أن تطغى عليها .. » وهناك مجموعة متعاقبة من
 المواطن والراء التى تطغى على كل ما ياتى بعدها من عواطف
 وأفكار . ولابد من التعرف على الأولى لكى يتسنى الحكم على
 الأخيرة . وقد اعتدت - في جميع الأحوال - أن أعنى بالأسباب
 الأولى ، حتى يكون ترابط النتائج وتسلسلها محسوسا ..
 وإنى لأرجو أن أستطيع - إلى حد ما - أن أعرض نفسى شفافة
 أمام عيني القارئ ، ومن أجل هذا أسعى إلى أن أطلعها عليه
 تحت جميع الأضواء . وأن أعرضها من جميع الفواجر . وأن
 استيقن من أنه لن تغيب عن ملاحظته أية حركة من حركاتها ،
 حتى يكون قادرا في النهاية على أن يحكم بنفسه على المبادئ
 التى انتهجتها .

وإذا كنت القى على نفسى مسئولية النتيجة . وانفسوز
 للقارئ : « هذه هى شخصيتى » ، فقد يخيل إليه أننى إذا لم
 أكن أأخذه هو ، فإننى - على الأقل - أأخذ نفسى - أنا - منها
 أكتفى بتفصيل كل ما جرى لى ، وكما

ببالي ، وكل ما خالجتني من مشاعر ، فإني لا أستطيع أن أغر
به - بمحض رغبتي على الآخر - بل إنني لو أردت لما وجدت
الأمر سهلاً . . ومن ثم فإني أترك له عبء تجميع هذه العناصر
وتقرير نوع المخلوق الذي تولفه ، إذ يجب أن تكون النتيجة
من صنعه هو ، حتى إذا أخطأ بعد ذلك ، كان الخطأ كله من
ذنبه . علي أنه لا يكفي - من أجل هذه الغاية - أن تكون غصني
صادقة ، وإنما يجب كذلك أن تكون دقيقة . وليس لي أن أحكم
على أهمية الوقائع . وإنما يقتضيني الواجب أن أروياً جميعاً
ثم أترك له مهمة عرّضها . وهذا ما حرصت عليه - حتى
الآن - بكل ما أوتيت من شجاعة . ولن أحمّد عفه فيما يلي .
غير أن ذكريات أوسط العمر ، تكون دائماً أقل تالفاً من ذكريات
باكورة الصبا . ولقد بدأت بأن اقتنست عن هذه أفضل قسط
استطعت اقتباسه . فإذا وانتنت الذكريات الأخرى بنفس
الوضوح ، فإن القراء الذين ملوا الأولى ، ربما أودادوا ملاماً . .
أما أنا - بالذات - فلن أكون مستاء من عملي ، وليس لدي
ما أخشاه في هذا المشروع سوى أمر واحد : وليس هذا الأمر
هو الاسراف في القول ، أو سرد الأكاذيب ، وإنما هو ألا أقول
كل شيء ، أو أن أخفي الحقائق .

الكراسة الخامسة

(من سنة ١٧٣٢ إلى ١٧٣٦)

كان ذلك في سنة ١٧٣٢ - على ما يبدو لي - إذ وصلت
إلى شابميري ، كما ذكرت ، وبدأت عملي في مسح الأرض .
في خدمة الملك . وكنت قد تجاوزت عاشر العشرين . ودتوت
من الحادي والعشرين . وكنت - من الناحية العقلية - وافي
التكوين بالنسبة لسني ، ولكن المقدرة على الحكم على الأمور لم
تكن متوفرة لي . بل كنت في مسيس الحاجة إلى الأيدي التي
وقعت بينها ، لأتعلم كيف أقصر . ذلك لأن سنوات التجارب
القليلة لم تقو على أن تيرفني تمامها من خيالاتي الشاعرية .
وعلى الرغم من كل البأساء التي عانيتهما ، فإني لم أعرف عن
الدنيا والناس إلا القليل ، وكأني لم أضع ثمن المعرفة !

واقعت في داري ، أعني في دار « مايا » ، ولكنني لم استرد
قط الغرفة التي كانت لي في « أثيس » ، فلم تعد ثمة حديقة .
ولا جدول ، ولا مناظر . . بل كان البيت الذي شغلته ممتلئاً
كثيباً ، وكانت غرفتي أكثر غرف البيت ظلمة وكآبة : جدار
بدلاً من مناظر الطبيعة ، وحارة مسدودة بدلاً من الشارع ،
وقليل من الهواء ، ونثر من ضوء النهار ، ومساحة ضئيلة ،
وصراخ ، وفئران ، وأخشاب بالية تكتو الأرض . . كل
هذه ما كانت لتجمل من الغرفة سكناً بهيجاً ، ولكنني كنت في
دارها - دار « مايا » - وبالقرب منها . . ولما كنت ملا انقطاع
في مكتبي أو في غرفتها ، فإني لم أذهب إلى حديقة غرقتي .

إذ لم يكن لدى وقت للتفكير فيها . ولسوف يبدو عجيبا أن
تقيم « ماما » في شامبيري ، خصوصا لتسكن هذه الدار الوضيعة ،
ولكنها كانت حيلة ماهرة من جانبها . ينبغي ألا أغفل ذكرها :
فلقد واجهت فكرة الرحيل إلى (تورين) وهي كارهة ، إذ كانت
تسهر - بعد الثورات التي كانت حديثة العهد - وبعد القتل
التي كانت لا تزال تلم بالبلاط - أن الوقت لم يكن ملائما لوجودها
هناك . في حين أن شئونها كانت تتطلب ظهورها ، إذ كانت
تخشى أن تغدو منسوبة أو ضحية للوشايات ، سيما وإنها كانت
تعلم أن الكونت « دى سان لوران » - المدير العام للمالية -
لم يكن يميل إليها . وكانت له في (شامبيري) دار عتيقة ، رديئة
البنيان ، وفي موقع بلغ من سوءه أنها كانت تظل خاوية باستمرار ،
فاستأجرها « ماما » واستقرت فيها . . . وكان هذا التصرف
أكثر ثوبتها من الرحيل إلى (تورين) ، فلم يقطع معاشها قط .
بل أصبح الكونت « دى سان لوران » - منذ ذلك الحين - من
أصدقائها !

والفيت إدارة بيتها تقرب مما كانت عليه من قبل . كما ظل
وصيها الوفي « كلود أنيه » معها دائما . . . وهو - كما أظننى
فكرت - فلاح من (مونترو) ، اعتاد في طفولته أن يجمع الأعشاب
في منطقة (جورا) لصناعة الشاي السويسري . فالحقته « ماما »
بخدمتها من أجل عقاقيرها : إذ وجدت من الأصوب والأوفر
أن يكون خادمها خيرا بالأعشاب . . . وكان مشغولا كل الشغل
بدراسة النباتات ، فحبذت هذا الميل إلى درجة أن أصبح الرجل
خبيرا نباتيا بحق . ولولا أنه مات في شبابه ، لكان من المحتمل

أن يذيع اسمه في هذا العلم . بقدر ما يستحق أن يخلد اسمه
بين الشرفاء الأمان . ولما كان جادا ، بل ووثورا ، كما أننى كنت
أصغره ، فإنه غدا منى بمثابة المربي ، مما عصمنى من كثير من
الحناقات . إذ كان ذا أثر على نفسه ، فلم أكن أجسر على أن
أنسى نفسي في حضرته ! وكان له عين الأثر على نفس سيده ،
التي عرفت حسن إدراكه . واستقامته . وولاه الذي لا يقهرزع
نحوها ، فجازته خير الجزاء . . . ولقد كان « كلود أنيه »
- بلا مرأ - رجلا نادرا . بل أنه الوحيد الذي رأيته من نوعه
على الإطلاق ! كان متدنا ، متزنا ، مفكرا ، حكيما في تصرفاته ،
مادنا في طباعه . موحنا بعيدا في أقواله . وكان في عواطفه عنف
لم يكن بدعه يظهر البتة . . . عنف كان ينهش أحشاءه ، ولكنه لم
يدفعه أبدا إلى أن يرتكب في حياته سوى حماقة واحدة ، ولكنها
كانت رهيبة . . . تلك هى أنه سم نفسه ! . . . وقد وقع هذا
الحادث المحزن عقب وصولي بقليل ، وكان خليقا بأن يظلمنى
على مدى المودة الوثيقة التي كانت بين هذا الفتى وسيده ،
إذ أننى ما كنت لأحسبها إطلاقا لو لم تنبئنى بها هى بنفسها !
. . . وبقينا أنه إذا كان الولاء ، والتحمس ، والوفاء ، جديرة
جزءا من نوع تلك المودة ، فقد كان « أنيه » أملا لذلك ، والذي
بثبت أنه كان خليقا به ، أنه لم يسئ استغلال ثقة سيده
أبدا ! . . . وكان نادرا ما يتشادان ، ودائما تنتهى شاداتها على
خير . على أنه قدر لإحدهما أن تنتهى بسوء « فغدت قالت
السيدة لأنيه - في غضبها - كلمة : « لا بد من أن يذهب
في نثره وأساء ، وقعت بذه على زوجها بلسان لالة وعن

الأيون . فتجرع محتوياتها ، ثم استلقى في هدوء . علمنا بني
انه لن يستيقظ قط ! .. ولحسن الحظ أن مدام دي غاران
راحت نجوس جلال دارها - وهي تلقى - منتعلة - نعثرت
على الزجاجاة غارغة ، وحذبت الباقي ، غاسرت لنجسته .
وهي تطلق صرخات اجتذبتني إليها . فاعترفت لي بكل شيء ،
وناشدتني المعونة ، ونجحتنا بعد كثير من العناء في حمله على
نقيف الأيون . وإذا شددت هذا المنظر ، عجبت لتعسائي إذ لم
يساورني قط أفنه ريب في الصلات التي اثباتتني هي بها ! ..
بيد أن « كلود آنيه » كان من العتكم بحيث أن من يفوقني في جلاء
البصرة كانوا خليقين بأن يغفروا بمظهره . وكان السطح بنهيه
بعد ذلك من نوع جعلني أنكر - أنا نفسي - أشد الذنر . ومنذ
ذلك الحين أضفت إلى التقدير احتراما فحوه . وأصبحت
تلميذا له ، إلى حد ما . . الأمر الذي لم أجد فيه عيبا !

على أنني لم أنج من الألم ، إذ أدركت أن ثمة من اسقطاع
إن يعيش مع « ماما » في مودة تفوق مودتي كثيرا . بل إنني
ما فكرت يوما في أن أشتري لنفسي مثل هذه المكائنة ، غير أنه
كان من الشاق على نفسي أن أراها تهتلي بشخص آخر ! ..
وكان هذا أمرا طبيعيا ، ومع ذلك فإني بدلا من أن أشعر بنور
من ذلك الذي سلبني إياها ، وجدت أن وفائي للسيدة قد امتد
- في الواقع - إليه هو الآخر ! فقد كنت راغبا - قبل كل
شيء - في سعادتها ، وما دام هو ضروريا لهذه السعادة ، فقد
ارتضيت أن يكون هو الآخر سعيدا . أما هو ، فإنه « غاص »

تباطأ في وجبات نظر مولاته ، واستشعر صداقة صادقة نحو
الصديق الذي اصطفته . وبدون أن يفرض على السلطة التي
كان مركزه يخوله إياها ، فإنه مارس - بطريقة طبيعية - تلك
السلطة التي كان ذكاؤه الفائق يتيح له على ذكائي . بحيث لم
أجرؤ البتة على عمل ما قد يبدو استهجانا له . كما أنه لم يكن
يستهن سوى ما هو سيء . وهكذا عشنا في وحدة أسعدتنا
جميعا ، ولم يكن ليقوى على نقوضها سوى الموت ! .. ومن
أدلة روعة شخصية تلك المرأة الحبيبة ، أن كل الذين أحبوها
كانوا يتحابون فيما بينهم . فكانت الغيرة - بل والتنافس .
يخضعان للشعور المسيطر الذي كانت توحى به السيدة ، وهكذا
لم أن قط واحدا ممن كانوا يحيطون بها بضمير شر آخر ! ..
فكيف أولئك الذين يقرأون كتابي لحظة عن مطالعتهم . عند
هذا المديح . فإذا وجدوا - وهم يتأملونه - امرأة أخرى
يستطيعون أن يقولوا عنها الشيء ذاته ، فليعلقوا بها ليضربوا
الطامانية في حياتهم . . ولو كانت - فيما عدا ذلك - آخر
الغاويات !

وهنا تبدأ - منذ وصولي إلى شامبيري ، حتى رحيلي إلى
باريس في سنة ١٧٤١ - فترة مداها ثمانى أو تسع سنوات .
سأروى خلالها من الحوادث التي تستحق الرواية عددا قليلا ،
لأن حيساتي كانت جد بسيطة وبهيجة . وكانت رتابتها هذه
هي عين ما كانت تمس إليه حساجتي لكي استكمل تكوين
شخصيتي . التي حالت القلاقل المنتشرة في فرنسا
وفي هذه الفترة الغالية ، تماسك - بل وبتت -

المتابعة - فنجعلت معنى الشخص الذى لم أتك بعد ذلك عن أن أكونه فى شمار العواصف التى كانت تترىص بى . ولقد كثر هذا التطور غير محسوس ، كما كان يظن مصحوبا ببضعة أحداث جذيرة بالذكر . . بل جذيرة بالمراعاة والتنمية !

فمن بداية الأمر ، لم أشغل بشيء سوى عطلى ، إذ أن قيود المكتب لم تكن تدعنى أفكر فى شيء آخر . وكان الوقت القليل الذى أتاحه فيه ، ينقض إلى جوار «ماما» الطيبة . ولما لم تكن لدى فسحة للقراءة ، فإن شغفى بالاطلاع لم يعد يملكنى . حتى إذا أصبحت واجباتى نوعا من العادة المتواترة ، قل انشغال بالى بها ، فعاودنى التلهل والقلق . وأصبحت القراءة ضرورة - من جديد - وكأنها كان هذا الميل يحتسب كلما عز أرضاؤه ، فكان خليقا بأن يغدو ولما جنونيا - كما حدث عندي كنت فى كنف معلمى (١) - لو لم تدخل بعض نوازغ أخرى فنحول اهتمامى عنه .

ومع أن عمليانا لم تكن تتطلب تعمقا فى الحساب ، إلا أنها كانت تحتاج إلى قدر منه كان كافيا لأن بزغنى فى بعض الأحيان . ولكى أغلب على هذه العقبة . أبحث بعض كتب علم الحساب ، واستوعبتها جيدا . إذ كنت استذكرها وحدى . وقد تبين أن الحساب التطبيقى أوسع نطاقا مما يتصور المرء ، إذا ما كانت الدقة منشودة . فغنى عمليات بالغة الطول ، كنت أرى المهندسين يخطئون أحيانا فى سياقها . بيد أن التفكير المقرون بالمران يتيح سوانح جليلة : فلا يلبث المرء أن يهتدى

(١) يتصد الحفار الذى قضى فترة عنده يتعلم حرفة التنقيب على المعادن .

إلى أساليب مقتضية يثر ابتكارها اعتداده بنفسه ، كما أن دقتنا ترضى العقل . وتضفى سحرا على عمل لا ينطوى على حمد ولا عرغان . ولقد تعمقت فى هذا الباب تسبقا موثقا إلى درجة أن أية معضلة قابلة لأن نحل بالأرقام وحدها لم تكن تعيبنى ! . حتى أننى الآن ، وقد أخذ كل ما عرفته ينهى من ذاكرتى يوما بعد يوم ، أجد أن هذه المعرفة التى اكتسبتها لا تزال باقية - إلى حد ما - بعد انصرافى عنها ثلاثين عاما . . . ولقد حدث منذ أيام ، وفى خلال رحلة قمت بها إلى إداينبورغ ، أن عاونت أبناء مضيقي فى درس الحساب ، فكان سرورى يفوق التصور ، إذ حلت - دون ما خطأ - مسألة من أشد المسائل تعقدا . وكان يخيل إلى وأنا أسجل الأرقام أننى فى (شامبيرى) من جديد ، وفى أيام شبابى الهائلة . فلو قد ارتدت إلى تلك الأيام ، على بعد الشقة بينى وبينها !

كذلك ولد تلوين خرائط مهندسينا الميسل إلى الرسم فى نفسى ، فابقت بعض الألوان ، وشرعت أرسم الزهور والمنظر الطبيعية . ومما يرثى له أننى اكتشفت أنى لم أوت سوى موهبة طفيفة فى هذا الفن الذى كنت أميل إليه بكل جوارحى ! . وكنت خليقا بأن أقتضى - بين أعلامى وفرشى - أشهرها باتكلمها ، دون أن أبوح دأرى . وإذا أصبحت هذه الهواية تستأثر باهتمامى إلى درجة كبيرة ، فقد رؤى اقتزاعى من سيطرتها . وهكذا الحال دائما بالنسبة لكل الميول التى أشرع فى الانصراف إليها بكل نفسى . إذ أنها تتضاعف وتتأجل إلى شغف غرمان ما لا أعود أرى فى الدنيا سوى اللغة التى ألفت جررها

في مزاولتها . ولم تبرئني السن من هذا العيب . بل إنه لم يتضاءل مع مرور السنين ، حتى أنني لأراني - وأنا أكتب هذا الآن - كمخرف كهل يهيم بدراسة أخرى لا تنفع من ورأيا . ولا يلقه فيها شيئا ! .. دراسة يضطر أولئك الذين كرسوا لها حياتهم إيان شبابهم ، إلى التخلي عنها في مثل السن التي أريد أن أشرع في ممارستها فيها !

ولقد كانت هذه الهواية خلسة بن تبدو لي طبيعيا في ذلك الوقت (١) ، إذ كانت الفرصة سانحة ، وكان شيء ما يغريني بانتهازها . فإن الرضى الذي كنت أشهده في عيني « آتية » وهو يعود إلى الدار محملا بالنباتات الجديدة ، جعلني - مرتين أو ثلاثا - على وشك أن أنصرف إلى جمع الأعشاب معه . وأكاد أوقن بأن هذه الهواية كانت قبينة بن تستولى على ، لو أنني خرجت معه مرة « ولعلني كنت قد أصبحت اليوم خبيرا كبيرا بالنباتات ! .. فليست أعرف في الدنيا دراسة أكثر ملاءمة ليولى الطبيعية من دراسة النبات ، وما الحياة التي أعيشها في الريف منذ عشر سنوات سوى دراسة مستمرة للأعشاب ، دون ما هدف - في الواقع - ودون ما تقدم .. على أنني لم أكن في ذلك العهد على بينة بشيء من علم النبات ،

(١) شغف « روسو » - وهز يكتب هذه المراسلة بن اعترافاته - بفلاحة

البساتين .

(٢) يقصد الفترة التي عاش خلالها في « شامبيري » مع داني غاران .



فإن الرضى الذي كنت أشهده في عيني « آتية »

وهو يعود إلى الدار محملا بالنباتات الجديدة ، جعلني - مرتين

أو ثلاثا - على وشك أن أنصرف إلى جمع الأعشاب

فشعرت بنوع من الازدراء - بل ومن النفور - لهذه الدراسة، ولم أر فيها سوى ما يراه كل الجهلة من انيا حرفة الميتم بصناعة العقاقير - « مايا » ، التي كانت تحبها ، لم تكن تفيد منها إلا في هذه الصناعة ، ولم تكن تبحث إلا عن النباتات العادية ، تستغلها في عقاقيرها - وهكذا كان علم النبات والكيمياء والنشرج تختلط في ذهني تحت اسم الطب : ولم تكن تصلح إلا لاهدائي بفكاهات ساخرة طفلة يومية . واجتلب على الصفحات بين وقت وآخر !

وإلى جانب ذلك ، أخذت بل آخر مختلف عن هذا - بر على التقبض منه إلى حد كبير - ينمو في نفسي باطراد ، وسرعان ما ابتلع كل ما عداه : وأمتى بذلك الموسيقى . ولا بد أنني خلقت لهذا الفن بالتأكيد ، فقد بدأت أحبه منذ باكورة طفولتي . وهو الوحيد الذي ظلت أحبه باستمرار في جميع الأوقات . والعجيب في الأمر أن الفن الذي خلقت من أجله ، قد كبدني تعلمه - برغم ذلك - عناء كبيرا ، وكان تقدمي فيه من البطء بحيث أنني لم أجزئ قط على الفناء باعتداده . بعد كل التدريب الذي مارسته في حياتي : .. أما الذي حجب إلى هذه الدراسة - في ذلك الحين بوجه خاص - فهو أنني كنت أستطيع أن أواصلها مع « مايا » . فمع أن أدواقنا في النواحي الأخرى كانت جد مختلفة ، إلا أن الموسيقى كانت - بالنسبة لنا - رابطا يجمع بيننا ، فكنت أحب دائما أن أفيد منه . وما كانت « مايا » لتأبى ذلك . بل إنني كنت إذ ذاك أكاد أعادليا تقدما في هذا الفن : فكان في وسعنا بعد محاولتين أو ثلاث أن نحل

رموز أي لمن . وكنت أحيانا إذا ما رأيتها مستغرقة أمام موقد ، أقول لها : « مايا ، هلك لحنا ساحرا لاثنين ، يبدو لي أنه خليق بأن يجعل رائحة عقاقيرك تتم عن احتراقها » ! .. فكأنت تقول لي : « آه ! .. قسمي لأجعلك تأكلها إذا أنت مسفلتني عنها حتى تحترق ! » .. وبينما يدور الجدل ، كنت أجبرها إلى معزفها ، فننسى أنفسنا : حتى تحترق خلاصة الابست أو العرعر (١) ، بالتعل . فتلطم « مايا » بها وجهي .. وكم كان كل ذلك عذبا !

ومن هذا ترون أنني وإن كنت لم أوت من الفراغ إلا وقتا قصيرا ، فقد كان لدى كثير من الأمور التي أنفق فيها هذا الوقت . على أنه كان ثمة - إلى جانب ذلك - ملهية خلية بأن تعادل وحدها كل الملاهي الأخرى : وإليك قصتها : كنا نقيم في شبة سجن معتم خائق ، حتى أننا كنا بحاجة إلى الخروج أحيانا لننشد الهواء في الريف . وأغرى أئبه « مايا » بأن تستاجر بستانا في الضواحي لتربية النباتات . وكان يلحق بهذا البستان بيت ريفي صغير بديع - مجهز بأثاث متواضع . وأقيم فيه سرير . وكثيرا ما كنا نناول عشاءنا هناك ، كما كنت أنام فيه أحيانا .. ولقد أولعت - دون أن أفطن - بهذا « المعزل » الصغير ، فحملت إليه قليلا من الكتب وعددا من المطبوعات . وقضيت شطرا من وقتي في تربيته ، وفي إعداد بلخاجة مستحبة لما إذا ما خرجت للنزهة في ذلك المكان .

وكنيت ابتعد عنها أحيانا ، لكي أشغل بها يالى ، ولكي أفكر غيبا
بمزيد من الإبتهاج . وكانت هذه نزوة أخرى لا يسعنى أن
أبررها أو أشرحها ، ولكنى اعترف بها ، لأنها كانت حقيقية .
وإنى لأذكر أن مدام دى « لوكسمبورج » حدثتني مازحة
- ذات مرة - عن رجل اعتاد أن يفارق عشيقته لكي يكتب إليها
رسائل . . . وقد قلت لها إنه كان من المحتمل أن أكون ذلك
الرجل - وكان خليقا بى أن أضيف أنني كنت أتصرف أحيانا
مثله ! - على أنني لم أكن أشعر قط . وأنا مع « ماما » بضرورة
الإبتعاد عنها كي أزداد حبا لها . لأننى كنت إذا ما خلوت إليها
أشعر بظمانينة كاملة ، كما لو كنت وحيدا ! . . . من حال
لم استشعرها البتة في حضور أى امرئ آخر - رجلا كان أو
امراة - مهما يكن تعلقى به ! . . . ولكنها كثيرا ما كانت تحاط
بقوم لم أكن أنسجم معهم إطلاقا ، فكان يتأبى سمور من
الضيق والملل ، يدفعنى إلى ملاذئ ذاك (١) ، حيث كان يوسمى
أن أهاجا بها كما كنت أبتغيها ، دون أن أخشى أن يقعبنى
الزائرون القلاء !

وعلى هذه الحال - التى كان وقتى فيها موزعا بين العمل
واللهو والتعلم - نعمت بحياة مغممة بأعذب دعة ! على أن أوروبا
لم تكن في مثل طمانينتى ، إذ كانت فرنسا والإمبراطور تسد
أعنا الحرب لتوها ، وساهم ملك (سردينيا) في النزاع ،
فأخذ الجيش الفرنسى يتقدم عبر (بيمون) ليفزو أراضي

(١) يتعد انبعت الربى الملحق بالخبان .

ميلان . ومهرت غرقة منه خلال (شامبيرى) ، كان بين كتابتها
كثيرة (شامبانى) ، التى كان قائدها الدوق دى « لاترمويس » .
وقد قدمت إليه ، فكان مسرعا في وعوده - وإنى لمؤقت من أنه
لم يتذكرنى البتة بعد ذلك ! - وكان يستأنس الصغر يقوم في
أقصى طرف الضاحية التى دخلها الجند . ومن ثم فحسد كان
يوسمى أن أنعم تلمبا بمتعة مشاهدتهم وهم يهرون . وكنت
من الفحص لنجاح هذه الحرب ، كما لو كانت لى مصالح
عظيمة مهددة بها ! . . . ولم يكن قد جال بخاطري حتى ذلك
الحين أن أفكر في المسائل العامة ، فبدأت أقرأ الصحف لليرة
الأولى . ولكن . . . في تجيز لفرنسا (١) كان يجعل قلبى يخفق
طوبا كلما أحرزت أقل نجاح ، بينما كانت اختلاطاتها تحزننى
وكانها قد ألمت بى أنا ! . . . ولو أن هذه الحماسة كانت عابرة .
لما وجدتها جديرة بأن أتحدث عنها ، ولكنها تغلفلت في غزادى
نون ما سبب كاف ، حتى أنني حين قمت - في باريس -
بدور عدو الطفافة المعتر بدعوته ، شعرت - رغبا عن نفسى -
بميل خفى إلى هذه الأمة التى وجدتها راسفة في الذلة . وإلى
الحكومة التى كنت أنظاها بالنتمة عليها . والطريف في الأمر
أننى ، لخلجلى من شعور يناقض مبادئى ، لم أجسم على أن
أفضى به لأى امرئ ، ورحلت أسخر من الفرنسيين في هزائهم ،
بينما كان قلبى يندمى من أجليم . أكثر مما كانت تدمى قلوبهم
هم ! ومن المؤكد أنني الرجل الوحيد الذى يعيش بين قوم

(١) ثم يكه روسو يمتد فرنسا وطنه : فقد كان من رعايا (جنوا)

بضمير

أحسنا معاملته وهام بحبهم . ولكنه مع ذلك يظهر نحوه . وهو بينهم ، روح الأزدراء ! وهذا الميل من ناحيتي مجرد من الهوى ، وهو من القوة ، والبقاء ، والمنفعة بحيث أنني لم أستطع ان أبرئ نفسي من هذا الضعف . حتى بعد رجولي عن فرنسا ، عقب العاصفة التي تبارت حكومتها وحكامها وكتابتها في إثارتها ضدي ، وبذا أصبح العرف المألوف هو : إقراقتي بها ! ! استحق من سباب ! . . نعم ، إنني أحبهم برغم نفسي ، وبرغم سوء معاملتهم إياي !

ولقد سميت طويلا إلى نبين سبب هذا التحيز ، فعجزت عن العثور عليه ، اللهم إلا في عين المناسبة التي أوجدته : فإن الميل المألوف إلى الأدب أولاني شغفا بالكتب الفرنسية ومؤلفيها وبلاد هؤلاء المؤلفين . وفي الوقت الذي مر فيه الجيش الفرنسي بشامبيرى . كنت اقرأ كتاب « برانفوم » المسمى « القيادة العظيمة » ، فكان رأسي مليئا بأفعال كليسون . وبييار . ولوتريك ، وكوليني ، ومونهورنسى . وتريموى . وكنت أحب ذريائهم بوصفهم ورثة فضائلهم وبمآلاتهم . ورحت أخال أنني ألح في كل كتيبة مرت تلك المصائب السوداء الشهيرة ، التي أحرزت تلك البطولات ، من قبل - في (بيمونت) . وممجز القول أنني ربطت ما كنت أراه ، بالأفكار التي كنت اغتبطها عن الكتب . وراحت مطالعاني الأدبية - وكانت لا تزال مقصورة على مؤلفات الأدباء الفرنسيين - تغذى حتى لبلادهم . ثم حولت هذا الحب في النهاية إلى شغف أعمى لم يقو شيء على التغلب عليه ! ولقد سئحت لى - فيها بعد - الفرصة كي

الاحظ في سياق رحلاتي أن هذا الأثر لم يكن قاصرا على الذات ، وإنما كان يتعداني - بدرجة متفاوتة - إلى أفراد من جميع البلدان ، وهم ذلك القسم من الأمة الذي يحب القراءة ويتقبل على الأدب ، فكان هذا الشغف يرجع على الفور العمام الذي فوحى به عجرفة أخلاق الفرنسيين : . . والملاحظ في هذا المصد أن تمص أدبياتهم أكثر استبلاء من رجالهم على قلوب النساء في جميع البلدان . . كما أن تحفهم التمثيلية تجذب الشباب إلى مسارحهم ، فإن شهرة مسارح باريس تجذب إليها زرافات من الأجانب ، الذين يعودون إلى أوطانهم وهم من أشد المعجبين المتحمسين لها ! . . وبالاختصار أقول إن الفوق الرائع الذي يبين في أدب الفرنسيين ، يسبى عقول كل أولئك الذين أوتوا أى قدر من العقل . ولقد رأيت خلال تلك الحرب - التي انتهت أسوأ نهاية بالنسبة لهم - أن مؤلفيهم وفلاسفتهم قد صانوا شرف اسم فرنسا الذي لعلفه بحاربوها !

وقد كنت إذ ذاك فرنسيا متحمسا ، نهيا إلى الإناء ، فكنت أذهب مع حشد متسقطى الأخبار إلى ساحة السوق ، أنتشر البريد . وكنت - في غباء يفوق غباء الحمار في الأسطورة - أشغل نفسي كثيرا بمحاولة معرفة أى سيد سيكون لى شرف حمل سرجه وركابه ، فلقد قيل في تلك الأثناء إننا سننتزع فرنسا ، وأن (سانوا) سيتبادل بأراضى (ميلان) . على أنه من الواجب الاعتراف بأننى كنت على حق في قلقي ، فلو أن هذه الحرب انقلبت في غير صالح الفرنسيين ، لفرغ من معاملتهم

لخطر كبير . غير أنني كنت مغمما بالثقة في أصدقائي الطيبين .
ولم تخب هذه الثقة - في هذه المرة - بفضل ملك مرسينيا .
الذي لم أفكر فيه إذ ذاك !

وبينما كان الصراع دائرا في إيطاليا . كان الفناء دائرا في
فرنسا ! . . عقد بذات أوبرات « رامو » تحدث ضجة . وترفع
من شأن مؤلفاته النظرية التي كان غموضها قد جعلها في متناول
نثر ضئيل من الناس . ولقد سمعت عفوا من مؤلفه « رسالة
في التوافق » ، علم أرتج حتى حصلت على هذا الكتاب .
وبمصادفة أخرى . سقطت مريضا . وكان مرضي نوعا من
الالتهاب . الذي كان عنيفا وقصيرا . ولكن نفاهتي كانت
طويلة . فلم يكن مسمى الخروج لمدة شهر . وفي خلال هذه
الفترة عشت على « رسالة في التوافق » التي لم أكنيا كانت
طويلة ، محشوة بالإسهاب . سببته العرض إلى درجة أنني
شعرت بأن لا بد لي من وقت طويل كي أدرسها واستوعبها .
وأرجأت جهودي . ورحت أطلو عيني بالموسيقى . ولم تنبارق
ذهني أغاني « بيرنيه » ، التي رحت أتدرب عليها . (فقد
خففت منها عن ظهر قلب أربعة أو خمسة ، منها تلك التي كانت
تدعى « آية الحب القائمة » ، التي لم اسمعها ثانية منذ
ذلك الحين) ، والتي لا أزال أحفظها كلها تقريبا . وكذلك « الحب
الذي لدغته نحلة » ، وهي أغنية جد بدعية من تأليف « كلي امبو »
حفظتها في عين ذلك الوقت تقريبا) .

(١) يقصد القرنين .

واستكسلا لشقفي ، وصل من (قال داوست) عازف أرغن
شاب يدعى الأب « باليه » ، كان موسيقيا مجيدا ، ورجلا
طيبا . وعازفا يجيد مصاحبة من يغنى . وتشرفت إليه .
فأصبحنا لا نفترق . وكان قد تلهذ على راهب إيطالي بارع
في العزف على الأرغن ، غحدثني عن مبادئه في الموسيقى ، وقارنتها
بمبادئ « رامو » - الذي كنت أعجب به - وملاّت رأسي
بالعزف الذي يصاحب الفناء ، ويتناسق الأنغام وتوافقها .
وكان لا بد من أن أشخذ حساسية أذني لكل هذا ، فاقترحت
على « ماما » إقامة حفلة موسيقية في كل شهر ، غوافقت .
وإذا بي استغرق في تلك الحفلات ، فلم أعد أشغل بشيء آخر
ليلا أو نهارا . . والواقع أنني شغلت شطرا كبيرا من وقتي في
تنظيم الموسيقى ، والحفلات الموسيقية ، والأدوات ، وتقسيم
الأدوار ، وما إلى ذلك ! . . وكانت « ماما » تغني ، كما أن الأب
كانون - الذي سبق أن تحدثت عنه ، والذي سأحدث عنه
مرة أخرى - كان يغني هو الآخر . وكان أستاذ للرقص يدعى
« روش » يعزف مع ابنه على « الكمان » ، والسيد « كانانا »
- وهو موسيقي بيمونتي كان موظفا في المساحة ، وقد تزوج
بعد ذلك واستقر في باريس - يعزف على الكمان الكبير ، بينما
كان الأب « باليه » يصاحبهم على « البيانو » ، كما كان لي
شرف قيادة الموسيقى . دون أن أنسى العصا . وفي وسع المرء
أن يتصور مدى جمال كل ذلك ! . . ولئن لم تكن هذه الحفلات
كلتك التي كانت تقام لدى السيد
كانت تقرب منها !

وأثارت الحفلات الموسيقية الصغيرة التي أخذت تقبها
مدام دي غاران - وهي حديثة عهد بالإيمان ، وكانت تعيش
على يد الملك ، كما كان يقال - تضرع عصية الأتقياء ، ولكنها
كانت مليئة مستحبة لكثير من الشرفاء . ولكن هل يستطيع
أحد أن يحدس: من الذي كنت أضمه على رأس تلك المناسبات ؟
.. كان راهبا . ولكنه راهب موهوب . بل ومحبوب : أثرت
بلاياه ، فيما بعد ، على نفسي تأثيرا قويا . ولا تزال ذكرا -
التي ارتبطت بذكرى أجمل أيامي - عزيزة لى . ذلك هو الأب
كانتون . - أحد الرهبان الجليلين (١) - الذي عمل بالاشتراك
مع الكونت « دورتان » على مصادرة موبيتي « الهيرة »
المسكنة في « ليون » . ولم يكن هذا ابداعا في حياته . فقد
تخرج في « السوربون » ، وعاش رديحا طويلا في أرقى الأوساط
الباريسية ، وكان ذا حظوة خاصة لدى المركيز « دانترمون » ،
الذي كان سفيرا لسردينيا في ذلك العهد . وكان حسن البنيان ،
يمتلئ الجسم ، يارق العينين ، ذا شعر أسود كان يتجمع بطبيعته
على جبينه ، وذا أخلاق نبيلة وصريحة ومتواضعة : في آن
واحد ! .. كان مظهره بسيطا وبديعا ، دون ما شيء من النفاق
أو السلاطة التي عرفت من الرهبان ، ودون تلك الصلف
المألوف لدى مجرم المجتمع ، وإن كان واحدا منهم .. لم يكن
يبدى سوى اعتداد الرجل الشريف ، الذي يحترق نفسه -
دون أن يخجل من لباسه - ويشعر دائما بأنه في الوسط

(١) سبق أن شرحنا مذهب الرهبان الجليلين في الجزء الأول ، ونضيف

أنهم من « الفرنسيسكان » .

المحترم إنما يكون في مكانه الطبيعي . ومع أنه لم يكن جد متعلم
بالدرجة التي تتفق مع « الدكتوراد » التي كان يحملها ، إلا أنه
كان كامل العدة والاستعداد لأن يكون من رجال المجتمع ..
ولم يكن يتلطف على أن يعرض معرفته ، وإنما كان يستغلها في
الفرص المناسبة ، حتى لقد كان يظن أنه أوتي من المعرفة أكثر
مما كان يمتلك ! .. ولما كان قد عاش طويلا في المجتمع الراقى ،
فإنه كان يولى المؤلفات المستحبة من الاهتمام أكثر مما كان
يولى العلم الحاف . وكان حاضر البديهة : يقرض الشعر -
ويجيد الكلام - ويحذق الغناء ، وقد وهب صوتا جميلا . كما
كان يعزف على الأرغن و « البيانو » . وكان هذا أكثر مما يكفي
لأن يجعله منشودا ومرغوبا - وهكذا كان بالفعل ! - بيد أن
ذلك كله لم يجعله على أن يهمل واجبات منصبه إلا بقدر ناه .
فلم يلبث أن اختير - برغم غيرة مزاحميه - نائبا لرئيس طائفته
في إقليمه . وبمعنى آخر ، كان من أرفع أفراد الطائفة شئنا !

ولقد نعرف الأب « كانتون » إلى « ماما » لدى المركيز
« دانترمون » . وكان قد سمع عن حفلاتنا الموسيقية في أحاديث
القوم ، فأعرب عن رغبة في المساعدة فيها . وقد فعل .
فأكسبنا بهجة ! وسرعان ما توثق ودنا بفضل ملنس المشترك
للموسيقى . إذ كان هذا الميل - لدى كل منا - ولما بتأججا .
وكان كل ما بيننا من شارق هو أنه كان موسيقيا موهوبا حقا ،
في حين أنني لم أكن سوى متطفل على الفن ! وكنا نذهب
نتمزق في غرفته ، مع « كلانفا » والأب « ماشيه » ، كما كنا
نعرف على أرغفه أحبانا في أيامنا الأولى .

غذايتنا على مائدة الصغرة ، فقد كان — وهذا أيضا من دواعي العجب بالنسبة لراهب — كريما ، مقداما ، ذواقة للأطعمة في غير نهم . وكان ، في أيام حفلاتنا ، يتناول عشاءه في دار «ماما» ، فكانت تلك المأدب كثيرة المرح والسرور ، يقال فيها كل ما يخطر بالبال ، وتطش فيها الأغاني الثنائية . . بينما أسترسل أنا على سجيني ، فأتفق الملح والطرائف . وكان الأب «كاتون» يبدو لطيفا ، و «ماما» تستأثر بالأعجاب . بينما يغدو الأب باليه هادئا للضحك . بصوته الذي يشبه حوار الثور : . . اينها اللحظات المذبة الحافلة بمبعث الشباب . لكم طال بك البعاد !

وبما أفنى لن أعود إلى الكلام عن هذا الأب كاتون المسكين ، فإني أوجز هنا قصته الحزينة في كلمتين : فإن الرهبان الآخرين الذين كانوا يغارون منه — أو بالأحرى يحقدون عليه — إذ راوا فيه كفاءة وخصالا حميدة ، ليس فيها من غساد الرهمل شيئا ، أو سمعه كراهية لأنه لم يكن بغيضا مثلهم . . فاجتمع رؤسائهم عليه « وأوغروا ضده الرهبان الذين كانوا يحسدونه على مركزه » ، والذين لم يكونوا يجروؤن من قبل على التطلع إليه . ومنأوته . . غرسي يالف إهانة ، وأقصي عن مناصبه ، وانتزعت منه حجرته التي كان قد اثبتا باناقة وبساطة معسا . وحبسوه حيث لا أدرى . . وأخيرا ، أغرقه أولئك القساوسة بوصفات لم تقو نفسه الشريفة الأبوية — بحق — على احتماليها . وبعد أن كان بجهة أطراف المجالس ، مات أسى على فراش حقير (يرش) ، في ركن ما من « زنزانة » أو « جب » ، مأسوفا عليه

ومبكيا من جميع الأشراف الذين عرغوه ، والذين لم يجدوا فيه أى عيب . سوى أنه كان راهبا !

وفي سياق هذه المعيشة . لم أثبت أن غدوت — بعد أمد وجيز — غارقا في الموسيقى . والفينى بعيدا عن الدنيا في شئ آخر ، ولم أعد أذهب إلى مكتبي إلا غصبا . فقد أصبح الأرهاق والجهد الدائب يسببان لى عناء لا يطاق . . وانتهيت أخيرا إلى الرغبة في ترك منصبى ، لأكرس نفسي باكليسيا للموسيقى ! وفي وسع المرء أن يتصور أن هذه الحفاقة لم تقابل بغير معارضة . فإن ترك منصب شريف ، ودخل ثابت . للجرى وراء تلاميذ غير مضمونين (١) ، كان نهجا خلوا من الحكمة . بحيث لم يكن يرضى « ماما » . . بل إننا إذا افترضنا أن موهبتي الفيل بلغ ما كفت اتصوره من ضخامة ، فإن ذلك كان يحد من حلمي ويحصره في نطاق متواضع ، إذ يعطى بى طوائف تدور إلى مركز الموسيقى (الموسيقى) . . وأخذت تلك المرأة التي لم تكن ترسم سوى أبدع الخطط ، والتي لم تعد تحكم على قط وعفا لرأى السيد « دويون » ، أخذت ترمقنى في الم وأنا أشغل جنديا بموهبة كانت تراها غير مريحة ، وكثيرا ما كانت تردد لى ذلك المثل الريفى الذى قل ما يصدق في باريس : « ان الذى ستن الغناء ويحذف الرقص ، يتخذ لنفسه مهنة قبل ان ترفع من قدره » ! . . على أنها — من ناحية أخرى — كانت ترانى مسمعا

(١) كان يعترض أن يتكلم عيشه من

ليل لا يقاوم ، غان ولعى بالموسيقى غدا جئتونا . ومن ثم فقد حق لها أن تخشى أن يتأثر عملى من جراء انشغالى . فيؤدى إلى أن أحرَم من منصبى ، وهو أمر كان من الخير أن أقدم عليه بنفسى (٢) . . . ومرة أخرى ، بينت لها أن هذا المنصب لم يكن مقدرا له أن يدوم طويلا . وأنه لابد لى من مهنة اكتسب منها عيشى ، وأن السعى إلى أن أكتسب بالمران حذا للفن الذى كان ميلى يدفعنى إليه . - والذى اختارته لى هى - أضمن من أن أضع نفسى تحت رحمة من يولونى حماهم : أو أن أحاول عملا جديدا قد يجانبى فيه التوفيق ، وقد بدعنى - فى النهاية - بلا موارد لكسب عيشى ، بعد أن أكون قد تجاوزت سن التعليم ! . . وانتزعت أخيرا موافقتها - بالغضب واللعابة والملاينة ، أكثر منى بالحجج المقتعة ! . . فبرعت لغورى مقدما استقالتي إلى السيد كوتشيللى - المدير العام للمساحة - فى زهر وخيلاء ، وكاننى أقدمت على أكثر الأعمال بطولية . . وهكذا تركت منصبى طوعية ، دون ما دأع - ولا عذر ، ولا مبرر . . بل فى اغتباط بقوى اغتباطى يوم ظفرت به قبل عامين !

هذه الخطوة - برغم أنها كانت حماقة مطلقة - أكسبتنى فى البلاد نوعا من الاعتبار الذى أفسدنى . ومنذ البعض أننى استند إلى موارد لم أكن أملكها ، فى حين أن غيرهم قدروا موهبتى على سوء تضحيتى - وهم يروننى أنصرف بكل نفسى إلى الموسيقى - واعتقدوا ، إزاء كل هذا الولع بالفن ، أننى

(٢) أى أنه كان من الخير أن يستقيل بدلا من أن يتنزل !

ولابد على معرفة غائقة به . . . ولما كان الأعور ملكا فى مملكة السهيان ، فقد أختنى القوم على أبنى أستاذ بارع . لأنه لم يكن شمة من المعلمين سوى الرديئين ! . . وإلى جانب ذلك ، غائفى لم يكن يعمزنى حذق الغناء - إلى درجة لا بأس بها - كما كنت مخفلا بسبب سننى وشكلى ، فسرعان ما أصبح لى من التلميذات أكثر مما كان يلزمنى لتعويض مرتبى كموظف كتابى !

ومن المؤكد أنه لم يكن بوسع امرئ أن ينتقل - فى سبيل الاستمتاع بالحياة - من أمر إلى قبضه ، بأسرع مما انتقلت أنا ! . . غفى المساحة كنت أمارس - ثمانى ساعات فى اليوم . . أشد الأعمال كآبة . مع أناس كانوا هم الآخرون أشد الناس كآبة . حبسنا فى مكتب مسمم بأنفاس وعرق كل هؤلاء الأجلال الذين كان معلّمهم بالغى القذارة ، مشغولين - حتى أننى كنت أشعر بدوار وغثيان لغرط الانبعاث والرائحة والجهد والضيق أحيانا : فإذا بى الآن ، بدلا من ذلك ، أجدنى أغوص فجأة فى المجتمع الراقى ، وأصبح مرغوبا ومنشودا فى خير البيوت . أحظى بالحنافاة والملاطفة والإكرام فى كل مكان ، حيث ترتقب وصولى أنسات لطيفات أنيقات ، ليستقبلننى فى تليف ! . . لا أدرى سوى الأشياء الفائقة ، ولا أشم سوى الورد وزهر البرتقال . ولا أحاط إلا بالغناء والكلام والنضح والليو . . ولا أغادر بيتا إلا لأجد كل هذا فى بيت آخر ! . . ولسوف يقرنى القارئ على أنه - وقد تساوت الميزات - لم يكن شمة مجال للتردد فى الاختيار . والحق أبنى : - حتى هذه اللحظة - لى درجة أننى لم استشعر الندم قط . . .

وأنا أزن أعمال حياتي بهيزان العقل . بعد أن تحررت من البواعث الرقيقة التي كانت تحدوني إذ ذاك !

ولقد كانت هذه هي المرة الوحيدة - تقريبا - التي لم أطلع فيها سوى ميولي ، فلم يخب رجائي ! ولقد أدت الحناسة السلسة ، والروح اللطيفة ، والطباع السليمة التي أوتيها أهل تلك البلاد ، إلى جعل اتصالى بالدنيا أمرا مستحيًا . وقد كان الميل الذي تملكني إذ ذاك نحو هذا كله ، ثيلًا أثبت لي بجلاء أنه إذا كان قد قدر لي ألا أحب العيش وسط الناس ، فقد كان هذا ذنبهم أكثر مما هو ذنبي !

ومما يؤسف له أن أهل (سافوا) لبسوا أغندة - أولعته كان أمرا أجدر بالأسف أن يكونوا أغنياء - ذلك أنهم - على ما هم عليه - خير من عرفت من الناس ، وأحسنهم معاشرة . وإذا كانت في الدنيا مدينة صغيرة تتسنى فيها عذوبة الحياة ، في وسط ملائم ومأمون ، فيزدد المدينة هي (شامبزي) . فإن الأسرات العريقة في الإقليم ، التي تتجمع في هذه المدينة ، لم تؤثر إلا ما يكفيها للعيش ، دون ما زيادة . وهم بحكم الضرورة - نظرا لعجزهم عن الإغراق في طموحهم - يتبعون نصيحة «سينياس» (١) ، فيكربون شبابهم للخدمة العسكرية ، ثم يعودون ليقضوا شيخوختهم في وطنهم بسلام . وذلك بتقاسم

(١) كلن «سينياس» وزير «بروس» ملك «البروس» - أي د. س. اليونان - وابن «أخيل» الذي قضى على طروادة ووضع «تروا» - حسب الطروادية -

الشرق والحكمة حياتهم . أما نساؤهم فجهيلات ، وجميلات بحق . إذ أنين يملكن جميعا ما يجعل للجسمال قيمة ، بل وما يغني عنه . ومن العجيب أنني - وقد قدر لي بحكم مهنتي أن أرى كثيرا من الشابات - لا أذكر أنني رايت واحدة في (شامبزي) لم تكن فائقة ! . قد يقال إنني كنت ميالا لأن أراهن فائتات . وربما كان في هذا بعض الحق ، ولكنني لم أكن بحاجة إلى أن أضيف إليهن سحرا من خيالي . والحقيقة أنني لا أملك أن أفكر في تلهيذاتي الشابات دون أن أطرب . . وكيف أذكر هنا أبعين حسنا . دون أن أتلهن معي في تلك الأيام الهائلة التي نعمنا بها ! . . تلك اللحظات البريئة العذبة التي قضيناها معا ؟! . . كانت أولاهن الأنسة «دي ميلاريد» ، جارتي وأخت تلميذ السيد جايم . وكانت سمراء طروب ، مليئة بنشاط ورشاقة ناعمين . ومجردة من كل نزق . وكانت - كعظم لذاتها - تميل إلى القحافة ، ولكن عينيها اللامعتين . وقوامها الأبيض . وخلقتها الجذابة ، لم تكن في حاجة إلى زينة كي تروق للأبصار . ولقد اعتدت أن أذهب إليها في الصباح . فأجدها عادة في ثياب البيت ، لا يؤين رأسها سوى شعرها الذي رعبته في إهمال ، وقد أزدان ببضع زهرات كانت توضع عند وصولي ، ثم ترفع عقب انصرافي ليتسنى تنسيق الشعر ! . . ولست أخشى في الدنيا أكثر من شابة في ثياب البيت ! - وتقل خشيتي هذه مائة مرة إذا كانت الفتاة في كامل ثيابها ! - أما الأنسة «هانون» التي كنت أذهب إليها بعد الظهيرة ، فكانت دائما في كامل ثيابها ، وكانت هي «الأخرى تحدث في نفسها» أثر بالغ الرقة . ولكنه من نوع مختلف .

اللون ، وكانت بالغة الثلث ، وبالغة الخجل . ناصعة البياض . ذات صوت صاف ، واضح ، موسيقى الرنين ، ولكنها لم تكن تجسر على رفعه . وكانت نمة ندية على صدرها خلفها حرق نشأ عن ماء مغلي . ولم يكن الوشاح الحريري الأزرق ليستر هذه الندية تساهيا . فكانت تجتذب انتباهي ، الذي لم يعد - بعد - زمن قصير - ينحصر في الندية وحدها !

وهناك الأنسة دي « شال » . التي كانت عى الأخرى من جاراني . وكانت فتاة ناضجة ، وأغنية العود . عريضة المنكين ، تميل للبدانة . وكانت طيبة جدا . ومع أنها لم تكن حذرة . إلا أنها جديرة بالذكرى لكرم خلقها ، واعتدال طباعها . رضاء . سجيته . أما أختها السيدة « دي شارلي » - أجمل من دي شامبيرى - فكانت قد تجاوزت سن تعلم الموسيقى . ولكنها أتاحت التعلم لابنتها التي كانت لا تزال صغيرة . والتي كان جمالها النائي يوحى بأنه سيفضارح جمال أمها . لولا أنها - لسوء الحظ - كانت ذات شعر ضارب إلى الحبرة . وكانت لى فى « دير الزيارة » آنسة فرنسية صغيرة ، غاب عنى اسمها ولكنها جديرة بأن تحصل مكانا بين الأثرات لدى . . . وكانت قد اكتسبت ما للراهبات من لهجة متقدة ، متراخية . . . وببؤذه اللهجة المتراخية كانت تلقى لمحا طريفة . لا تبدو ملائمة لوقارها ! وفيما عدا ذلك ، كانت كسولا ، لا تحب أن تعجشم عناء إظهار ذكائها - إذ كان ذلك صنيعا لا يبيحه لكل امرئ - . ولم يخطر لها أن تولينى هذا الصنيع إلا بعد شهر أو اثنين من التدريس ، فقد شاعت أن تجعلنى أكثر مواظبة على مواعيتي .

إذ أتنى ما استطعت فط أن أحمل نفسى على الدقة فى المواعيد . كنت أحب دروسى أثناء قياىي بإلقائيا ، ولكنى لم أكن أحب أن أقصر على حضورها ، ولا أن أكون مقيدا بموعد . . . فقد كان التقيد والانصياع أمرين لا أطيقهما : بحيث كنا يحملانى على أن أكره السرور ذاته . . . ويقال إن فى تركيا ، لدى «المحمديين» ، ينطلق فى الطرقات عندما يشرق النهار على الطلوع . رجل يدعو الأزواج إلى أن يؤدوا واجباتهم نحو زوجاتهم . وبئى لخلق بأن أكون تركيا غير صالح فى هذا الموعد (١) .

كذلك كانت لى تلميذات من الطبقة الوسطى ، ومنهن واحدة كانت سببا غير مباشر فى تحول فى علاقاتى ، أرى أن أتحدث عنه ، ما دمت ملزما بأن أروى كل شيء . كانت ابنة بدال (يقال) ، تدعى الأنسة « لار » . وكانت نموذجيا كاملا لتمثال أغريقى ، حتى إننى كنت خليقا بأن أصفها بأنها أجمل فتاة رأيته فى حياتى ، لو قدر للجمال المصادق أن يوجد بلا روح ولا حياة ! . . كان فقورها وبرودها وتجردا من الشعور ، تبلغ فيها درجة لا يصدقها العقل . وكان من المستحيل إرضائها ، كما كان من المستحيل إغضابها . على السواء . وبئى لمقتنع بأنه لو قدر لامرئ أن يحاول المص بيا ، لتركته بفعل ، لا عن ميل ، وإنما عن بلاهة ! . . وهكذا كانت أميا - التى لم تشأ لها أن تعرض للخطر - لا تفارقها لحظة . ولقد حاولت مقايبة جيدها أن توفظ

(١) من المفهوم أن هذه غربة من الغرائب التى شعرت بها جان جاك روسو .

مشاعرها . إذ أتاحت لها دراسة القضاء ، وجاءت لها بمدرسي شاب كى يعلمها . . ولكن دون جدوى . . وبينما كان المدرس يسمى لفنته الابنة ، كانت الأم تسعى لفنته المدرس ، ولكن احدهما لم يكن أكثر توفيقا من الآخر : . . كانت السيدة « لار » تجمع إلى تسببها الطبيعى من الحوبة . ما كان ينشئ لابنتها أن تحرزه ! كانت امرأة ذات وجه صغير . يقظ ، عايس . ثائث فيه آثار الجدرى . وكانت لها عينا صغيرتان . شديتا القلق ، يشوبيهما شيء من الاحمرار . لأنها كانت متحرفة الصحة باستمرار . . وكنت أجد عند وصولي . في كل صباح . قهوتى الممزوجة بالقشدة . ولم يفت الأم قط أن تستقبلنى بقبله تجيد طبها على الفم ، فكنت — بدافع من الفضول — أتمنى لو أردتها إلى الابنة . لا تبين كيف نلقاها ! . . على أن كل هذا كان يتم على صورة من البساطة وعدم التكلف ، بحيث كانت المغالطات والقبيلات تأخذ مجراها كالمعتاد ، إذا ما كان السيد « لار » موجودا ! . . وكان رب الأسرة رجلا طيبا . وأبا حقيقيا لابنته ، عما خدعته زوجته يوما . لأنها لم تكن بحاجة إلى ذلك (١) !

وكنت أطلقى هذه المغالطات بفهائى المعبودة ، ففسرا إياها على أنها إمارات للود الصادق ! . . على أننى كنت انضابق أحيانا ، لأن السيدة « لار » لم تكن تغفل أداءها قط ! . . وكنت

(١) يقصد أنها لم تكن بحاجة إلى خدامه . أما لأنها كانت تمارس التنبيل أمامه ، وأما لأنها كانت تعجز عن اجتذاب الرجال رغم مغالطاتها .

إذا مررت خلال النجار بالحانوت دون أن أعرج عليه . يخلق ذلك ضجيجا . . فكنت أضطر حين أكون في عجلة من أمرى إلى أن أدور متخذًا طريقًا أخرى . لفرط يقينى بصعوبة خروجى من لدن السيدة كما دخلت !

وهكذا كانت السيدة « لار » شديدة الانشغال بـ . بالقياس إلى عدم اهتمامى بها . ولقد أثرت في هذه الحفوات كثيرا . حتى أننى تحدثت عنها إلى « ماما » . . وكأنها أمر غير مستغوب . ولو كان فيها ما يستغرب لما كنت أقل حديثا عنها . فقد كان كتمان أى سر عن هذه السيدة أمرا غير ممكن . كان قلبى مفتوحا أمامها كما هو مفتوح أمام الله ! . . لكنها لم تنلق الأمر بهل ما ظنفته من بساطة ، فقد رأت أن ما كنت أعتبره « مودة » ، إنما كان في حقيقته « مغالطات » ! . . وحدست أن السيدة « لار » رأت من « لكرامة » ألا تدعنى غرا كبيرا كما وجدتنى ، فسعت — بفتى الطرق — إلى أن تكشف لى غابتها ! . . وكان لدى « ماما » من البواعث اللائقة بها . ما جعلها ترغب في أن تعصمنى من الشراك التى كانت سننى وشكلى يعرضانى لها . فضلا عن أنه لم يكن من الإنصاف أن تقولى امرأة أخرى تعليم تلميذها !

ثم تصب في طريقي شرك أخطر من المعتاد ! . . وبرغم أننى استطعت أن أنجو منه ، فإن هذا الشرك نبه « ماما » إلى أن الأخطار التى كانت تهددنى دون انقطاع ، أصبحت تستوجب كل الاحتياطات التى رأت أن تتخذها . . . وكانت امرأة « الذكاء » ملتون » . أم إحدى تلميذاتى

عرفت بأنها أوتيت من الحب ما لا يقل عن ذكائها . وقد تسببت
 - كما كان يقال - فى كثير من المنازعات ، منها ما كان ذا عواقب
 مشسومة على أسرة « دانترمون » . وكانت « ماما » على
 علاقة بها تكفى لأن تطالعها على أخلاقها . فقد أولعت « ماما »
 - فى براءة - بشخص كانت مدام دى « مانتون » قد بنت
 عليه آمالا ، غاثمتها بالعدوان على إيثار كان موحجا إليها .
 برغم أن « ماما » لم تفعل . . بل إنها لم نسع إلى هذا الإيثار .
 ولم تتقبله ! . . ولكن منذ ذلك الحين عمدت مدام « مانتون »
 إلى تدبير عدة مكائد لغريمتها ، لم يقدر لاية مكيدة منها أن
 تنجح . وساروى واحدة من أكثرها إثارة للضحك . على سبيل
 المثال : فقد كانتا مرة فى الريف مع عدد من السادة - من
 الجيران - بينهم الشخص المذكور . الذى كانت مدام
 دى « مانتون » تعلق عليه آماليا . وفى أحد الأيام . قالت هذه
 لأحد السادة إن مدام دى غاران لم تكن سوى امرأة متحذقة .
 وأنها عديمة الذوق ، لا تحسن ارتداء ثيابها . وحرص على أن
 تغطي عنقها كنساء الطبقة الوسطى . فقال السيد . الذى كان
 يولعا بالمزاح : « أما عن هذه النقطة الأخيرة ، فإن لديها غفرا ،
 إذ أننى أعرف أن لديها ذنبة كبيرة على شكل الغار البشع ،
 مطبوعة على صدرها . وهى شديدة الشبه بالغار . حتى ليقال
 إنها تجرى ! » . . والحب - كالبغضاء - يوحى بالتسدين .
 لذلك اعتزمت مدام « دى مانتون » أن تستغل هذا الاكتشاف .
 وفى ذات يوم ، بينما كانت « ماما » تطعب الورق مع الشخص
 الذى جحد إيثار السيدة ، إذا بهذه فتتيز الفرصة فتستل إلى
 ساروا غريمتها ، ثم توشك أن تغلب مقعدها لتزيج وشاحها عن

عنقها . . وبدلا من أن يرى السيد غارا كبيرا ، رأى شيئا على
 النقيض تماما . لم يكن نسيانه بأسهل من مشاهدته ! . . وهذا
 ما لم يكن فى حسيان السيدة !

وبرغم أنى لم أكن بالشخصية التى تشغل بال مدام
 « دى مانتون » . التى لم تكن تبغى حولها سوى اللامعين .
 فإنها أولتني بعض الاهتمام ، لا من أجل شكلى - الذى لم يشغلها
 البتة بالتأكيد - وإنما من أجل ذكائى المزعوج . الذى كان من
 المحتمل أن يجعلنى ذا نفع لها . . فلتد كانت محذوبة المبرل
 للجباء . وكانت تحب نظم الاغاني والاشعار فى هجو الذين
 لا يروثون لها . . فلو أنها وجدت لدى كفاءة كافية لمعاونتها فى
 نظم اشعارها ، واستعدادا كافيا لكتابتها ، لكان فى وسعنا
 - فيما بيننا - أن نقيم (شامبرى) ونقعدنا ! . . وكان فى
 الوسع طبعنا الاهتمام إلى مصدر هذه الهجائيات . وإذ ذاك
 كانت السيدة « مانتون » كفيلا بأن تنمسل من المسألة بأن
 تضحي بى . فيلقى بى فى السجن . . ولعلنى كنت أمكث فيه
 بقية عمرى . لأننى قمت بدور « غيبوس » (١) مع السيدات !

لكن شيئا من كل هذا لم يحدث - لحسن الحظ - فغدت
 استيقظنى مدام « دى مانتون » مرتين أو ثلاثا للفداء .
 لتسفرجنى فى الحديث . فالتفت أنى لم أكن سوى إله ! . . وكانت

(١) غيبوس : من أسماء أبولون الهة الخيول والشمس والشمس والموسيقى

عند الرومان . . كما أنه كان اله النهار .
 « غيبوس » . وهو ابن الإله جوبيتر

— أنا نفسي — أشعر بذلك . واتحسر له . وأعيط صديقتي « فينتور » على مواهبه ، في حين أنني كنت جديرا بأن أحمد غياني إذ انتقذني من المخاطر ! وهكذا ظلت — بالنسبة لـ « دام مانتون » — المدرس الذي يلقي أبنائها الموسيقي . لا أكثر . . ولكنني عشت في أمان . وظللت مرغوبا في « شامبيرى » . وهذا أفضل من أن أكون ذكيا — في نظرها — وأفعوانا في نظر بقية القوم !



وإذ كان الأمر على هذه الشاكلة ، فقد رأت « ماما » — لانتزاعني من مخاطر شبابي — أن الوقت قد حان كي تعالمني كرجل ، وهذا ما فعلته . . . ولكن بأغرب طريقة نذرة خاطرت لأمرأة في ظلوف مشابهة : فقد وجدتني أكثر جدية في مسلكها . وأكثر أدبا في قولها ، مما عهدتها . . . واستبدلت — للنور — بالرح المالح الذي اعتادت أن تمزج به بالعالمها ، ليجه بتحفة على الدوام ، لم تكن مألوفة ولا قاسية ، ولكنها كانت تشبه التمهيد لشرح ما . . . وبعد أن بحثت عينا ، في أطواء نفسي . عن سبب لهذا التحول ، سألتها . . . وكان هذا ما تنتظره . فإذا بها تقترح أن نخرج للتنزهة في البستان الصغير في اليوم التالي ، نذهبا إليه منذ الصباح . وكانت قد اتخذت من الإجراءات ما يكفل بقاءنا وحيدين طوال النهار الذي استغلته في إعدادي للنعم التي شاعت أن نغدقها على . . . لا بالمغازلات والإغواء — كما تفعل أية امرأة أخرى — وإنما بأحاديث مفعمة بالمعاطفة والحكمة ، قصدت بها إلى تعليمي أكثر مما قصدت إلى اغوائى .

وكانت تنفذ إلى قلبي أكثر مما تنفذ إلى حسي ! ومع ما كانت عليه هذه الأحاديث من بهاء ونفع ، وبالرغم من أنها لم تكن سوى أحاديث غائرة حزينة ، إلا أنني لم أولها كل ما كانت تستحق من انتباه ، ولا نقشتها على ذاكرتي كما فعلت في كافة الاوقات الأخرى . بل أن استلاليا — ذلك المسلك التهيدي — بلبل عكري . فجعلني أحلم وأشرد — بالرغم منى — وهى تتكلم . . . وغدوت أقل اهتماما بها كانت تقولها . منى بالبحث عما كانت تبغى الوصول إليه ! . . . وما أن نهمت — وهو ما لم يكن بالمسهل على — طرافة الفكرة التي لم تجل أبدا بخاطري . طيلة الوقت الذي عشت به معها . حتى تملكنتي الفكرة نهاما . فلم أعد قادرا على التفكير فيما كانت تقولها لى « ماما » . . . لم أعد أفكر إلا فيها هى وحدها ! دون أن انصت إليها !

إن الرغبة في حمل الشباب على الإصغاء لما يراى قوله لهم ، بالملاعهم مقدما على غاية جد مشوقة لهم « أسلوب معكوس » . وإن كان جسد مألوف لدى المعلمين ، حتى لقد عجزت — أنا نفسي — عن تحاشيه في كتابي « إميل » . فإن الشاب إذ يؤخذ بالغاية التي بوعد بها ، يشغل بها وحدها . ويتخطى في تسرع أحاديث التمهيدية ، ليصل مسرعا منذ البداية إلى الغاية التي تسعى به إليها في بقاء بالغ — حسبما يرى هو — أما إذا أريد الاستحواذ على انتباهه ، فيجب ألا يمكن من أن ينفذ إلى الغاية مقدما . وهذا ما أساءت « ماما » تقديره . فبطريقة غدة تمهيد مع عقلا المنسق المنتظم . عادت إلى حنط لا طين منه قط . إذ فرضت شروطا . ولكنى لم أكن ألتزمها .

حتى انصرفت عن سماعها ، وبادرت إلى الموافقة على كل شيء .. بل إنني لأشك في وجود رجل في الدنيا يقوى - معها تكن أمانته وجلده - على المساومة في مثل هذه الحال ، وفي وجود امرأة واحدة تقبل أن تفقر له ذلك إذا فعله ! .. وكنتيجة لطريقتها الفريدة ، وضعت «باما» في هذا الاتفاق أشد قيود أدبية ، ومنحتني ثمانية أيام أفكر خلالها .. وهي مهلة أكدت لها - كذبا وزورا - أنني لم أكن بحاجة إليها .. فالواقع أنه مما زاد من غرابة الموضوع « وبلغ بها غروتها » أنني كنت جند متعبط بتقبل هذا المشروع ، بقدر ما أذهلتني طرائفه .. وبقدر ما شعرت بانقلاب في افكاري ، كان يتطلب مني وقفا لتنظيمها !

ولقد يخال أن هذه الأيام الثمانية بدت لي كثمانية قرون ، ولكن الأمر كان على القيقض ، فلقد تمنيت لو أنها امتدت فعلا إلى هذا الأجل ! .. ولست أدري كيف أصف حالى ، فقد كانت لونا من الجزع الممزج بنفاد الصبر - إذ كنت خلالها جزعا مما كنت أتوق إليه ، إلى درجة أنني فكرت جديا .. في بعض الأوقات - في وسيلة مؤذية لتفادي البناء الموعود ! .. وتصور طباعى المتهورة الفزقة ، ودمى الفائر ، وقلبي المنتشر بالحب ، وصحتى الموفورة ، وسنى ! .. وتذكر أنني في هذه الحال - وفي ظمئى إلى النساء لم أكن قد مسست بعد واحدة منهن : .. ومن هنا فإن الخيال ، والحاجة ، والغرور ، والنفس ، تجمعت كلها لتفكك في نفسى رغبة تيمة مناجبة في أن أكون رجلا .. وفي أن أثبت أنني رجل ! .. يضاف إلى ذلك - وهذا أمر يجب ألا يغفل - أن تعلقى الجنون ، المحترق ، باما .. كان

بعيدا عن التضائل ، بل إنه راح يزداد اتقادا يوما بعد يوم .. حتى لم أعد أهنا إلا بقربها ، وحتى أنني لم أكن أفارقها إلا لأفكر فيها ، وحتى أن قلبى كان مترعا ، لا بطيبتها ولطفها فحسب ، وإنما بجنسها ، وشكلها ، وشخصها .. وبإيجاز : بها ، بجميع الاعتبارات التى كانت تجعلها عزيزة على .. ولا يخطرن بالبال أنها كانت قد اكتبلت .. أو بددت لى مكتولة لأننى كنت أصفرها بعشر أو اثنتى عشرة سنة ، فالواقع أنها لم تتعرض إلا لتغيير بسيط .. بل أنها - في نظري - لم تفقر البتة خلال السنوات الخمس أو الست التى كنت أغيب فيها في نوبات من النشوة ، من سحر النظرة الأولى ! .. كانت تبدو لى فائنة دائما ، وكان كل امرئ يعتبرها كذلك .. في تلك الآونة .. كل ما هنالك أن قوامها وحده ازداد بدانة .. بعض الشيء .. وفيها عدا ذلك ، فإنها احتفظت بنفس العين .. ونفس البشرة ، ونفس المصدر .. ونفس الملامح ، ونفس الشعر الأشقر الجميل ، ونفس المرح .. وبكل شيء .. حتى صيرتها : ذلك الصوت الشاب ذى الجرس الفضى ، الذى كان له دائما تأثير كبير على نفسى ، حتى أنني لا أستطيع - إلى اليوم - أن أسمع رفين صوت عذب لفتاة شابة ، دون أن أتأثر به !

ومن الطبعي أن الأمر الذى كان لى أن أخشاه خلال انتظار الظفر بامرأة حببية ك هذه ، هو التعجل وعدم المقدرة على ضبط شهواتى بدرجة كافية ، فأصبح خيالى مسيطرا على .. ولسوف ترى أن مجرد التفكير في بعض الأفضل الطبيعية التى كانت ترتقبنى بالقرب من الحببة .. فى حين .. كانت

هذا لتفاديها - ويصونى من أجل نفسى وواجباتى فحسب ، هو الذى جعلنا نأخذ على عاتقنا « واجبا » لم تكن تنظر إليه نظرة غيرها من النساء ، كما سأبين فيما بعد . ولقد أشفقت عليها ، كما أشفقت على نفسى ، ووددت لو أقول لها : « لا يا ماما ، لا ضرورة لهذا - سأردع نفسى بدون هذا » . . . ولكنى لم أجسر ، أولا : لأن هذا لم يكن بالشئ الذى يقال : وثائيا : لأننى شعرت فى قرارى بأن هذا غير صحيح ، وأنه ليست ثمة سوى امرأة واحدة تملك - فى الواقع - أن تصوفنى عن بقية النساء . وأن تعصمنى من القوايات . وكنت - دون أن أشتبهى الظفر بها - جد مسرور لأنها كانت تصدنى عن اشتهاى الظفر بالآخرىات . إلى درجة أننى رحت أعتبر كل ما يشغلنى عنها لونا من الفحس والشقاء !

ولقد كانت الفتاة الوثيقة ، ومعاشرتنا البريلة ، أبعد من أن توهن مشاعرى نحو « ماما » ، بل إنها عززتها ، ولكنى - فى الوقت ذاته - اتجهت بها اتجاهها جديدا : فجعلتها أكثر وجدا . وربما أكثر هيما ، ولكنى كذلك أقل شهوة . وبحكم متادانى إياها ماما ، وبحكم معاملتها بالفة الابن ، اعتدت أن اعتبر نفسى بمثابة ابنها ! واعتقد أن هذا كان السبب الحقيقى فى ثلة تعجلى للظفر بها ، برغم أنها كانت جد حبيبة لى . وإبنى لأذكر بجلاء أن أحاسيسى الأولى كانت أكثر شيوانية : دون أن تكون نشيطة متحفزة . فكنت فى أئيسى تشوانا ، ولكنى لم أعد كذلك فى شاميرى . ومع أننى ظللت أحبها دائما بكل وجد ممكن - إلا أننى ازدددت حبا لها لذاتيا ، كما يحدث دائما لها

تذهب دوى إلى الدرجة التى يستحيل على عندها أن اجتياز دون عناء الفارق القصير الذى كان يفصل بينى وبينها . فكيف كان يسننى لى - وأنا فى عنقوان الشباب - أن أسمر بشوق قليل إلى المتعة الأولى ؟ . . . وكيف قدر لى أن أرقب ساعة القرب ، بالم أكثر منى بابتهاج ؟ . . . كيف حدث أننى شعرت بنفور وخوف تقريبا ، بدلا من أن أسمر بالمباهج التى كانت خليفة بأن تسكرنى ؟ لا شك فى أننى لو كنت قد امتطعت الفرار من هنائى - بطريفة مهذبة - لفعلت بكل قلبى . . . ولقد وعدت بأن أروى عجائب فى تاريخ تعلقى بها . وهذه - بلا شك - حجية لم تكن مثوقة إطلاقا !

ولا شك أن القارئ يرى - فى استنكار - أنها وقد استسلمت لرجل غريب ، قد حطت من قدرها فى نظرى وهى تشركنى مع هذا الرجل ، وأن الشعور بعدم التقدير لها خلقى بأن يكون قد هذا من سورة تلك المشاعر التى ألهمتها . . . ولكن القارئ بخطئ فى هذا الظن ، فإن هذا الإشراك كان ماسى الإيلام لى حقا . . . وكان هذا راجعا إلى رقة مشاعرى بطليعيتها ، بقدر ما كان ناشئا عن أننى وجدت الأمر غير لائق بها ولا بى فى الواقع . وبوسعى أن أقسم بأننى لم أكن مشغوعا بحبها يوما قدر ما شغفت عند ما كنت قليل الرغبة فى الظفر بى ، فلقد كنت أعرف عن قلبها الطاهر - ومزاجها الجليدى ما يعصمنى من أن أظن لحظة أن للذة الحبية دخلا فى هذا الإقدام منيا على أن تمنحنى نفسى ! . . . وإنما كنت مقتنعا - تمام الاقتناع - بأن مجرد الاهتمام بتجنيبى مضاطر لم يكن من سبيل سوى

من أجل نفسي ، أو لنفسي لم أعد - على الأقل - أسعى إلى هتائي
بقدر ما كنت أسعى إلى استمقامي بقريبي - كانت - بالنسبة
لي - أكثر من أخت ، وأكثر من أم ، وأكثر من صديقة ، بل
وأكثر من عشيقة ، ولهذا السبب بالذات ، لم تكن عشيقة ! ..
وبإيجاز : كنت أحبها إلى درجة تجعلني لا أشتيتها .. وهذا
أوضح ما في آرائى وأفكارى !

وحان أخيراً اليوم الذى كان مرهوباً ، أكثر منه مرغوباً ! ..
ووعدت بكل شيء ، فلم أنكث بوعودى ، ولقد عزز قلبى يهودى
دون أن يطمع في جزاء . ومع ذلك فإننى ظفرت بالجزء .
ورأيتنى للمرة الأولى في أحضان امرأة ، وامرأة كنت أعبدها ..
أفكنت سعيداً ! .. لا .. لقد تذوقت اللذة ، ولكن شعوراً
بأسى طاغ سم سحرها ، فكنت وكأننى ارتكبت جريمة الزنا
مع إحدى المحرمات .. ولقد بللت صدرها بدموعى مرتين أو
ثلاثاً ، وأنا أقصها بين ذراعى في وجد .. أما هي ، فلم تكن
حزينة ولا مرحة ، وإنما كانت حنوناً وساكنة . ولما كنت على
قدر ضئيل من الحس الشبوانى ، ولم تكن تنشد اللذة الحسية
قط ، فإنها لم تتسعر بالمتعة ، ولا عانت الندم إطلاقاً !

وإنى لأكرر أن كل زلاتها ترسبت على أخطائها ، وليس عن
شبهاتها قط .. كانت طيبة المنبت ، وكان قلبها طاهراً ، وكانت
تحب الأمور الشريفة ، كما كانت كل ميولها مستقيمة صالحة ،
وثوقياً رقيقاً .. ولقد نشأت على لطف الشمائل ، وهو ما كانت
تحبه دائماً ، وإن لم تتبعه قط ، لأنها بدلا من أن تنصت إلى
قلبها - الذى كان يرشدها إلى الدروب - تنصت إلى



وبحكم مناداتى أباهما بهما ، وبحكم معاملتها بالغة الابن ، اعتدت أن
أعتبر نفسي بمثابة ابنها !

عظما الذي كان يخطيء في إرشادها : .. وعندما كانت المبادئ الزائفة تضللها ، كانت المشاعر الصادقة تكذب هذه المبادئ دائما . ولكن ماها كانت - لسوء الحظ - تخدع نفسها بالفلسفة ، وقد أدت المبادئ الخلقية التي استهدتها منها ، إلى إفساد المبادئ التي كان قلبها يميلها عليها !

وكان السيد «دي تافيل» - عشيقها الأول - هو استاذها في الفلسفة ، وكانت المبادئ التي لغتها يابها هي تلك التي وجدها ضرورية لاغوائها ؛ فلقد وجدها ودية لزوجها ولواجباتها ، باثرة دائما ، مفكرة ، منيعة على الأحاسيس الشهوانية - نعد إلى مهاجمتها بالسفسطة والمغالطات . وانتهى إلى إقناعها بأن واجباتها - التي كانت متشعبة بها - لغو من تعاليم الدين التي وضعت خصيصا لتفلية الأطفال ، وأن الاتصال الجنسي - في حد ذاته - هو أقل التصرفات أهمية ، وأن الوفاء الزوجي محض التزام ظاهري ، كل قيمته الخلقية مجرد رأى ! .. وأن راحة الأزواج هي الأصل الوحيد لواجبات النساء ، ومن ثم فإن الخيانات المجهولة - التي لا يكون لها أثر لدى من ترتكب ضدهم ، لأنهم لا يدرون بها - لا أثر لها على الضمير كذلك ! .. ومجمل القول أنه اقنعها بأن الأمر لا قيمة له في حد ذاته ، وأنه لا يكون ذا شأن إلا إذا افترض ، وأن كل امرأة تبدو غافلة إنما تدين بمظهرها الفاضل لهذا السبب وحده . وهكذا وصل الوغد إلى غايته ، فافسد عقل طفلة ، ولكنه لم يقو على إفساد قلبها : .. ولقد عوقب على ذلك بأعنى ألوان الغيرة ، إذ اعتقد أنها كانت تعامله كما عليها أن تعامل زوجها ! ولست أدري ما إذا كان

على خطأ في ذلك ، فإن الراهب « بيرييه » خلفه في علاقته بها . إنما الذي أدريه ، هو أن الطبع البارد الذي أوتيت هذه المرأة ، والذي كان خليقا بأن يعصمها من هذا المسلك ، كان هو عين ما منعنا - بعد ذلك - من أن نتبذد : .. فما قدر لها أن تدرك أن الناس تظلم أهمية على الشيء الذي لا قيمة له لديها . وما وجدت قط - باسم الفضيلة - زهدا لا يكبدها سوى جهد بسيط !

على أنها لم تسيء قط استقلال هذه المبادئ الزائفة من أجل نفسها . وإنما استغلتيها من أجل الضر ، وكان ذلك من جراء نظرية تعادل تلك المبادئ زيفا . وأن تمشت مع ما طغر عليه قلب السيدة من طيبة . فلقد كانت تعتقد دائما أن لا شيء يربط أي رجل بأمرأة سوى ظفوه باريه منها . ومع أنها لم تكن تحب أصدقاءها إلا بدافع من المودة . فإن مودتها كانت من اللطف والرفقة بحيث أنها كانت تستخدم كل وسيلة ممكنة لتوثق ارتباط هؤلاء الأصدقاء بها . .. والغريب في الأمر أنها كانت توفق في بلوغ غايتها باستمرار تقريبا . فقد كانت حبيبة حقا . حتى أن المرء كلما عظمت الألفة التي يعيش عليها معها ، ازداد اكتشافا لأسباب جديدة تدفعه إلى حبها . وهناك أمر آخر جدير بالملاحظة ، هو أنها بعد ضمها الأول ، لم تكن تظلم أفضالها الناعمة قط إلا على البائسين . وكان اللامعون يفقدون - سدى - العناء الذي يتكبذونه للوصول إليها ، ولكن : .. إذا ما بدأت تشعر بالإشتاق يوما على رجل ، إلا بد من أن يكون هذا الرجل قلب الجدارة بالحب ، إذا هي لم تنه إلى أن

تجبه ! .. وكانت ، إذا أقدمت على اختيار أشخاص يلتقون بها ، لا تصدر في اختيارها عن الميول الخسيسة التي لم تكن قط تقارب فؤادها النبيل ، بل إنها لم تكن تصدر إلا عن خلقها المفرط الكرم . المفرط الرحمة ، المفرط الحنان ، المفرط الحساسية .. هذا الخلق الذي لم تكن تحكمه دائما بحكمة وبصيرة كافيتين !

وإذا كانت بعض المبادئ الزائفة قد غررت بها ، فكم من مبادئ رائعة اعتنقتها ! فلم تتخل عنها قط ! .. وبكم من الفضائل كثرت عن نواحي ضعفها ، إذا جاز للمرء أن يطلق هذا الاسم على أخطاء لم يكن للإدراك فيها نصيب يذكر ! .. بل إن هذا الرجل الذي غشها في ناحية ، أحسن تعليمها في الناحية أخرى . ثم إن عواطفها - التي لم تكن متأججة مندفعة - كانت تتيح لها أن تتبع دائما أضواء العقل . فكانت تسلك جادة الصواب عندما لا تضللها السفسطة .. كانت دوافعها حميدة ، حتى في أغلاطها ، وكانت آراؤها الزائفة كفيلا بأن تدفعها إلى الزلل ، ولكنها لم تكن تقوى على الزلل عن رغبة وطواعية .. كانت تكره الرياء والكذب ، وكانت منصفة ، عادلة ، شفوقة ، منكرة لذاتها ، وغيرة لوعدها ولاصدقائها ولواجباتها - التي كانت تعترف بأنها واجبات - عاجزة عن الانتقام والبغضاء ، دون أن تكون لديها أقل فكرة عن أن في الصريح أبة ميزة أو فضيلة ! .. وأخيرا ، لو أننا عدنا إلى تلك الخصال التي لم يكن لها فيها عذر يذكر ، نجد أنها لم تكن تدرك كيف تقدر قيمة الأفضل الناعمة التي كانت تخلعها على من يقع عليه اختيارها ،

ولا كانت تتخذ منها مادة للتجار أو المساومة .. كانت سخية في إغداق هذه الأفضال ، ولكنها أبدا لم تكن تبقيها ، بالرغم من أنها كانت في شغل دائما بموارد العيش .. وإنني لأجرؤ على القول بأنه إذا كان سقراط قد استطاع أن يحترم «أسباسيا» (١) فلهذا كان قميئا بأن يحترم مدام دي غاران !

وإنني لأعرف مقدما أنني إذ أضفها بالشخصية الحكيمة ، والطبيعة الباردة ، سوف انهم بالتناقض كالمعتاد ، وبحق . ولكن من الجائر أن الطبيعة قد أخطأت ، وأن اجتباع هاتين الخلفتين ما كان يجب أن يوجد . ولكني لا أعرف سوى أنه قد وجد فعلا ! .. إن كل الذين عرفوا مدام دي غاران - ومنهم عدد كبير لا يزال على قيد الحياة - يعلمون أنها كانت كذلك . بل إنني لأجرؤ على أن أضيف أنها لم تعرف سوى متعة واحدة من المتع الحقيقية في الحياة ، وذلك هي : تيسير الاستمتاع بالحياة لأولئك الذين كانت تحبهم . ومن المباح لكل امرئ أن يناقش ما تقدم بحرية تامة ، وأن يثبت عن علم ودراسة أنه غير صحيح . إن مهيتي هي أن أقول الحق ، ولكن ليس أن أحمل الناس على تصديقه !

ولقد أملت شيئا غشينا بكل الذي قلته ، خلال الأحاديث التي أعقبت اتحادنا (٢) ، والتي كان لها وحدها الفضل في جعل

(١) أسباسيا : كانت عشيقته بريكليس السياسي الأثيني . في النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد وقد كان صالونها يلقى اللاحقين من مفكرين أثينا .

(٢) يقصد العلاقة الجنسية التي قامت بينه وبين مدام دي غاران .

هذا الاتحاد عذبا . ولقد كانت على حق إذ داخلها الأمل في أن يكون صنيعها ذا نفع لى ، فغدت أقدم منه في تعلمي غوائس كثيرة : فنقدت كانت « ماما » - حتى ذلك الوقت - تتحدث إلى كما إن كنت طفلا ، ولكنها بدأت تعاملنى كرجل ، فحدثتني عن نفسها . وكان كل ما قالته لى مشوقا ومثيرا لاهتمامى . فتأثرت به إلى درجة أنني كنت - إذا ما استعدتة لنفسى - أخرج من اعترافاتها بفوائد تفوق كل ما خرجت به من دروسها . ونحن عندما نشعر أن محدثنا إنما يتحدث من فؤاده ، فنفتح قلوبنا لتلقى اعترافاته . . ولن يقدر لكل ما لدى أى مدرس من علم ، أن يصل إلى مرتبة الثروة العاطفية الناعمة التى نفيض من امرأة ذكية ظفرت بولاء المرء وتعلقه !

ولقد هيات لها ظروف الألفة الوثيقة التى عشت غيبا معها، فرصة تكوين رأى عنى يتطوى على مزيد من التقدير عن ذى قبل . . كانت ترى أننى - على الرغم من خجلتى وتقاضى - أهل لأن أدرب على الحياة ، وأننى لو ظهرت يوما في مستوى معين ، لئسنى أن أصبح في مركز يمكننى من أن أثق طريقي . وبهذه الفكرة ، كرست نفسها لا لتشكيل وعيى فحسب ، وإنما لصوغ مظهرى ومسلكى كذلك ، حتى تجعلنى جديرا بالحب وبالقددير معا . وإذا صح أن النجاح في الدنيا يقترن بالفضيلة - وهو ما لا أؤمن به من ناحيتى - فإئنى مقتنع ، على الأمل ، بأنه لم تكن ثمة وسيلة تؤدي إلى مثل هذه الغاية سوى تلك التى اتخذتها « ماما » ورغبت في أن تلقننى إياها ! . . فلقد كانت بدام دى غاران تنهم الجنس البشرى ، وتغهم - إلى درجة

عالية - من التعامل مع الناس دون خداع أو تبور ، ودون غش أو إساءة ، ولكنها كانت تلقن هذا الفن بشخصيتها أكثر منها بدروسها ، وكانت أكثر معرفة بممارسته منها بشرحه ، وكانت أنا - ذون رجال العالم طرا - أقلهم قابلية لأن اتعلمه ! . . ومن ثم غدت كانت محاولاتها - في هذا الاتجاه - جيودا مضيفة ، وكذلك كان حال كل ما تحببته لتزودنى بأساندة للمبارزة والرقص . ومع أنني كنت لدن العود ، حسن القوام ، إلا أنني لم أتعلم قط كيف أرقص ، ولو لدقيقة واحدة ، فلقد اعتدت - بفضل البثور (الكالو) - أن أسير على كعبي قدمى ، وهى عادة لم يستطع « روش » أن يشفىنى منها . وبالرغم من خفة مظهرى ، فإئنى لم أكن قادرا يوما على أن أقفز عبر حفرة عادية . وكانت حالى أنكى في مدرسة المبارزة ، فقد ظلت - بعد ثلاثة أشهر من الدراسة - مضطرا إلى أن أقتصر على الصد والمراوغة ، بعيدا عن أن أقوى على الهجوم . . كما أنني لم أوت قط رسفا لينة أو ذراعا ثابتة ، بحيث تحتفظ بالشيش كلما حلا للأستاذ أن يطوح بها . أضف إلى ذلك أنني أوتيت نفورا قاتلا من هذه الرياضة ، ومن المدرس الذى كان يحاول أن يعلمنيها . فما آمنت قط بأن من المستساغ الفخر بفن قتل أى إنسان ! . . ولكى يدخل المدرس علمه الواسع في ذهنى ، اعتاد ألا يشرحه إلا بمقارنات مقتبسة عن الموسيقى ، التى لم يكن يلم بشيء منها ، توجد أوجها لتشابه عجيب بين أبعاد الثلث والربع (١) ، وبين

(١) من مصطلحات أبعاد الخطوات في الموسيقى

المسافات الموسيقية التي تحمل الاسم ذاته . وكان إذا أراد أن يقوم بحركة خادعة ، دعاني إلى أن انتبه إلى DIESE (١) ، لأن النغمات الحادة كانت تسمى قديما OFIENTES (٢) . وإذا أراد أن يطوح بشيئ من يدي . قال ضاحكا إن هذه « وقفة » . . وقصاري القول ، أنني لم أر في حياتي متعلما (٣) لا يطاق ، أكثر من هذا المسكين ، بريشته وصدارته الجلدية . .

ومن ثم غاب تقدمي في تدريباتي كان بسيطا ، حتى أنني لم البث أن هجرتها لجرد كراهيتي لها ، ولكني أحرزت تفوقا في فن أكثر نغما ، هو : القناعة بحفلي ، وعدم الطبع في نصب أشد بريقا ، كنت قد بدأت أشعر أنني لم أخلق له . . وإذا كنت منصرفا بكل نفسي إلى الرغبة في إتاحة حياة سعيدة لمأيا ، ليأني كنت أحس دائما بهزيد من الغبطة في قربها . . ولما كانت دروسي الموسيقية كثيرا ما تضطرنني إلى البعد عنها لأهرع إلى المدينة ، فإنني بدأت - برغم شغفي بالموسيقى - أشعر بخشيق من هذه الدروسى !

ولست أدري ما إذا كان « كلود آنيه » قد لاحظ توفيق علاقتنا ، وعندي ما يحملني على الاعتقاد بأن هذا لم يخف عليه ، لقد كان فتى شديد الذكاء ، ولكنه كان شديد الفطنة ، لا يتحدث

(١) علامة من علامات الموسيقى تربع العلاقة التي تليها بنسب مقام .

(٢) المعنى اللغوي يذوق أو يفرد . . وفي الموسيقى تسم حاد . .

(٣) المتعلم هو الذي يدمى العلم . .

قط بما يناقض تفكيره ، بيد أنه لم يكن يبوح بهذا التفكير دائما . ومع أنه لم يبد أنه بادرة عن علمه بالأمر ، إلا أنه أظهر هذا العلم ، بسلوكه . . وما كان هذا السلوك صادرا عن خسة نفس ، وإنما عن اعتناق لمبادئ سيده ، مما لم يكن يملك معه أن يستعجن تصرفها وفقا لهذه المبادئ . ومع أنه كان أصغر منها سنا ، إلا أنه كان من النضوج والوقار ، بحيث أنه نظر إليها كما لو كنا طفلين جديريين بالإشفاق والتسامح ، بينما رحنا ننظر إليه كرجل محترم ، نكن له تقديرا وبراعة . . وما أدركت مدى العلاقة التي كانت بينه وبينها ، إلا بعد أن خانتها . ولما كانت تعلم أنني لم أكن أفكر إلا بفكرها ، ولا أشعر إلا بشعورها ، ولا أنتفس إلا عن طريقها ، فقد أطلعتني على مدى حبها له ، حتى أكن له نفس المحبة ، وكانت أقل إسهابا في بيان ودها . منها في بيان تقديرها له ، فقد كان هذا هو الشعور الذي أستطيع أن أشاركها إياه كل المشاركة . وكم من مرة هلت بتقليبنا - أنا وهو - وجعلتنا نتعاقق باكبين ، إذ راحت تقول لنا أننا لآزمان معا لإسعاد حياتنا ! . . ألا ليت اللاتي يقرآن هذا لا يبتسمن في خبث ! . . فإن طباع السيدة كانت تجعل هذه الضرورة أمرا لا مربة فيه . . كانت ضرورة نابعة عن فؤادها فحسب !

وهكذا قامت بين « ثلاثنا » زمالة قد لا يكون لها مثيل على الأرض ! . . كانت جميع أمانينا ، وميولنا ، وقلوبنا مشتركة ، وما كان أى منها يتجاوز نطاق هذه الحلقة الصغيرة . وأصبح اعتياد العيش معا ، والحياة في مطبخ من الخبز من النقوة

مكان ما مثلاً اثني عشر أخرق ثقيل الدم ، يقومون ، ويجلسون ،
 ويغدون ، ويروحون ، ويدورون على أعقابهم ، ويحركون التحف
 — التي على رف المدفأة — مائتي مرة ، ويعتصرون أمخاضهم
 ليقبوا على تيار الكلمات دافقا لا ينضب .. ما أهدمها من
 مهمة ! .. مثل هؤلاء — أيا كانوا — يصبح بعضهم عبيدا على
 بعض ، وعلى أنفسهم ! ولقد اعتدت — حين كنت في (مونتيراب) —
 أن أذهب لصنع الأشرطة المجدولة في دور الجيران .. ولو أنني
 عدت إلى ذلك المجتمع « لحملت في جيبى دائما «البيلوكة» (١) ،
 وللعبت بها طوال النهار « لأشغل بها عن الكلام عندما لا يكون
 لدى ما يقال . ولو أن كل امرئ فعل ذلك ، لأصبح الناس
 أقل شرا ، ولأصبحت مجتمعاتهم أسلم ، وأحب : على ما اعتقد ؛
 وقصاري القول ، أن دع الماجنين يضحكون ، ولكني أرى أن
 المذهب الخلقى الوحيد الذي في متناول القرن الحاضر ، هو
 مذهب « البيلوكية » !

وإلى جانب هذا ، لم يكن لدينا وقت كاف للتحوط ضد
 السام عندما نكون معا ، فإن الزائرين المزعجين كانوا يسببون
 لنا من السام ما يجعلنا لا نشعر بشيء منه إذا ما خلا بعضنا
 إلى بعض ! .. ولم يكن الضيق — الذي اعتادوا أن يوحوا إلى

(١) البيلوكة : لعبة تتألف من كرة منقوبة ، تتصل بخيط دقيق ببعضها
 صغيرة مبدية في أحد طرفيها ، وموجعة في الآخر .. ويمسك المرء بالطرف
 المذهب ، وينفوخ الكرة في الهواء محاولا إدخالها في الطرف المصغر .
 شاع أخيرا نوع منها يتألف من كرة وكوب

بحيث أن كل شيء كان يقلب في أنظارنا إذا غاب واحد من
 ثلاثتنا عن المائدة ، أو شاركنا الوجبات رابع ! .. وبالرغم من
 الروابط الخاصة التي كانت بيننا ، فإن الخلوات بين أي اثنين
 منا لم تكن في حلاوة اجتماع ثلاثتنا .. وكان الذي حبال دون
 أي توتر بيننا هو الثقة البالغة المتبادلة ، والذي عمصنا من الملل
 هو أننا كنا جد مشغولين ، إذ كانت « ماها » لا تنفك تبتكر
 المشروعات ولا تكف من العمل ، ولا تسمح لأي منا بأن يركن
 إلى الخمول .. كما كان لدى كل منا من العمل الخاص ما يكفي
 لملء أوقاننا . وفي رأيي أن البطالة ليست أقل من الوحدة إنسانا
 للجماعة ! .. وليس ادعى لتضييق الأفق ، ولا أكثر مدعاة
 للتفاهة ، واللغو ، والأحقاد ، والمنغصات ، والأكاذيب ، من أن
 تمكك جماعة — إلى الأبد — بين جدران غرفة واحدة ، متقابلين ،
 وليس لديهم من عمل سوى الثرثرة باستمرار ! .. فإنه إذا كان
 لدى كل امرئ ما يشغله ، فهو لن يتكلم إلا إذا كان لديه شيء
 يقال . أما إذا لم يكن لديه عمل ، فإنه لا يجد أمامه سوى الكلام
 بلا انقطاع ، وهذا ادعى الأمور للشجر وأخطرها ! .. بل إنني
 لأجرو على أن أذهب إلى أبعد من هذا ، فأقول إنه لابد — لجعل
 أية صحبة ملائمة حقا — من أن يقوم كل امرئ لا بعمل أي كان ،
 فنصب ، وإنما بعمل يتطلب قدرا من الاهتمام . فالحياسة
 مثلا ليست عملا ، ومن ثم فإن مهمة تسلية امرأة تقوم بالحياسة ،
 تتطلب عناء يعادل ما تتطلبه تسلية امرأة تجلس مكتوفة اليدين .
 أما حين تطرأ ، فإن الأمر يختلف ، إذ أن التطرير يشغلها بدرجة
 تكفي لملء فترات الصمت . والمزيج ، المضحك ، هو أن ترى في

به من قبل — قد تضاعف . وكل ما كان هنالك من اختلاف .
هو اننى لم أعد أجد وقتا كافيا لأن أسلم نفسى إليه ! .. ولم
تكن « ماما » المسكينة قد فقدت شيئا من شفعتها القديم
بالمشروعات والخطط ، بل إن الأمر كان على النقيض ، غباردياد
إلحاح حاجاتها المعيشية ، أخذت تزداد إغراقا في المشروعات
لئسد هذه الحاجات .. وبقدر ما قلت مواردها الراهنية ،
ازدادت تدبرا لها في أوهامها بشأن المستقبل . ولم يزد
مرور السنين إلا إغراقا في هذا التوهم ، وبقدر ما كانت تفقد
من ميل إلى ملاذ الدنيا والشباب ، أخذت تموضه بميل إلى
الأسرار والخطط . فلم يكن البيت ليخلو قط من المشعوذين
والصناع ، والكيمائيين ، والمغامرين على اختلاف أنواعهم ،
الذين كانوا يبعثون الثروات بالملايين ، وينتهون إلى أن يصبحوا
بحاجة إلى دينار ! .. ولم يكن أى واحد منهم ليخرج من لدنها
مفر اليدين ، وقد كان من بواشع ذهولى أنها كانت تادرة —
لوقت طويل .. على مثل هذا الإسراف دون أن ترهق مواردها ،
أو تستنفد صبر دائئها !

كان المشروع الذى شغلها اكثر من أى شيء آخر ، فى الوقت الذى اتحدث عنه ، والذي لم يكن أبعد المشروعات التى صاغتها عن المعقول ، هو إنشاء حديقة ملكية للنباتات فى (شامبىرى) ، يعين لها مدير ! وفى وسع المرء أن يفهم مقدما من الذى كان موعودا بهذا المنصب . فإن موقع هذه المدينة وسط جبال (الألب) كان جد مناسب للتجارب النباتية ، ولما كانت « ماما » تحاول دائما أن تساعد كل مشروع بآخر ، فإنها قرنت

هذا المشروع بمشروع كلية الصيدلة ، الأمر الذي بدأ جدم مقيد - حقا - لمنطقة فقيرة في هذا الباب إلى درجة أن الصيدلة كانوا الأطباء الوحيدة فيها تقريبا ! . . وكانت إقامة الطبيب الأول «جروسي» في (شامبيري) ، بعد موت الملك غيبكثور ، تبدو لها ملائمة جدا للفكرة ، أو لعلها هي التي أوحى بها . ومهما يكن الأمر ، فإنها أقبلت على تملق «جروسي» المذكور ، الذي لم يكن بالشخص السهل الراس ، بل كان أكثر من عرفت في حياتي سخيفة وقسوة ، وسيحكم القارئ على ذلك من حادثين أو ثلاثة أذكرها كتماذج !

فلقد كان « جروسي » يتشاور يوما مع أطباء آخرين .
استدعى أحدهم من (انيسى) ليعالج مريضا . وجرؤ هذا
الآخر - الذى لم يكن قد استكمل لياقته كطبيب - على أن
يعارض رأى السيد « الطبيب الأول » جروسي « ، فكان رد
هذا الأخير عليه « أن ساله عن موعد عودته من حيث أمى ،
وعن الطريق التى اعتزم أن يسلكها ، والمركبة التى سوف
يستقلها ؛ وإذا اجاب الآخر عن كل هذه الأسئلة ، سال
« مستجوبه » بدوره عما إذا كان يستطيع أن يؤدى له أية
خدمة ، فقال جروسي : « لا ، لا خدمة هناك .. وإنما أريد
أن اتف فى نافذة على طريقك ، لالتمتع برؤية حمار يركب
حوادا ! »

وكان « جروسي » بخيلا بقدر ما كان غنيا وصعب
المراس . ولقد اراده احد اصدقائه يوما على أن يقرضه نقودا ،
بضمانات طيبة ، فقال له وهو يبتسم : « لن أقدم لك

آنيابه : « يا صديقي .. إذا هبط القديس بطرس من السماء ليقترض مني عشر « بيستولات » (١) ، وقدم لي المهد المقدس ضامنا ، لما أقرضته ! .. وفي ذات يوم ، دعى للغداء لدى السيد الكونت ليكون « حاكما ! سافوا) - الذي كان شديد التدين - فوصل قبل الموعد ، وكان صاحب السعادة منصرفا إلى تسبيحاته ، فعرض عليه أن يتلى بالتسبيح . وإذا لم يدر الطبيب بماذا يجيب ، ابتسم ابتسامة رهيبية . وركع ، ولكنه لم يكذب بلو اثنتين من التسبيحات الملائكية ، حتى عجز عن الاحتمال ، فغطى على حين غرة ، وتناول عصاه ، وانصرف بدون أن يتبين بعثت شفة ! فخرج الكونت بكون خلفه ، وهو يصيح به : « يا سيد جروسي ! يا سيد جروسي ! امكث ! فإني على السفود حرجلا بديما » (٢) . فالتفت إليه الآخر مجيبا : « يا سيدي الكونت ، لو أنك وهبتي ملاكا مشويا لما بقيت ! » .. هذا هو السيد الطبيب الأول جروسي ، الذي تولته « ماما »

وانتهت إلى ترويضه . ومع أنه كان جم الماشاغل إلى أقصى حد ، فقد اعتاد أن يتردد كثيرا جدا على دارها ، وقد اصطلح « آنيه » غائره بوجه ، مبدئا تقديره لعلمه ، متحدثا عنه باحترام . والأمر الذي ما كان ليقترعه أحد من ديد شرسي كهذا ، إنه راح يعامل الوصيف باعتبار كبير ، ليمحو آثاره الماضية !

(١) عملة ذهبية قديمة كانت تسحقها تقريبا بنصف العمر والسد الذي

بصكها .

(٢) السفود : المشواة . والحجل : نوع من الطيور .

ذلك لأنه وإن كان « آنيه » لم يعد في مرتبة الخدم . إلا أنه كان من المعروف أنه كان من قبل خادما ، ولم يكن يعوزه شيء قدر مسلك الطبيب الأول : واحترامه ، كما يعامله الناس بأسلوب ما كانوا ليأخذوه قط عن شخص آخر سوى جروسي ! .. وكان « كلود آنيه » بيزته السوداء ، وشعره المستعار الجيد التنسيق ، ومظهره الجاد الوقور ، ومسلكه الرصين الحذر ، والمهمة الواسع يعلم النبات والطب ، وتأييد رئيس الكلية له ، خليقا بأن يجعله يامل - يحق - في أن يشغل منصب مدير حديقة النباتات الملكية . لو قدر للمشروع أن يتحقق : والواقع أن جروسي حبذ المشروع ، واحتضنه . ولم يعد ينتظر لعرضه على البلاط الملكي ، سوى اللحظة التي يسمح فيها استقرار السلم بالتفكير في الأشياء المفيدة ، وتوغير بعض المال من أجلها .

ولكن هذا المشروع - الذي كان من المحتمل أن يصرفني تحقيقه إلى الفراغ لعلم النبات ، إذ كان يذيل إلى أنني خلقت له - أخفق بسبب حادث من هذه الحوادث التي تقلب خير الخلط المتناسقة . وكان مقدرا على أن أصبح تدريجا مثالا للإنسان البائس . ومن الممكن القول إن العناية الالهية - التي كانت تبليغي بذك الاختبارات الضخمة - كانت تزيج بيدها كل ما كان يمنعني من خوض تلك المحن . ففي إحدى الجولات التي كان « آنيه » يقوم بها إلى أعالي الجبال للبحث عن « الجنة » - وهي نبات نادر لم يكن ينمو - تم عليّ في تلك المرة

السيد جروسي بحاجة إليه - تم عليّ في تلك المرة

أدت إلى إصابته بتوبة من داء الجنب [التهاب غشاء «البثور» .
لم تقو « الجنبة » على إنقاذه منها ، ورغم ما كان يقا من آتت
علاج لهذا الداء بالذات . وبالرغم من كل مهارة جروسي ، الذي
كان نطاسيا حاذقا حقا ، وبالرغم من العناية التي لا حد لها
والتي بذلتها - سيدته الطيبة وأنا - له ، فإنه مات بين
أيدينا ، في اليوم الخامس ، بعد أن عانى آلاما مقلعة في الفزع
الآخر . لم يجد خلالها سلوى سوى دعواتي التي رعت إليها
في أسى وحماس بالفين ، والتي كانت خليفة بن شردى عنه لو
أنه فهمها ! .. وهكذا فقدت أوفى حديق حظيت به في حياتي
.. رجلا جديرا بالتقدير ، نادرا : تولت الطبيعة تربيته
وتعليمه ، وكان - وهو في منسيه كخادم - يغذي قلبه بكل
فضائل العظماء ، ولعله لم يكن بحساسة - لكن بشعر الدنيا
بأسرها على أنه من هؤلاء - إلا لعمر أطول . وعمره أفضل !

وفي اليوم التالي ، كنت أتحدث عنه إلى « ماما » شمس
وأصدق الأسي ، عندما خطرت لي فجأة - وسط الكلام - أدت
وأخبرت فكرة : تلك هي أنني خلق بأن ارث ثيابه ، ولا سيما
بزة سوداء أنيقة كانت تستوييني ! .. فكرت في هذا ، فإذا
بني أفصح عنه ، إذ أن التفكير والقول كانا مترادفين عندي حين
أكون بالقرب من « ماما » . ولم يجعلها شيء أكثر شعورا
بالخسارة التي منيت بها ، تدر هذه الكلمة المتهورة البقيضة ،
فقد كان إنكار الذات ونيل النفس خصلتين امتاز بهما الراحل .
وأشاحت عني المرأة المسكينة - دون أن تجيب بكلمة -
وانخرطت في البكاء .. وما كان أعز دموعها وأغلاها ! لقد



وأشاحت عني المرأة المسكينة - دون أن تجيب بكلمة - وانخرطت في البكاء ..

انصحت هذه الدموع عن معانيها ، وانسابت إلى فؤادي ،
ففسلت عنه آخر آثار الأحاسيس الخسيسة ، غير الكريمة .
فلم تدخله هذه الأحاسيس بعد ذلك !

ولقد أضرت هذه الخسارة بهما ، بقدر ما أضرتهما . فلم
تكف شغورتهما عن الانهيار منذ تلك اللحظة . إذ كان « آنيه »
لغى دقيقا ، مغلما ، عنى بتخليص دار سيده . وكانت بقطعه
بهابة من الخدم ، فإذا الإسراف يقضاه . . حتى « ماما »
نفسها كانت تخشى لومه ، وتحد من نفقاتها . ولم تكن تكفى
بحبه ، بل كانت ترفف في الاحتفاظ بتقديره . وكانت تخشى
للوم العادل الذى كان يجرؤ أحيانا على إبائه ، إذ كانت تسخر
بمال غيرها لا بمالها نحسب ! . . ولقد كنت أرى رأيه في هذا .
بل وأعريت عنه فعلا ، ولكنى لم أوت ما كان له من نفوذ عليها ،
فلم يكن لأقوالى ما كان لأقواله من تأثير لديها . ولما لم يعد له
وجود ، اضطرت إلى أن اتخذ مكانه ، وهو ما كنت قليل
المقدرة عليه والميل إليه ، فلم أحسن ملء المركز ، إذ أننى كنت
قليل العناية ، شديد الخجل ، فتركت كل شيء . . . على
هواه ، وأنا أنحو على تنسى باللائمة « وبجانب هذا - فإني لم
أحظ بسلطانها ، وإن حظيت بنفس الثقة التى كان ينعم بها .
وكنيت أرى الفوضى فأتحسر عليها ، وأشكو منها . ولكن أحدا
لم يكن يصفى إلى . فقد كنت أصغر سنا وأكثر مرحا من أن
أبدو عاقلا حكيمًا . وعندما كنت أسعى للتدخل والرقابة .
كانت « ماما » تقابلنى بصغعات بسيطة مدللة . وتدعونى
بمرسدها الصغير ، وتضطررنى إلى أن أعود للدور الذى كان
يلائمنى !

وكان الاقتناع العميق بالضائقة التى كان يسببها المطلق
كفيلًا بأن يغرقها فيها - أن عاجلا أو آجلا - قد ترك أثرا في
نفسى . . وقد اشتد هذا الأثر كثيرا حين أصبحت - كمشرف
على شؤون الدار - قادرا على أن أتبين بنفسى الفسارق بين
دخلها ونفقاتها ، فقد كانت كفة الأخيرة أرجح ! - وإلى هذه
الفترة أرجع تاريخ الميل الذى استشرعته منذ ذلك الحين إلى
التقتير - وأنا لم أكن قط مسرفا في نرق ، إلا في ثوبات عابرة .
ولكنى حتى ذلك الحين لم أكن قد حملت هم ما إذا كانت ثمة
نقود كثيرة أو قليلة . . فبدأت أهتم بهذا ، وأعنى بكيس
نقودى . . وهكذا تحولت إلى البخل ، نتيجة باعث رائع جدا .
ذلك أن همى الواحد انحصر - في الحقيقة - في : كيف أقتصد
لما شيئا يقبها محنة الانهيار الذى كنت أراه مقبلا ! . . وكنت
أخشى أن يحجز دائئوها على معاشها ، أو أن يقطع هذا
المعاش نهائيا ، فخيل إلى - لضيق عقلى - أن مدخراتى
الضئيلة ستكون ، إذ ذاك ، مغليمة النفع لها ! على أنه لادخار
شيء ما ، ولحفظه - قبل كل شيء - كان لا بد من مكان لأخذه
فيه عنها ، إذ لم يكن من المجدى لهذه الخطة أن تعرف « ماما »
شيئا عن وجود مدخراتى القليلة ، عندما تكون في أشد الحاجة
إلى المال ! . . ومن ثم رحت أبحث عن عدة مخايب أودعها
بضع قطع من غثة « اللوى » ، معتزما أن أضاعف الرصيد بين
وقت آخر ، إلى أن تحين اللحظة التى كنت أعزء أن أطرحه
فيها عند قدميها ! ولكنى كنت من الارتباك في اختيار مخايب
بحيث أن « ماما » كانت دائما تهر - غفلة عن ذلك ، كانت

فضة (بيرو) (١) بأسرها ! .. ولما كنت قد بدأت إذ ذاك اقرا « الفتوة » باتقان كبير فإن المسألة أصبحت متعقدة في : كيف أستطيع أن اتعلم التحين ؟ .. وكانت الصعوبة هي أن اعثر على من يعلمني ، لأنني لم أكن أمل أن أتمكن من أن أعلم نفسي بمساعدة كتاب « رامو » - الذي كنت اعترض به - فحسب .. ولم يكن في (سافوا) - منذ رحيل لوميتير - امرؤ على دراية بأى شيء عن تفاسيق النغم !

وهنا يتراءى مظهر آخر من مظاهر الفناقض التي تحفل بها حياتي ، والتي كثيرا ما ألقت بي إلى أن أحيى عن غاييتي ، حتى وأنا أظن أنني أسير إليها مسادا : فإن « غينثور » كان قد تحدث إلى كثيرا عن الراهب « بلانشار » ، استأذه في التحين .. وكان رجلا قديرا ، عظيم الموهبة ، كان إذ ذاك أستاذا للموسيقى في كاتدرائية (بيزانسون) ، وهو يشغل اليوم عين المنصب في كنيسة (فرساي) . وقلت لنفسى إننى خلقى بالذهاب إلى (بيزانسون) لألتقى دراسية على الأب بلانشار ، وقد بدت لى هذه الفكرة معقولة ، حتى أنني سمعت إلى أن أحمل « ماما » على أن تراها كذلك . فإذا بها تعمل على إعداد مقامى البسيط ، و قد فعلت ذلك بالإسراف الذي كانت تلجأ إليه في كل شيء . وهكذا .. بينما كنت أهدف دائما إلى تفادى إغلاصها ، وإلى أن أصلى في المستقبل فتسائح إسرافيا :

(١) بيرو (إحدى جمهوريات أمريكا الجنوبية) ، وقد اشتهرت بأنها غنية

بمناجم الفضة وبعض المعادن الأخرى .

تشعرنى بذلك ، بأن تأخذ النقود التي أودعتها ، ونضع بدلا منها مبلغا أكبر ، من عملات أخرى مخالفة ! .. وكنت أشعر من ذلك بخجل بالغ ، فاضع كنزى الصغير في صندوق التفقات العامة ، (فإنها لم تكن ثقيل قطاعن أن تنفقه على ثياب أو أشياء أخرى لى ، كسيف ذى مقبض فضى ، أو ساعة ، أو أى شيء من هذا القبيل) !

وإذ ايقنت من أنني لن أفلح في الادخار ، وأن ما ادخره لن يكون - بعد ذلك - ذا نفع يذكر لها ، شعرت أخيرا بأنه لم يعد ثمة ما يعمل إزاء النكبة التي كنت أخشاها ، اللهم إلا أن أحصل على منصب يمكننى من أن أعولها بنفسى ، بمجرد أن تكف عن إهدادى بالمال ، وبمجرد أن تجد نفسها في هامة ! .. ووضعت خططى على أساس ميولى الخاصة - لسوء الحظ - فاصررت في غباء على أن أؤشد نجاحا في الموسيقى ، إذ أحسست بأنغام والحن تنصاعد في رأسى ، فظننت أنني مستطيع - بمجرد أن أصبح في مركز يمكننى من استغلالها - أن أغدو شهرا ، وأن أصبح « أورفيه » (١) حديثا ، لا تخفق أنغامه في اجتذاب

(١) « أورفيه » هو « أورفيوس » ، الشاعر والموسيقى الإغريق الذي ورد ذكره في الأساطير على أنه ابن « أبولو » ، ويعزى إليه أنه أبتظ الربة « هاديس » من الموت بموسيقاه العذبة وأغانيه الساحرة . وقد استجابته له الآلهة على شريطة أن يسير أمام « هاديس » دون أن يلتفت خلفه لينتظر إليها . ولكنه لم يستطع أن يحافظ على وعده ، فعادت إلى موتها . وقد نسبت إليه عقيدة دينية تصوفية ، من أهم معالمها الإيمان بحياة جديدة بعد الموت .

إذا بى أبداً - في نفس اللحظة - بنكبيدها ثمانمائة غرثك ! ..
فعلجت بخرابها لكى أحيى نفسى لعلاج حالها ! ومهما تكن
الصقاة التى انطوى عليها هذا التصرف ، فإن الوهم كان يأكله
راجعا إلى ، وإليها هى الأخرى . فقد اتفق كل منا الآخر -
فكنت من ناحيتى مقتنعا بأننى أقوم بعمل نافع من أجلها -
وكانت هى مفتنعة بأننى أقوم بعمل نافع من أجل نفسى !

وكنت أعول على أننى سأجد قيتور باقيا في (أنيسى) ..
فأحصل منه على خطاب إلى الأب « بلانشار » . ولكنه لم يكن
هناك ، وكان على أن أضع - من الدراسة كلها - بقدراس من
أربعة أجزاء ، من طحيته ، كان قد تركه لى - وبهذه الشفاعة
ذهبت إلى (بيزانسون) ، مارا بجنيف - حيث زرت أهلى -
وبـ (نيون) ، حيث زرت أبى الذى طقانى كالمقاد - وتكفل بأن
يرسل فى أثرى حقيقتى ، لكنها لم تصل إلا بعدى . لأننى كنت
مسافرا على جواد .. ووصلت إلى (بيزانسون) ، فأحسن
الأب بلانشار استقبالي ، ووعدنى بأن يزودنى بدروسه . وقدم
إلى خدماته . وفيما نحن على أهبة البدء - إذا بى أعلم من أبى
بأن حقيقتى قد ضبطلت وصودرت في (روس) ، وهى نقطة
للجمارك الفرنسية على الحدود السويسرية . وفى غمرة انزعاجى
لهذا النبا ، انتفعت بالأصدقاء الذين اكتسبتهم في (بيزانسون) ،
لمعرفة السبب الدامى لهذه المصادرة ، إذ لم أتصور أى مبرر
لها ، بحكم اطمئنانى إلى أننى لم أكن أمتلك شيئا من المهربات .
وأخيرا عرفت السبب ، ولا بد لى من ذكره لأنه أمر عجيب !

ذلك أننى كنت قد التقيت في (شامبير) بكيل من (ليون)
يدعى « ديفيتيه » . كان قد عمل في إدارة الجوازات ، في عهد
الوصاية ، وقد وفد ليعمل في المساحة ، لحاجته إلى عمل .
وكان قد عاش في المجتمعات الراقية ، وأوتى مواهب وقدر من
المعرفة ، واللفظ ، والأدب ، كما كان ملها بالموسيقى . ولما
كنت أعمل في حجرة واحدة معه ، فإن كلا منا مال إلى إظهار
الأخر ، وسط الذببة المسعورة التى كانت تحيط بنا .. وكان
له مراسلون في باريس ، يوافونه بتلك التفاهات الرخيصة
وتلك المطبوعات اليومية التى تنتشر دون أن يدري أحد كيف
تنتشر ، وتموت دون أن يدري أحد كيف تموت ، ثم لا يعود
أحد إلى التفكير فيها بعد أن تغيب عن الذكر . ولما كنت اصطحبه
سمى أحيانا لتناول الغداء لدى لما ، فإتته كان يعاملنى بقدر
كبير من الاحترام . ولكى يجعل نفسه حلو المعشر ، كان يحاول
أن يحلنى على أن أحب هذه الصحف الثقافية التى كنت أنفر
منها دائما إلى درجة أننى لم أقرأ من تلقاء نفسى شيئا منها في
حياتى . ولسوء حظى أن إحدى هذه الورقات اللعينة ، ظلت
في جيب صدر إحدى السترات الجديدة التى لم أكن قد ارتديتها
سوى مرتين أو ثلاثا لكى لا يتعرض لها رجال الجمارك . وكانت
تلك الورقة تضم تحريفا « يانسينيا » (١) غشا لمشهد جويل

(١) اليانسينية مذهب دينى ابتدعه قس هولندى يدعى « كورنيليوس
يانسين » في القرن السابع عشر ، ونادى فيه بأن تعاليم للتدين أو فسمعين
بشأن الفقراء وحرية الإرادة وأنهم تتعارض مع آراء رجال الدين المعادين .

لمسرحية راسين « ميثريدات » . . ولم أكن قد قرأت من هذا التحريف سوى عشرة أبيات شعرية ، ثم تركتها ، ونسيتها في جيبى . وكان هذا ما أدى إلى مصادرة امتعتى ، فإن رجال الجمارك الذين أشرفوا على تفتيش حقيقتى بنوا على هذه الوريقة قضية كبيرة ، زاعمين أنها اجتلبت من جنيف لتطبع وتوزع في فرنسا « وشنوا حملة من الطعن والقندح المبنيين على التقوى ، ضد « أعداء الله والكنيسة » . ومن المدح والثناء على أولئك الذين استطاعوا بيقظتهم وتقواهم أن يحولوا دون تنفيذ هذا المشروع الجهنمى ! . . ولا بد أنهم وجدوا أن أقمصتى كانت هى الأخرى تنفخ بالزندقة ، إذ أنهم - استنادا إلى هذه الوريقة الرهيبة - صادروا كل شيء ، فلم اطلق أبدا أى نيا أو بيان من حقيقتى البائسة ! ولقد طلب الموظفون الذين كتبتم إليهم أوسطهم في الأمر ، معلومات وبيانات ، وشهادات ، ومذكرات ، بلغ من كثرتها أنني بعد أن نخبط ألف مرة في هذا التيه - اضطررت إلى التخلص من كل شيء ! وإني لنادم حقا على عدم الاحتفاظ بالدعوى التى وضعها موظفو (روسو) . فقد كانت خلية بأن تبرز وأن تكون موضع امتياز بين الوثائق التى ستصحب هذا المؤلف .

==

لائحة الجيزويت (اليسوعيين) . وقد أشهد الصراع بين أتباع « يانسين » والجيزويت في فرنسا ، ومن هذا أدرك الأهمية التى أضاعها موظفو الجيزرك على القصيدة التى وجدت لدى « روسو » .

وجعلتني هذه الخسارة أبادر بالعودة إلى « شامبيرى » دون أن أكون قد أبرمت شيئا مع الأب « بلانشار » . وبعد أن وزنت كل الأمور ، وتبينت أن التحس يلاحقني في كل مشروعاتي ، عرفت العزم على أن أنصرف بكل جوارحي إلى « ما » وحدها . وأن أشاركها حظهما ، وألا أعود إلى الاهتمام غير المجدى بمستقبل لم أكن أملك إزاده شيئا . وقد تلقتني « ما » وكأنني جلبت إليها كنوزا ، وزودت صوان ملابسى الصغير شيئا فشيئا ، وسرعان ما تنوسى تقريبا سوء طالعى ، الذى كان نادحا سواء لى أو لها !

ومع أن هذا النحس قد هدا من حدة مشروعاتي الموسيقية ، إلا أنني لم ادخل قط من أن ادرس كتاب « رامو » باستمرار . وانتهيت بفضل الجهد الشاق إلى أن أستوعبه ، وإلى أن أقوم ببضع محاولات صغيرة في التلحين ، شعجنى نجاحها . وكان الكونت « دى بيلجارد » - ابن مركز دانترمون - قد عاد من (درسدن) بعد موت الملك « اوجيست » . وكان قد أقام ربعا طويلا في باريس ، وأحبب الموسيقى حبا جما ، وشغف بمؤلفات « رامو » بوجه خاص . وكان أخوه الكونت ادى ناتجى يعزف على الكمان ، والسيدة الكونتة ديلاثور - شقيقتهما - تجيد الفناء بعض الشيء . فادى كل هذا إلى أن أمسبحت الموسيقى هى الهواية الشائعة في « شامبيرى » ، وأنشئ نوع من الفرق الموسيقية العامة . وقد أرادوا في بادئ الأمر منحي إدارة هذه الفرقة ، ولكن سرعان ما تجلى أنها فوق طاقتي ، فاتخذت تدبيرات أخرى . ولم أكن أعني بتدبير قطع صغيرة من تلحيني ، بينما أغنية أصلت بشاء كثيرا . ولم تكن

هذه الأغنية قطعة بديعة الطحين ، ولكنها كانت مليئة بالوان جديدة من الغناء ، وبمؤثرات ما كان أحد يرتقبها متى . ولم يستطع هؤلاء السادة أن يصدقوا أنني — وقد كنت أسى قراءة المقطوعات الموسيقية — كنت في وضع يمكنني من تأليف الحان مقبولة ، فلم يرتابوا قط في أنني انتحلت لنفسى خسر عمل سوى ! .. ولكن يتحروا الأمر أقبل السيد دي نانجي ذات صباح ليبحث عني . وبعده إحدى أغاني « كلياميو » . وقد عدل فيها — كما قال لي — لكي تلائم صوته . غير أنه كان من الضروري وضع أنغام أخرى للترنيم الثاني ، إذ أن التمديل جعل من غير الممكن عزف الانغام التي وضعها كلياميو على الكمان الكبيرة . واجبته بأن هذا عمل ضخم . لا يمكن أدائه في التو ، فظن أنني أبحت عن مهرب ، والحق على في أن اضع له — على الأقل — أنغام ترنيم القائي ففعلت . وقد أسأت في ذلك بلا شك ، لأنه لا بد لي ، لكي أجيد أداء أي امر . أن أكون على سجيقي وحريتي . بيد أنني وضعت ما طلب مني وفقا للقواعد على الأقل ، ولما كان السيد حاضرا . فإنه لم يستطع أن يرتاب في أنني لم بأصول التلحين . ومن ثم غلنني لم أفقد تلاميذي ، ولكنني أزدت فتورا — بعض الشيء — نحو الموسيقى ، إذ رأيت القوم قد ألفوا عرقه موسيقية وأهلوني في تأليفها !

وحوالى ذلك الوقت ، عقد الصلح وساد السلام . وعبر الجيش الفرنسي الجبال عسائدا إلى بلاده . وجاء عدد من

الضباط لزيارة « ماما » . كان يفهم السيد الكونت « لوتريك » — تائد كتيبة (أورليان) ، والمتدوب المفوض في جنيف بعد ذلك ، ثم مارشال فرنسا () في النهاية — فقدمني « ماما » إليه ، وإذا سمعنا نتحدث عني ، أبدى اهتماما كبيرا بي . ووعدني بأمر كثيرة ، لم يتذكرها البتة إلا في العام الأخير من حياته ، عندما لم أكن بحاجة إليه ! .. كما مر بشاهيرى — في الوقت ذاته — مركز دي سنيكتير الشاب ، الذي كان أبوه إذ ذاك سغرا لدى (تورين) ، فتناول البغداء في دار السيدة « دي مانتون » ، وكنت أنا الآخر اتفدى هناك في ذلك اليوم . وبعد البغداء أثار المركز ذكر الموسيقى ، وكان واسع الدراية بها . وكانت أوبرا « جيفته » JEPHTE حديثة العهد إذ ذاك ، فتكلم عنها « وجيء إليه بها ، فإذا به يجعلني ارتجف ، إذ اقترح أن يؤديها معا . . وما أن فتح الكتاب ، حتى وقع بصره على هذه المقطوعة الشهيرة : التي يؤديها غريقان من المتشددين (الكورس) :

« إن الأرض ، والمجيم ، بل والسماء

ذاتها لترتجف جميعا أمام الرب »

وسألني : « كم دورا تريد أن تؤدي ؟ » .. فاجبت : « سأخذ لنفسى هذه الأدوار الستة » . . ولم أكن قد اعتدت بعد هذه الغزوة الفرنسية ، وإذا كنت قد أدبت الأدوار — مرتبكا في بعض الأحيان — إلا أنني لم أدر إطلاقا كيف يملك رجل واحد أن يؤدي ستة أدوار — بل دروبين — في وقت واحد ! وما كنت شئ من المشقة ، في ممارسة المواليد ، لكنني لم أكن قد بساطه

من دور إلى آخر ، موجهها عيني إلى فصل بأكمله في آن واحد . ولا بد أن السيد دى سنيتكر انسلق - من جراء الطريقة التي أدبت بها هذا المشروع - إلى الظن بأنني لم أكن على معرفة بالموسيقى . ولعله أراد أن يتحرى صحة ارتيابه ، فاقترح على أن أكتب «نوتة» أغنية كان يريد أن يقدمها إلى الأنسة « دى مانقون » ، فلم أملك أن أرفض . . وراح يترنم بالأغنية وأنا أكتب ، دون أن أسأله أن يكثر من التكرار . ثم تراها بعد ذلك ، فوجدتها - كما كانت حقيقة - صحيحة التسجيل . وكان قد لاحظ ارتياكى ، فطلب له أن يطلب في امتداح توفيقى البسيط . والواقع أنني كنت على معرفة طيبة جدا بالموسيقى ، ولم يكن ينقصنى سوى سرعة الاستيعاب ، من أول نظرة للقيها ، وهو الأمر الذى لم أملكه ، والذي لا سبيل إلى اكتسابه في الموسيقى إلا بالمران الدائب . . ومهما يكن الأمر ، فإنني تقبلت العناية الأمينة التي بذلها ليحيو من أذهان الآخرين ، ومن ذهني ، الحياء الذى عانيتها . ولقد وجدتهى منساقا - عدة مرات بعد ذلك - إلى أن أذكره بهذه القصة ، عندما كنت الفتى به في مدة دور بباريس ، بعد اثني عشر أو خمسة عشر عاما . لأريه أنني كنت احتفظ بالذكرى . ولكنه كان قد فقد بصره منذ ذلك الحين ، فخشيت أن أجدد شجونه إذ أذكره بالنفع الذى كان يجنيه من هذا البصر فيما مضى ، وأمست لسانى ! .

وأصل الآن إلى اللحظة التي بدأت تربط وجودى الماضى بوجودى الراهن ، فإن بعض الصداقات التي امتدت منذ ذلك

الوقت حتى وقتنا الحاضر ، أصبحت جد غالية لى . وانها لتحلنى كثيرا على أن اتحصر على ما كنت أسعد به من خمول الذكر ، حين كان أولئك الذين يعلنون انهم أصدقائى ، أصدقاء بالفعل ، يحبوننى لذاتى ، بنية طيبة ، لا عن زهو بأن يكونوا مرتبطين برجل نابه الذكر ، أو عن رغبة خفية في أن يجدوا مزيدا من الفرص للإساءة إليه . . . وإلى هذه الفترة أرجع معرفتى الأولى بصديقى القديم «جوفكور» الذى ظل دائما صديقا لى ، ورغم جهود الآخرين لإبعاده عني . . ظل دائما ! . . لا ، مع الأسف ! . . فلقد قدر لى أن أخسره . ولكنه لم يكف عن حبي إلا حين كف عن الحياة ، ولم تنف صداقتنا إلا بانتهاء عمره . ولقد كان السيد « دى جوفكور » من أرق وأحب الرجال الذين وجدوا على ظهر البسيطة ، وما كان من الممكن لأحد أن يراه دون أن يحبه ، ولا أن يعيش معه بدون أن يتعلق به في ولاء . . أبدا لم أر في حياتى ملامح أكثر صراحة أو رقة . . ولا وجهها أكثر وقارا ، أو أكثر إظهارا للحس المرهف والذكاء ، أو أكثر إحياء بالثقة ! . . ومهما يكن تحفظ المرء ، فقد كان من المستحيل عليه أن يتمالك نفسه - منذ أول نظرة - من أن يصبح على الفة معه ، وكأنه عرفه منذ عشرين عاما . . حتى أنا - الذى كان يجد مشقة في أن يكون على سجيته مع الأغراب - اطمانت إليه منذ اللحظة الأولى . كان سلوكه ، ولهجه ، وأقواله ، تتمشى مجتمعة مع ملامحه . وكان رنين صوته جليا ، مليئا ، واضح الجرس . كان صوتا غنيا ، جهوريا ، قويا ، لا يذبل ويبتر في الفؤاد . وما كان في الوسم أن يتجذب أكثر اعتدالا ،

وأكثر لطفاً من مرجه . . . ولا كياسة أصدق وأبسط من سذاجته .
ولا مواهب أكثر تأصلاً ونهواً وأرهافاً من مواهبه . . . أضف إلى
هذا قلباً ودوداً ، مسرعاً بعض الشيء في حبه للناس جميعاً .
وشخصية فعالة للخير دون ترو . . . وكان ميلاً لخدمة الأصدقاء
في حمية . أو لعله كان يسعى لاكتساب صداقة أولئك الذين
يستطيع أن يخدمهم ، وهو يدرك أنه إنما يغدو أحقق أداء
لشئونه التزيمية ، عندما يخدم بحرارة شؤون الغير !

وكان «جوفكور» ابن ساعاتي بسيط، وكان - هو الآخر -
ساعاتياً . ولكن شكله وكفائه قاداه إلى جو آخر لم يفلأ في أن
ينفذ إليه . فقد تعرف إلى السيد ديلاكوسير - مندوب فرنسا
المقيم في جنيف - الذي أولاد وده - فأحرز له صلات تعارف
أخرى في باريس ، أجدت عليه تفهماً - واستطاع بتفوذ أصحابها
أن يظفر بحق إمداد (غاليه) بالملح ، مما عاد عليه بدخل قدره
عشرين ألف لييرة . وقد انثوت به ثروته - وهي جد كافية -
إلى هذا الحد في علاقته بالرجال . أما من ناحية للنساء : فقد
كان يجد عناء . كان عليه أن يختار - وأن يفعل ما يشاء . وكان
من أندر وأشرف ما أمتاز به أنه في علاقاته بالأشخاص - من
كافة الرتب والدرجات - كان محبوباً من الجميع . مرجواً من
الناس طراً ، دون أن يتعرض لحسد أو بقضاء أي شخص .
وإنني لأعتقد بأنه مات دون أن يرى في حياته عدواً واحداً . . .
كم كان سعيداً ! . . . وكان يذهب في كل عام إلى حبابات (ايكس) ،
حيث يجتمع خيرة الناس من البلدان المجاورة . وإذا كان على
ود مع عليّة القوم في (سافوا) ، فقد جاء من (ايكس) إلى

(شامبيري) لزيارة الكونت «دي بيلجارد» وأبيه المربي
دانترمون . . . وفي دارهما غرفته «لما» وعرفتني به . وقد
تجددت هذه المعرفة - التي لم يبد إذ ذاك أن من المقدر لها أن
تنتهي إلى شيء ، والتي انقطعت عدة سنوات ، بعد ذلك - في
مناسبة ساروبيا ، وأصبحت وداً وثيقاً صادقاً . وهذا كاف
لأن يبرر حديثي عن صديقي كنت وثنى الارتباط به . وحتى إذا
لم يكن ثمة مصلحة شخصية في تذكره ، فإنه كان رجلاً جليلاً ،
ولد سعيداً ، حتى أنني أعتقد دائماً أن ذكره جديرة بأن تبقى ،
لتكون فخراً للجنس البشري . ومن المحقق أنه كانت لهيذا
الرجل الساحر أخطاؤه ، كغيره من البشر . وكما يستجلى فيها
بعد . ولكن ، لعله كان يغدو أقل استثارة بالمحبة إذا لم تكن له
أخطاء . فقد كان من الضروري - لجعله جديراً بالاهتمام إلى
أقصى ما كان ممكناً - أن يوجد في مسلكه ما يستحق الصفع
والفوران !

وهناك علاقة أخرى تمت إلى ذلك العهد ، ولم تفر بعد ،
بل إنها لا تزال توغز إلى الأمل في الهناء الدنيوي ، الذي يتعذر
موته في قلب الإنسان . فلقد شغف السيد «دي كوززييه»
- وهو سيد من أبناء (سافوا) ، كان إذ ذاك شاباً لطيفاً - بتعلم
الموسيقى ، أو - بالأحرى - بالتعرف إلى ذلك الذي يتولى
تدريسها . ولقد أوتي السيد «دي كوززييه» ذكاء وميلاً إلى
الصداقات الجبيلة ، وكان يقرن هذا بلطف الخلق ، مما جعله
لين الجانب إلى حد كبير ، ممثلاً كنت لنا - إلى حد كبير
كذلك - بالنسبة لمن أجدهم على هذه المسلكة . وسرعان

ما توثقت صلتنا^(١) ، فإن بذور الأدب والفلسفة التى كانت قد بدأت تفتح في راسي ، والتى لم تكن ترتقب سوى شيء من الرعاية والتشجيع لتتزعزع لتوها وجدت هذه الرعاية والتشجيع لدى السيد « دى كوفزيبه » ، إذ كان على قدر من الميل إلى الموسيقى « فكان في هذا خير كبير لى ، لأن ساعات الدرس راحت تنقضى في كافة الأشياء عدا التدريب على الألحان . وكنا نتناول الطور معا ، ونتجاذب الحديث ، ونقرأ بعض المطبوعات الحديثة ، ولا نفوه بكلمة واحدة في الموسيقى . وكانت الرسائل المتبادلة بين « فولتير » وولى عهد بروسيا قد أحدثت خجة في ذلك الحين ، فكنا كثيرا ما نتكلم عن هذين الرجلين المشهورين ، اللذين ارتقى أحدهما العرش بعد ذلك بقليل ، في حين كان الآخر موضع تشهير - بقدر ما هو الآن موضع تهجد - مما كان يجعلنا نرثى في إخلاص لسوء الطالع الذى بدا أنه كان يلاحقه ، والذي كثيرا ما يكون نصيب ذوى المواهب العظيمة . وكان الأمير البروسى قد حظى بمسقط من السعادة في شبابه . أما فولتير فكان يلوح وكأنه خلق لكى لا يسعد البتة . وكان الاهتمام الذى تولانا نحو كل منهما قد امتد إلى كل ما كان يتعلق به ، فلم يكن

(١) قد مر لى أن أراه بعد ذلك ، وأن أجده قد تغير تغيرا شاملا . فيالسيد شوازيل من ساحر تدبير ! .. فما قدر لأحد من معارفى اللدائى أن ينجو من مقدرنه على التبديل !

هذه الإضافة وجدت في الأصول الأولى المكتوبة بخط روسو ، ولكن لا أثر لها في طبعة « جنيف » .

يفوتنا شيء مما كتبه « فولتير » ، وقد ألهمنى المتعة التى حظيت بها من هذه المطالعات ، بالرغبة في أن أتعلم الكتابة البليغة ، وأن أحاول أن أقلد ما لهذا المؤلف من أسلوب بديع ، كنت مفتونا به . ولقد ظهر بعد ذلك بقليل كتابه « الرسائل الفلسفية » ، ومع أنه لم يكن أفضل مؤلفاته ، إلا أنه كان أعظم ما اجتذبنى إلى الدرس ، ومنذ ولد في هذا الميل ، لم يقدر له أن يخبو أو يفتر !

على أن الوقت لم يكن قد حان بعد كى أتفرغ للأدب تفرغا تاما ، إذ كانت لا تزال لدى بقية من النرق ، والرغبة في الغدو والرواح ، التى كانت قد هدأت وإن لم تكن قد خمدت ، والتى وجدت ما يغذيها في سياق المعيش في بيت مدام دى فاران . . فقد كانت الحياة هناك أكثر صحبا من أن تلائم مزاجى الانعزالي ، إذ أن سيل الأغراب الذين كانوا يتدفقون عليها من كافة الأرجاء ، واقتناعى بأنهم لم يكونوا يسعون إلا إلى التفرير بها - كل بطريقته - جملا حياتى في البيت عذابا منتظبا ! .. فمئذ أن خلعت « كلود آتبه » في الظفر بثقة بولائه ، رحلت اعتقب من كتب تطور شئونها ، وأرى تدهورها الذى كان يزعجنى . ولقد اطلعتنا ، وتوسلت إلينا ، وضغلت علينا ، ورحلت أناشدها مائة مرة ، ولكن دون ما جدوى على الإطلاق ! .. لقد ارتيمت على قدميها ، وعرضت عليها - بأقوى ما وسعنى - الفكة التى كانت تقهدها ، ورحلت أنصحها في الحاج بأن تحد من نفقاتها ، وأن تبدا بتطبيق ذلك على أنا ، وأن تمنانى قليلا من الحرمان وهى بعد لا تزال شابة ، بدلا من أن تضاعف ديوتها ودائفتها باستمرار ، مما يعرضها لمضايقاتهم . بلطفه ألام تسخوختها . .

ومس صدق تحمسي عواطفها ، فجارتني في شعوري . ووعدتني بأجل ما في الدنيا من وعود . ولكن كل شيء كان يفسدو منسياً ، بمجرد أن يصل أحد الأفاقين ! وبعد ألف دليل على عدم جدوى ارشاداتي ، ما الذي تراه قد بقي لي — كي أفعله — سوى أن أغضى بصري من الشر الذي لم أكن أملك دفعه ؟ .. لقد رحلت أناى عن البيت الذي عجزت عن حراسة بابه ، وأخضت اتوم برحلات قصيرة إلى (نيون) و (جنيف) و (ليون) ، شغلت بالي عن همى الكنليم ، بينما كانت — في الوقت ذاته — تزيد من عبئه ، نظراً لتفقاتي ! .. ويوسمى أن أقسم بأنني كنت خليفاً بأن اتحمل باغتباط كل تضيق . لو أن " ماما " كانت تنتفع حقاً من ذلك الاقتصاد .. ولكنى كنت موقناً من أن ما كنت أحرم نفسي منه " كان ينتقل إلى الأفاقين . ومن ثم فإننى كنت أسوء استغلال سخائها لكي أقاسمهم ما كانت تقدمه عليهم .. وكالكلب العائد من المذبح ، كنت أستولى على قطعة من القطعة التي لم أستطع أن أنقذها من الكلاب الأخرى !

ولم تكن تعوزنى الحجج لتبرير كل هذه الرحلات ، وكانت " ماما " وحدها تغذيني بهذه الحجج ، إذ كان لديها الكثير من الاتصالات والمباحثات ، والشئون ، والمهام التي تحتاج إلى شخص موثوق به . ولم يكن عليها سوى أن توغدنى ، كما أننى لم أكن أرجو سوى أن أذهب .. ولم تخفق هذه الحال في تهيئة حياة مليئة بالترحال . ولقد هيأت لي هذه الرحلات فرص عقد صلات تعارف طيبة ، كانت — فيما بعد — مستحبة وفائعة . ومن هذه الصلات التي عقدتها في (ليون) معرفتى

بالسيد " بريشون " — وهى المعرفة التي ألوم نفسي لأننى لم أعمل على تنميتها بدرجة كافية ، برغم ما كان السيد قد أبداه لى من طيبة وكرم — ثم تعرفت إلى " باريو " الطبيب ، الذي سأتحدث عنه في حينه .. وفى (جرينوبل) تعرفت إلى السيدة " دى ديبيان " ، والسيدة حرم رئيس " الباردونانش " (١) ، وكانت امرأة حجة الذكاء ، على استعداد لأن تؤثرفى بودها لو أننى أوتيت مزيداً من الفرص لزيارتها .. وفى (جنيف) تعرفت إلى السيد " ديلا كلوسير " — مندوب فرنسا المقيم — الذى حدثنى في أحيان كثيرة عن أمى ، التي كانت ما تزال تحتل مكانة فى قواده ، برغم الموت والزمن .. كما تعرفت إلى السيدين " باريو " و " كان الأب منها — وقد اعتاد أن ينادينى بابنه الأصغر — طو المعشر ، ومن أجدر من عرفتهم بالاحترام . وقد قدر لهذين المواطنين أن ينحازا إلى فريقين متعارضين — أثناء اضطرابات الجمهورية — فكان الابن فى صفوف المورجوازيين " ، بينما كان الأب فى صفوف الطبقة الحاكمة . وعندما حمل كل من الفريقين السلاح ضد الآخر — فى سنة ١٧٣٧ — كنت فى (جنيف) ، فقدر لى أن أرى الأب والابن يخرجان مسلحين من بيت واحد ، أحدهما ليذهب إلى دار محافظة المدينة ، والآخر ليذهب إلى مركز قيادته ، وهما موقنان من أنهما لن يلبثا أن يجدا نفسيهما — بعد ساعتين — وجها لوجه ، معرضين لأن يقتل كل منهما الآخر ! .. ولقد ترك هذا المنظر الرهيب طابعا عميقا فى نفسى " حتى أننى أقسمت ألا أشارك قط فى أية

حرب أهلية ، وإلا أذود بالسلاح عن الحرية — في داخل البلاد — سواء بنفسى أو بتجيزدى ، إذا ما قدر لى أن أمارس حقوقى كمواطن . وإبنى لأشهد بأننى وفيت بهذا العهد فى مناسبة عميرة ، ولسوف يتبين — أو هكذا أظن ، على الأقل — أن هذا الاعتدال كان ذا فوائد جمة .

على إبنى لم أكن قد بلغت — بعد — هذا الفوران الأول للوطنية ، الذى أثارته جنيف — بتسلحها — فى قوآدى . وللبرء أن يحكم على مدى بعدى من ذلك على ضوء واقعة خطيرة أثرت على ، وقد نسيت أن أذكرها فى مكانها ، ويجب ألا أغفلها : ذلك أن خالى برنار كان قد انتقل منذ سنوات عديدة إلى (كارولينيا) (١) لإنشاء مدينة (تشارلستون) ، التى وضع تصميمها . وما لبث أن مات بعد ذلك بقليل . كذلك مات ابن خالى المسكين ، فى خدمة ملك بروسيا . وهكذا فقدت عمتى ابنها وزوجها فى آن واحد تقريبا ، فأدى هذان المصائب إلى إذكاء ودها لأقرب قريب بقى لها ، وهو أنا . . فكنت إذا ما ذهبت إلى (جنيف) أنزل لديها ، وكنت أتسلى بأن أنبش الكتب والأوراق التى تركها خالى ، وأقلب صفحاتها . وقد وجدت كثيرا من الأشياء العجيبة ، من بينها أوراق ما كان أحد ليحدس وجودها بقينا . وكانت عمتى — التى لم تعلق أهمية تذكر على تلك

(١) الغلام أن « روسو » يقصد (كارولينيا الجنوبية) ، وهى إحدى ولايات أمريكا الشمالية الغائبة على الساحل الجنوبى الأطلسى . وتعتبر (تشارلستون) من أكبر مدنها .

الأوراق — على استعداد لأن تدعنى أخذها جميعا ، لو أننى شئت ذلك . على أننى قمعت بكتابين أو ثلاثة « تحمل تعليقات وشرحا بخط جدى برنار القس ، ومنها مؤلفات « روهو » القيمة (١) ، وقد طبعت فى مجلد من حجم « ربع القطع » (٢) ، ولثت هوامشها بملاحظات رائعة ، حبيت إلى العلوم الرياضية . ولقد بقى هذا الكتاب بين كتب مدام دى غاران ، وإبنى لأشمر بالحزن دائما لأننى لم احتفظ به . وقد أضفت إلى هذه الكتب خمسا أو سنا من المذكرات المخطوطة ، وواحدة مطبوعة هى المذكرة الشهيرة التى كتبها « ميشيلى دوكرىه » ، وكان رجلا عظيم العبقرية ، عالما بمنورا ، ولكنه كثير الشطط فى آرائه ، فلقى معاملة سيئة من حكام (جنيف) . وقد مات مؤخرا فى قلعة (أربريج) ، حيث ظل سجيناً أموما طويلة ، لأنه — على ما قيل — اشترك فى مؤامرة (بيرن) !

وكانت هذه المذكرة نقدا رصينا عادلا لتلك الخطة الكبيرة ، والسخيفة ، التى وضعت للتحصينات ، والتى حقق جزء منها فى (جنيف) ، وقد كانت اضحوكة كبرى لدى الخبراء الذين لم يدركوا ما كان للمجلس (٣) من غاية سرية من وراء تنفيذ هذا المشروع الهائل . ولما كان السيد « ميشيلى » قد اقتضى عن

(١) لى التى لم تنشر إلا بعد موت مؤلفها .

(٢) يكاد يعادل ضعف حجم « كتابى » و « مطبوعات كتابى » أو يزيد قليلا فى العرض .

(٣) المجلس الذى كان يضم عددا من المستعيرين من مجلس حكم جنيف .

« هيئة التحصينات » لأنه عاب المشروع ، فقد اعتقد أن بوسعه كعبه من « المائتين » (١) — وكبواطن كذلك — أن يعطى رأيه بمزيد من الإسهاب ، وهذا ما فعله في مذكرته هذه ، التي أقدم — في غير حكمة — على طبعها ، ولكنه لم ينشرها ، لأنه لم يطبع منها سوى عدد محدود من النسخ ، أرسله إلى « المائتين » . . . ولكن هذه النسخ صودرت جميعا في البريد ، بأمر من المجلس الاستشاري الصغير (٢) . ولقد وجدت هذه المذكرة بين أوراقى خالى ، مع الرد الذى عهد إليه بوضعه ، فآخذت كلا منهما . وكنت قد قمت بهذه الرحلة عقب انفصالي عن « المساحة » قليل ، ولما أزل على بعض الارتباط بالمستشار « كوتشيللى » الذى كان رئيسا لها . وقد حدث — بعد وقت قصير — أن رجائى مدير الجبارك أن أقوم بدور الاثني عشر لطفله . وكانت السيدة « دى كوتشيللى » هى الاثني عشر ، فأدار هذا التكريم راسى . وحاولت — وأنا مزهو بأن أجد فى مكانة جد قريبة من مكانة السيد المستشار — أن أقوم بعمل دى ثيمية ، لأبدو جديرا بمثل هذا الشرف العظيم . . . وانسيانا وراء هذه الفكرة ، لم أر أفضل من أن أطلعه على مذكرتى المطبوعة التى ألفها السيد « ميشيللى » ، والتى كانت — فى الحقيقة — نحلة نادرة « كى أبرهن له على أننى أنتمى إلى عليبة القوم فى اجنيف » ،

(١) مجلس المائتين . . . يظهر أنه كان مجلسا يبايعا يقدم دوى المواهب فى

جنيف ، بمثابة مجلس للنواب .

(٢) مجلس الشيوخ .

من كانوا يعرفون أسرار الدولة ! . . على أننى — بدافع من شيء من الحذر ، لم أكن أدري مآناه — لم أطلعه قط على رد خالى عن المذكرة ، ولعل ذلك كان راجعا إلى أن الرد كان بخط اليد ، وأنه لم يكن ليطلق بمقام المستشار سوى كل مطبوع ! . . بيد أنه شعر بقيمة كبرى للوثيقة التى كنت من الغباء بحيث انتفعت عليها ، فلم يقدر لى قط أن استرجعها أو أن أراها ثانية . . . حتى إذا أيقنت من عدم جدوى جهودى ، رابت أن استغل الأمر ، وأن أحول السرقة إلى هدية ! . . ولست أرتابا إطلاقا فى أنه قد أحسن استغلال هذه التحفة فى بلاط (تورين) — فقد كانت طريقة أكثر مما كانت نافعة — وأنه عنى ، بطريقة أو بأخرى ، بالحصول على مبلغ كبير من المال كان من الطبيعى أن يزعم أنه أنفقه فى الحصول عليها ! . . ولما كان من أقل أحداث المستقبل احتمالا وإمكانا — لحسن الحظ — أن يقدم ملك سردينيا يوما على حصار (جنيف) ، وإن لم يكن هذا الأمر مستحيلا ، فقد ظلمت دائما اليوم غرورى الأحمق الذى جعلنى أكثف مواطن الضعف فى استحکامات المدينة ، لآلد أعدائها !

وقضيت عامين أو ثلاثة على هذه الحال ، بين الموسيقى ، والحكام ، والمشروعات ، والرحلات . . . أنتقل دائما من امر إلى آخر ، وأتشد دائما الاستقرار دون أن أدري قيم استقر ، ولكنى كنت أتجه تدريجيا إلى الدراسة ، والتقى برجال الأدب ، وأسمع الأحاديث الأدبية ، وأجرؤ — فى بعض الأحيان — على أن أخوضها أنا الآخر ، مقتبسا

استوعب محتوياتها ! وكنت اقوم بين آن وآخر ، أثناء رحلاتي إلى (جنيف) بزيارات عابرة لصديقتي القديم السيد سيمون ، الذي اذكر كثيرا حمسى الوليد للألب بتزويدي بأحدث الأنباء عن « دولته » ، وهي أنباء كان يأخذها عن « بايه » أو عن « كولوميه » . كذلك كثيرا ما كنت التقى في (شامبيري) بواحد من (اليعاقبة) كان أستاذًا لعلوم الطبيعة ، وراهبًا صالحًا . ولقد نسبت اسمه ، ولكنه كثيرا ما كان يقوم بتجارب صغيرة أثارت اهتمامي للغاية ، فوددت ان احذو حذوه فاصنع المداد العاطفي (١) . وللاصول إلى هذه الغاية ، ملأت زجاجة إلى ما فوق منتصفها بالجير الحى ، وبمسادة مركبة من الزرنيخ والكبريت والماء ، ثم أحكمت سداده . وبدأ التفاعل في الحال — تقريبًا — وبعنف شديد « فأسرعت إلى الزجاجاة لأزيل سداداتها ، ولكنى لم أصل في الوقت المناسب ، فإذا بها تنفخ في وجهى وكأنها متنبلة . . . وابلعت الزرنيخ والحديد والجير ، فكدت أموت ! وقد مكثت أكثر من سعة أسابيع وأنا أعمى ، وأدركت من ذلك أننى يجب ألا أقحم نفسى في تجارب العلوم الطبيعية ، دون إلمام بالعناصر المستخدمة !

وقد ألحقت هذه المغامرة ضررا بصحتى ، التى كانت في

احذار محسوس منذ فترة من الزمن . ولست ادري من أين جاعنى هذا الانهيار ، فقد كنت حسن البنيان ، ولم أكن أقدم على أى افراط ، من أى نوع ومع ذلك فإننى كنت أنهار بجلاء! ولقد كنت جيد التركيب ، عريض الصدر ، مما كان يتيح لرنتى فراغا كافيا كي تتحركا بسهولة . . ولكنى كنت — رغم ذلك — قصير الأنفاس ، وكنت أشعر بضيق ، وأرسل الزفرات دون إرادة منى . ولقد أصبت باضطراب في القلب ، وأخذت أبصق دما ، واستولت على الحمى البطيئة التى لم تفارقنى تماما على الإطلاق . . فكيف يقع المرء في مثل هذه الحال وهو في زهرة العمر ، دون أن يكون ثمة أذى داخلى على الإطلاق ، ودون أن يكون قد فعل ما يقضى على صحته !

ويقال أحيانا أن السيف يبلى القرباب . وهذه هى قصتى ، فإن شهواتى قد أحيينى ، وشهوأتى قد أمانتنى ! . . وقد يقال : أية شهوات ؟ . . كانت ثوانه . . كانت أكثر أمور الدنيا أنطباعا بالطابع الصباني ، ولكنها كانت تثمرنى كما كان خليقا أن يثمرنى الاستيلاء على هيلين (١) . أو على عرش الكون ! . . وكانت النساء في مقدمة هذه المثرات ! فكانت حواسى تحتفظ بهدونها ، إذا ما ظفرت بواحدة ، ولكن قلبى لم يكن يعرف الهدوء قط !

(١) هينين الطوادية : كانت أجمل نساء الافريق ، يشد تزوجت من « ميلولوس » ، ملك أسبرطة . . ولكن باريس — أمير طروادة — اختطفها ، فشن أمراء اليونان حربا على طروادة دامت عشر سنوات ، وانتهت بهيبي إلى زوجة .

(١) نوع من المداد يعرف عادة باسم « المداد السرى » ، ولعل « روسو » اسماء المداد العاطفي ، لأنه كان يستخدم في المراسلات الغرامية ، فما أن يجف حتى تبدو الورقة وكأنها خالية من الكتابة ، الى أن تعرض لحرارة اللهب فيبرز ما تحتويه !

به في غمرتها ، وبفضل الدرامسة الدائبة لكتب « رامو » المنهبة ،
وبفضل إصراري العنيد على الرغبة في أن أحشو بها ذاكرتي
التي كانت ترفضها دائما . وبفضل الجري المستمر (١) ، وبفضل
تلك المجموعات الهائلة التي كنت أراكبها ، وكثيرا ما كنت
أقضي ليالي بأسرها في نسخها ..

ولكن ، لماذا اقتصر على الشهوات الدائمة ، في حين أن كل
النزوات التي كانت تمر بخاطري دون انقطاع : الاهواء العابرة
التي لا تثبت سوى يوم واحد ، كرحلة ، أو حفلة موسيقية ،
أو مسرحية فككة أحب أن أشهدها .. كل هذه الأشياء التي
كانت أبعد ما في الدنيا عن ممراتي وعن أعمالي . أصبحت لدى
بدورها بمثابة شهوات عديدة عفيفة ، كانت في جيشانها
المستهجن تسبب لي أصدق ألوان العذاب ! .. بل إن قراءة
مصائب « كليفلاند » الخيالية - وهي القراءة التي كنت أقبل
عليها في نهم ، والتي كثيرا ما كنت أعجز عن الاسترسال فيها
- كانت تثير أشجاني ، فمما أعتقد ، أكثر مما كانت تثيرها
بصائبي !

وكان نمة شخص من أبناء « جنيف » يدعى السيد « باجيريه » ،
عمل فترة في خدمة بطرس الأكبر في البلاط الروسي ، وقد
كان من أعظم الأوغاد ، ومن أشد الحمقى الذين رأيتهم في حياتي
.. وكان دائما يفكر في مشروعات مماثلة حماقة ، فقد كان

كانت مستلزمات الهوى تنهشني وأنا في غمرة اللذة . وكنت قد
أوتيت أما حنونا ، وصديقة حميمة ، غير أنه كان لا بد لي من
عشيقة . وكنت أمثل العشيقة المنسودة في مكان « ماما » ،
وأصورها للنفس في ألف صورة ووضع ، لكي أموه على نفسي ! ..
ولو أنني تذكرت - وأنا أعانقها - أنني إنما كنت أضم « ماما »
بين ذراعي ، لما فترت حرارة عنائي . ولكن كثافة شهواتي كانت
خليقة بأن تخبو ، وكنت أبكي وجدا « ولا استمتع بلذة ! ..
لذة ! .. أفطلق هذا الحظ ليكون من نصيب الإنسان ! ..
آه ، لو أنه قدر لي يوما - بل مرة واحدة في حياتي - أن أتذوق
كل لذات الحب في أوج تدفقها ، فإني أعتقد أن كياني الهش
لم يكن ليتقوى على الاحتمال .. كنت قميئا بأن أموت في مكاني !

وهكذا كنت أكتوى بالحب ، دون ما هدف . ولعل هذه
الحال هي أشد الحالات أرهاقا ! .. وكنت قلعا معذبا لسوء
حال شئون « ماما » المسكينة ، ولتصرفاتها غير الحكيمة ، التي
كان مألها أن تقود إلى خرابها تباه . في وقت قصير - وكان
خيالي القاسي - الذي يسبق المصائب دائما - يصور لي هذه
المصيبة بالذات ، دون انقطاع ، وبكل مداها ، وبكافة نتائجها !
.. فرأيت نفسي ، مقدما ، مضطرا إلى أن أفترق - بحكم
الفاقة - عن تلك التي كرسيت لها حياتي ، والتي لم يكن بوسعي
أن استمتع بهذه الحياة ، بدونها ! .. وهكذا كنت دوما مضطرب
النفس .. كانت الشهوات والمخاوف تنهشني بالمناوب !

وكانت الموسيقى - بالنسبة لي - شهوة أخرى ، أقل
عتوا ولكنها لم تكن أقل أرهاقا ، بفضل التحمس الذي ارتبيت

(١) يتعد التفتل والتزهال باستمواج

ينثر الملايين كالطر ، ولم تكن الأصفار تكبده شيئا) . . . وإذا جاء هذا الرجل إلى (شامبيري) من أجل بعض قضايا كانت معروضة على مجلس الشيوخ ، فقد استولى على إرادة «ماما» ، كما كان متوقعا . وفي مقابل كنوزه من الأصفار - التي كان يقدحها بسخاء - أخذ يبتز منها تلك الدنانير البائسة قطععة بعد قطعة ! . . . ولم احبه إطلاقا . وقد أدرك هو ذلك - فما كان الأمر يوما بالهمة المسيرة (٢) - فلم يدع نوعا من الخسة لم يستفد منه كي يتقرب إلى . . . وآلى على نفسه أن يغربني بتعلم الشطرنج ، برغم أنه كان لا يحفقه ! . . . ولقد حاولت ذلك ، بالرغم من نفسي تقريبا . ويعد أن تعلمت الحركات في غير ما اكتراث بها إذا كانت صوابا أو خطأ ، إذا بتقديمي بتزايد سريعا ، حتى أنني استطعت قبل نهاية الجلسة الأولى أن أزد إليه الهزيمة التي كان قد أذاقنيها في البداية ! . . . ولم أفتح بذلك ، فقد شغفت بالشطرنج ، وأتعت طاقما ، كما اشترت « الكالابروا » (٣) ، واحتبست نفسي في غرفتي ، ورحلت أقضي الأيام والليالي في السعي لتعلم كل الحركات الافتتاحية عن ظهر قلب « وحشو رأسي بها طوعا أو كراهية ، وأنا المعب وحيدا ،

(١) بقصد أن الرجل كان يدمي الثراء وهو لا يملك شيئا .

(٢) يريد « روسو » بذلك أن عرفان عواطفه وما يجول بقلبه ، لم يكن بالهمة المسيرة على أي شخص .

(٣) « الكالابروا » رسالة في الشطرنج ، وضمها لألعاب إيطاليا ماهر كان يدمي « جيواكيلو جريكو » « عاشق في عهد لويس الرابع عشر .



واحبست نفسي في غرفتي ، ورحلت أقضي الأيام والليالي في السعي لتعلم كل الحركات الافتتاحية .

دون ما هوادة ولا نواية ! .. وبعد شهرين أو ثلاثة من هذا العمل الشاق ، والجهود التي تفوق الخيال ، ذهبت إلى المتبى وأنا واهن ، شاحب ، متلبذ الذهن تقريبا . وتبت بتجربة . فلبعت مرة أخرى مع السيد « باجيري » .. وحزمتي مرة . فاثنتين ، فمشرين مرة ، فقد اخلطت كثير من الترتيبات المختلفة في رأسي ، كما كان خيالي بالغ الوهن ، حتى أنني لم اعد أرى أمامي سوى سحابة غائمة ! .. وفي كل مرة حاولت فيها أن اتدرب لحفظ الحركات بمعونة كتاب « غليدور » أو كتاب « ستاما » ، كان يحدث لي عين الشيء .. وبعد أن أنفكت قواي ، أجد نفسي أشد ضعفا من ذي قبل . ومواء كنت قد هجرت الشطرنج ! أو أنني وجدت في لعبه متنفسا لي . فأنني لم أحرز أبدا أى تقدم منذ تلك الجلسة الأولى ، حتى أنني لأجد نفسي دائما حيث انتهيت إذ ذاك ، ولو أنني تدربت آلاف القرون لما انتهيت إلا إلى اعطاء « باجيري » الدور . فحسب ! .. وقد تقول : هكذا يستغل الوقت على أحسن وجه ! .. والحق أن الوقت الذى أنفقتة في ذلك لم يكن قليلا . وما كفت عن المحاولة الأولى إلا عندما لم نعد لدى طاقة على الاستمرار .. وعندما ظهرت خارج غرفتي ، كنت أبدو كشخص خارج من قبر . ولو أنني استمررت على النهج ذاته ، لما ظلمت « خارجا من القبر » طويلا (١) : وإن المرء ليقرب بأن من العسير

(١) يقصد أنه كان خليقا بأن يلزم القبر .. أى يموت .

— لا سيما في تحمس الشباب — أن يدع مثل هذا الرأس جسد صاحبه في حجة !

ولقد أثر تداعى صحتي على طبعي ، كما هذا من حمية خيالي . فما أن شعرت بضغى حتى ازددت هدوءا ، وقدمت بعض شغفى بالأسفار . وإذا ازددت استقرارا ! تعرضت لا للملل ، وإنما للأسى والسوداء ، فإذا التهوسى يحل محل الشهوات والمواطف المشبوبة ، وإذا ذبولى ينقلب حزنا واكتئابا ، وأصبحت أبكى وأئنهد دون ما سبب ، وشعرت بأن الحياة تفلت مني دون أن أكون قد تدوقتها ، وأخذت أتحسر على الحال التي سأترك « ماما » البائسة فيها ، وعلى الحال التي كنت أراها موشكة على التردى فيها .. وبوسمى أن أقول أن فراغها وتركها في مسغبة كان مصدر أساى الوحيد ! .. وأخيرا ! ستطعت مريضا حقا ، فراححت تعنى بي كما لم تعن أم بطلها ، وقد كان في هذا خير لها هي الأخرى ، إذ حولها عن المشروعات ، وصرمها عن أصحاب المشروعات .. ما كان أعذب الموت لو أنه جاء إذ ذاك ! .. وإذا لم أكن قد استمتعت بكثير من نعم الحياة ، فأنني لم أشعر إلا بقليل من محضا . وكانت روحي الوداعة خليقة بأن ترحل دون الشعور القاسى بظلم الناس .. الشعور الذى يسمم الحياة والموت ..

العزاء في أنني كنت أحييا في النصف الأفضل من نفسي (١) ، وهذا لا يكاد يعتبر موتا ! ولولا القلق الذي كنت أستشعره إزاء حظها ، لعضيت تحبى وكاننى استسلم للنعاس .. بل إن هواجسى كانت ذات غاية رقيقة لطيفة ، خفت من مرارتها .. ولقد قلت لها يوما ، « إن كل كيائى بين يديك ، فاسمديه ! » .. وحدث في مرتين أو ثلاث — عند ما كنت في أسوأ حال — أن نهضت في الليل ، وجريت نفسى إلى غرفتها ، لكى أقدم لها نصائح بصدد تصرفاتها .. نصائح أجروى على القول بأنها كانت عادلة وحكيمة ، ولكن اهتمامى بمصير « ماما » كان يثلب في هذه النصائح على كل شيء آخر .. وكأنها كانت الذموم غداًى ودوائى ، ففقدت كنت أستبد قوة من تلك الذموم التى كنت أذرعها في قربها ، وأنا معها ، جالسا على سريرها ، مسكا بيديها بين يدي .. وكانت السماعات تنصرم ونحن مستغرقان في هذه الأحاديث الليلية ، ثم أعود إلى غرفتى وأنا أحسن حالا مما كنت حين بارحتها ، وقد اغتبطت واطمانت للوعود التى عاهدتنى عليها ، والأمال التى يثتها في نفسى .. وبذلك ، كنت أنام بقلب مطمئن ، وبثقة في العناية الإلهية . إننى لأدعو الله — بعد أن تعرضت لكثير من الأسباب التى تدعو إلى كراهية الحياة وبعد كثير من العواصف التى هزت حياتى وجعلتها

[[ثلثة الاثنتى فى مداح دى بقران !

مجرد عيب — أن يكون الموت الذى قدر له أن يختم هذه الحياة ، أثل قسوة مما كان في تلك اللحظة !

ويفضل العتاية ، والسهر ، والضنى الذى يفوق التصور ، استطاعت « ماما » أن تقضى ، ومن المحقق أنها الشخص الوحيد الذى كان بوسعه إنقاذى . فقد كان إيمانى ضعيفا بدواء الأطباء ، ولكننى أوتيت إيمانا عارما بدواء الأصدقاء الصادقين . والأشياء التى يتوقف عليها هناؤنا ، تفضل كثيرا كافة الأشياء الأخرى ! .. وإذا كانت في الحياة عاطفة مستعذبة ، فإنها هى تلك التى استشعرناها إذ عاد كل منا إلى الآخر . ولم يزد شغفنا المتبادل — فما كان من الممكن أن يزداد — ولكنه اتخذ مزيدا من الألفة ، لا أدري كيف أشرحه .. وغدا ، في بساطته الضافية ، أشد تأثيرا ! .. وهكذا أصبحت بكل كيائى صنع يدبها . أصبحت ابنها تماما ، بل وأكثر مما لو أنها كانت أمى حقا ! .. ودون ما تفكير أو قصد ، لم نعد نفترق ، بل بدائنا ندمج كيائيتنا في وجود مشترك ، وداخلنا شعور مشترك بأن كلا منا لم يكن لازما للآخر محصب ، وإنما كان فيه الكفاية والغناء له عن سواه .. فعودنا نفسينا على ألا نفكر في أى شيء غريب عنا ، وعلى أن نقصر سماعتنا وكل شهواتنا قصرا تاما على ذلك « الاقتناء » المتبادل (١) ، الذى أحسبه كان

(١) يعتمد بالافتناء المتبادل ، العلاقة الجنسية الكلية بيننا وبين مدام

دى بقران .

فريدا في نوعه بين البشر ، والذي لم يكن — كما قلت — صادرا عن هوى محسوب ، وإنما كان اقتناء أكثر واقعية من المؤلف . . كان — دون ما استناد إلى الاحاسيس أو الجنس أو السن أو المظهر — يرتبط بكل مقومات شخصية الفرد !

ترى كيف قدر لهذه المحنة الا تجتلب السعادة إلى حياتنا ، حتى آخر أيام « مايا » وأيامي ؟ . . لم يكن هذا ذنبى ، ولدى من الدليل ما يعزفني ! . . كذلك لم يكن ذنبها هي ، أو لم يكن بإرادتها ، على الأقل ! . . فلقد كتب للطبيعة التي لا تلتين ، أن تفرض سلطاتها (١) سريعا . على أن هذه النكسة المشؤمة لم تكن مفاجئة ! بل كانت ثمة مهلة ، والحمد للسماء ! . . كانت ثمة فترة قصيرة ، وغالية ، لم تنته نتيجة ذنب مني ، ولست ألوم نفسي أو اتهمها بإساءة استغلالها !

ذلك أننى — وإن كنت قد شفيت من مرضى الخطر — إلا أننى لم استعد قط قواي . فما عادت لصدرى عافيتي ، وإنما لازمتنى دائما بقية من الحمى ، جعلتنى في ذبول وكل . فلم أعد أصبوا إلى شيء سوى أن انتق أيامي إلى جوار تلك التي كانت مريزة لدى ، وأن أعضدها في نواياها الطيبة ، وأن أمكنها

(١) يرى « روسو » بهذا إلى أن حكم الطبيعة — ممثلا في الضعف الذي أصابها صحته — هو الذي عرض عليه وعلى مدام دي غارن ألا يستمرا في سعادتهما إلى نهاية عمرهما .

من أن تحصن بما للحياة الهائلة من سحر حقيقي ، وأن أجعل حياتها على هذه الشكلة ، غيما يتوقف على — بيتا أنى رأييتا — بل شعرت — أن العزلة المستمرة التي كانت تجهنا في بيت معتم كئيب ، لن تلبث أن تقسم هي الأضواء بطابع خزين ، ولاح لنا علاج ذلك ، وكأنه قفز من تلقاء نفسه ، حين أوصتنى « مايا » باللبن ، ورغبت في أن أذهب إلى الريف لاتنأله هناك . ووافقتنا على شريطة أن تذهب معي . وكان هذا كافيا لأن نعتقد عزمنا . ولم يبق سوى أن نختر المكان . ولم يكن البستان القائم في الضاحية ، من الريف تباعا . . إذ أنه — لوقوعه بين منازل ويساتين أخرى — لم يؤت فئدة المكان الريفى الملائم للاستجمام . . فضلا عن أننا — عقب موت « أنيه » — تخلصنا عن البستان رغبة في الاقتصاد . إذ لم يعد يرادونا الشبوق إلا نباتاته النادرة ، كما أن ثمة اعتبارات أخرى جعلتنا على أن نأسف على فقد هذا المعزل !

وانتهزت — إذ ذاك — غرصة الشعور بالمل الذي لسته عندها نحو المدينة ، فاقترحت عليها أن تهجرها نهائيا . وأن تستقر معا في عزلة مستحبة ، في دار صغيرة على بعد كافى لأن يصد المتطفلين ! ولقد كانت على استعداد لأن تفعل ، وكان هذا الاقتراح الذي ألهمنى إياه ملاكها الحارس وملاكى ، كفيلا بأن يضمن لنا — حقا — أياما سعيدة هادئة ، حتى اللحظة التي يفرق غيها الموت بيتنا . ولكن هذا لم يكن الخط الذي سدر

لنا ، فقد كتب على « مايا » أن تبثى بكل بلايا الفاقة وسوء الحال — بعد أن قضت عمرها في الرخاء — حتى تغادر الدنيا وهي غير آسفة عليها . . أما أنا ، فقد كتب على أن أعانى القعاسات — من كل نوع — كى أصبح يوما مثالا للبرء الذى لا يحده سوى حب الصالح العام والعدالة ، بحيث يجرو — وهو غير مسلح بشير براعته وحسدها — على أن يقول الحقيقة للناس جهارا ، دون مؤازرة الأتصار ، ودون أن يؤلف حزيا لصايته !

ولقد عمل هاجس تمس على استبقاء « مايا » ، فلم تجرؤ على أن تهجر بيتها الحثير ، خوفا من أن تغضب مالهه . وقالت لى : « إن فكرة العزلة التى تقترحها بديمة ، وإنها لتروق لى ، ولكن لأبد من تدبير أسباب العيش ، حتى فى العزلة . وإنى لاتعرض — بمبارحة سجنى — لأن أفقد مصدر عيشى ، فإذا لم يعد لدينا خبز فى الغابات ، أصبح من المحتوم علينا أن نعود إلى المدينة بحثا عنه . ولكى نقلل من حاجتنا إلى العودة ، يجب ألا نهجر المدينة نهائيا . . فلنضع هذا الإيجار البسيط للكونت دى سان لوران ، حتى يدع لى معاشى (١) ، ولنبحث عن مأوى

(١) لك « روسو » من قبل أن « سان لوران » كان مشرفا على الشئون المالية لإسلاط ملك سردينيا ، وأن بدم دى ملوان لم تطبق إلى استمرار معاشها إلا بعد أن استأجرت منه ذلك البيت الحثير ، فاكتمت بذلك وده

منعزل بعيد عن المدينة بدرجة تمكننا من العيش فى دعة ، وقريب منها بحيث نستطيع أن نعود إليها فى الحال ، إذا ما دعت الضرورة . . وهذا ما جرى ، فبعد بحث قصير ، استقر بنا المقام فى (شارميت) ، وهى ضيعة كان يمتلكها السيد دى كونزبه ، على مشارف (شامبرى) ، ولكنها منعزلة وغير مطروقة ، حتى لكانها تقع على مائة فرسخ منها . . فبين تلين مرتفعين ، يمتد — شمالا وجنوبا — واد صغير « يجرى فى أسفله جدول ، تحف به الصخور والأشجار . وعلى أحد الجانبين — بطول هذا الوادى — بضعة بيوت متناثرة ، تناسب كل المناسبة أى امرئ يهتو إلى مأوى خلوى بمنزل . وبعد أن تفرجنا على بيتين أو ثلاثة — من هذه البيوت — اخترنا فى النهاية ابدعها ، وكان ملكا لسيد فى خدمة الحكومة يدعى السيد « نواريه » . وكان البيت جد ملائم للسكنى ، تقوم أماله حديقة مرتفعة عن سطح الأرض ، تعلوها كرمة ، ويمتد تحتها بستان ، وفى مواجهتها غابة من اشجار البلوط ، ونبع قريب . وعلى مرتفع من الجبل ، مروج لرعى الأنعام . ومجمل القول ، توفرت فيه كل مستلزمات الأسرة الريفية الصغيرة التى كنا نعتزم إيواءها هناك . ويقدر ما أستطيع أن أتذكر الأزمان والتواريخ ، تسلمنا البيت حوالى نهاية صيف سنة ١٧٣٦ . ولقد طربت فى أول ليلة قضيناها هناك ، فقلت لصاحبتى العزيزة وأنا اماتقها وأغرقها بدموع الحب والابتهاج : « آواه ، يا مايا ! آواه ، هذا

المقر لهو وكر العناء والبراءة .. فإذا لم تجدوها هنا - وكل
منا مع الآخر - فليس لنا ان نرجو العثور عليهما في اى
مكان! (١)

الكراسة السادسة

سنة ١٧٣٦

« هاك كل ما كنت اتنى : قطعة ارض غير شاسعة ،
« وحديقة ، ونبع ماء فياض بقرب الدار ،
« وإلى جانب هذا .. غابة صغيرة .. »
ولم أستطع قط ان أضيف إلى هذا :
« لقد حبنتى الآلهة .. بأكثر مما اشتبهت (١) »

ولكن لا بأس ، فما كنت بحاجة إلى أكثر من ذلك ، بل
إننى لم أكن بحاجة إلى أن أمتلك هذه الأشياء ، وإنما كان
يكفينى أن أمتنع بها ! .. ولقد قلت - وشعرت - منذ أجل
طويل ، أن المالك والمتنفع كثيرا ما يكونان شخصين جد مختلفين ،
حتى إذا أقصينا الأزواج والعشاق عن المقارنة !

هنا يبدأ هناء حياتى القصير ، وهنا أقبلت اللحظات
الوادعة - وإن كانت وجيزة - التى إباحث لى الحق فى ان أقول :
« إننى عشت » .. أيتها اللحظات الغالية ، التى آسى عليها
كل الأسى .. إلا أبذلنى من جديد - من أجل - سريانك
الحبيب ، وتتابعى فى ذاكرتى أكثر بعلنا مما كنت فى فراقك فى

(١) فى أوائل القرن التاسع عشر ، آل هذا البيت - الذى أقيم فيه روسو
ومدام دي غاران - إلى كاتب كانت له مؤلفات أدبية وعلمية ، وقد أصدر
فى سنة ١٨١٧ كتابا عن (شامويهك) ، سجل فيه كل مسفرة وكبيرة من
أوصاف هذا البيت الذى اعتاد المباح أن يرددوا عليه . وقد تبهت إلى
جدام المنزل - يقرب مدخله - لوحة حجوبة أمر بوضعها « هرلو ميشيل »
فى سنة ١٧٩٢ - عندما كان حاكما للمنطقة - وقد نقشت عليها أبيات
شعرية للذكرى ، هذا معناها :

« أيها الماوى الذى شغلته جان جاك .. انك لتذكرنى بمقرته ، وبجبه
للمزلة ، وبحبسه وحبته .. وبصائبه وطيحه .. لقد جرى على أن يكون
حياته للسجد والحقيقة .. وكان دائما مضطهدا ، أما بنفسه وأما بالآخرين ! »

(١) هذه الأبيات من اشعار « هوراس » ، وقد ترجمتها « روسو »

باللاتينية ، وعلق عليها بالمصطلح الذى تطلع به

الواقع ، إذا كان هذا ممكنا ! .. كيف لى بأن أطيل — كما
أشاء — هذا الحديث المؤثر ، الساذج ، غاررد نفس الأقوال
دائما « دون أن أبعث في نفوس قرائى — بتكرارها — ساما ،
اللهم إلا إذا سئمت أنا نفسى العود إلى ترديدتها دون انقطاع !
.. كذلك ، ليت كل هذا يتألف من وقائع ، ومن أعمال ، ومن
أقوال أستطيع أن أصفها وأن أردّها إلى الحياة بطريقة ما .
ولكن .. كيف لى أن أقول ما لم يقل ، ولم يفعل ، ولم يطف
بخاطر ، ولكنه استمرى ، بل استشعر — ولست أملك
أن أبين أى سبب آخر لهذا لهنائى سوى هذا الشعور البسيط ؟
.. كنت استيقظ مع الشمس ، وأنا سعيد .. فأتشئى ، وأنا
سعيد .. وأرى « ماما » ، وأنا سعيد .. وأفارقها ، وأنا
سعيد .. وأهيم في الغابات والربى ، وأرتاد الوديان ، وأقرأ ،
وأتمد عن العمل ، وأفعل الحديقة ، وأجنى الزهور ، وأساعد
في أعمال البيت .. والهناء يتبعنى في كل مكان .. لم يكن
ينحصر في شيء معين ، وإنما كان يشيع في كل مكانى ، ولم يكن
يفارقنى لحظة واحدة !

ما من شيء جرى لى أثناء تلك الفترة الحبيبة ، ولا من شيء
فعلته أو قلته أو فكرت فيه إيانها ، إلا بقى فلم يتسرب من
ذاكرتى . ان الأوقات التى سبقته ، والأوقات التى لحقته ،
لا توافى ذهنى إلا بين آن وآخر ، فأذكرها دون تمييز ، وفي تخبط
.. ولكنى أذكر هذه الفترة بأسرها ، وكأنها ما تزال باقية ! إن
خيالى الذى كان يتطلع دائما إلى الامام — في شبابه — والذى
أصبح اليوم يلتفت إلى الوراء ، يعوضنى بهساتين الذكرىين

الفاتنتين عن الرجاء الذى فقدته إلى الأبد ! فأتنى لم أعد أرى
في المستقبل ما يستهوئنى ، بل إن رجعات الماضى وحدها هى
التي تستطيع أن تهفو بعواطفى .. وهذه الذكريات تمتاز — في
الفترة التى أتحدث عنها — بأنها بالغة الحيوية والصدق ، حتى
أنها كثيرا ما تجعلنى أحيا سعيدا ، برغم بؤسى وسوء حظى !

وانى لأقدم من هذه الذكريات مثالا واحدا يمكن من الحكم
على وشوحها وصحتها : ففي أول يوم ذهبنا فيه كى نبيت في
(شاربيت) ، كانت « ماما » في محفة محمولة على الأكتاف ،
بينما تبعها على قدمى . وكان الطريق صاعدا « وهى ثقيلة
الوزن — بعض الشيء — مخشيت أن تضاعف من إتهاك قوى
الحمالين ، ورغبت في أن تهبط في منتصف الطريق تقريبا ،
لتقطع ما تبقى منه على قدميها . وفيما كانت تسير ، رايت
شيئا أزرق في الحسك (١) ، فقلت لى : « ها هو الغضاب (٢)
لا يزال مزهرا ! .. ولم أكن قد رايت الغضاب قط ، ومع ذلك
فأتنى لم أنحن لأحصه ، وكنت قصير النظر بدرجة لا تمكننى
من أن أتبين النباتات التى على الأرض ، إذا كنت أقف منتصب
القامة . واكتفيت بأن أقيت نظرة على ذلك النبات ، وأنا أمر به
.. ولقد مرت ثلاثون سنة تقريبا ، قبل أن أرى أى غضاب — مرة
أخرى — أو ألقى إليه بالا . وفي سنة ١٧٦٤ ، كنت في (كريسييه)
مع صديقى السيد « دى ببيرو » ، فنسلقنا جبلا صغيرا نقوم

(١) الأشج الشوكية التى تدعى بالطريق .

(٢) نوع من النبات البرى .

على تيمته استراحة (صالون) بديعة « تسمى بحق » بيلقى «
— المنظر الجميل — وكنت قد بدأت إذ ذاك أهوى دراسة
الأعشاب ، بعض الشيء . وفيما كنا نصعد ، ونحن نتأمل
الأدغال ، إذا بي أطلق صيحة جذلانة : « آه ! .. ها هو ذا
القضاب ! » .. وكان ذلك حقاً . ولاحظ « دي بيرو » فرحى .
ولكنه جهل سببه . ولسوف يعرفه . إذ أننى أرجو أن يقرأ
يوماً ما كتبت هنا . ويوسع القارئ أن يحكم — من الأثر الذى
أحدثته فى نفسى مناسبة تافهة كهذه — على مدى التأثير الذى
بجده كل ما يمت إلى تلك الفترة !

على أن جو الريف لم يرد إلى صحتى السابقة إطلاقاً .
فلقد كنت ذابلاً ، وقد ازدادت حالى سوءاً . ولم أعد أمليق اللبن ،
فلم يكن ثمة يد من التحول عنه . وكان الماء هو العلاج الشائع
— إذ ذاك — لكل داء ، فأقبلت على الماء فى غير ما حكمة . حتى
أنه كاد يشفىنى ، لا من عللى ، وإنما من حياتى (١) ! .. فنى
كل صباح ، كنت أذهب — عندها أستيقظ — إلى النبع ، حاملاً
وعاء كبيراً . وهناك ، كنت أشرب على القعاقب — وأنا أمشي —
ما يعادل ماء زجاجتين . وتحولت نهائياً عن تناول النبيذ فى
وجباتى . وكان الماء الذى اعتدت شربه عسر الهضم قليلاً ،

(١) هذا هو نص تعبير « روسو » . ومن الطريف أن كلمة « يشفى »
— فى العربية — تعنى « يبرى » ، كما تعنى « يهلك » . وهو عين ما أراد «
روسو » !

شأن معظم مياه الجبال . « وموجز القول أننى ظلمت على نهجى .
حتى أننى — فى أقل من شهرين — أتلفت نهائياً بغدنى التى
كنت احتفظ بها حتى ذلك الوقت فى خير حال ! وإذ لم تجب
تهضم ، أدركت أننى لا ينبغي أن أرجو لها شفاء . . وفى ذلك
الحين بالذات . وقع لى حادث كان فريداً فى نوعه وفى عواقبه
التى لن تنتهى إلا بانتهاء حياتى !

ففى ذات صباح لم أكن فيه أسوأ حالاً من المعتاد ، كنت
أرفع مائدة صغيرة على قوائمها ، وإذا بي أشعر باضطراب جاد
— لا يكاد يبدو له سبب — فى جميع جسمى . ولست أجد له
نسبياً أفضل من أنه كان مثل نوع من عاصفة هبت فى دمي .
واتقشرت لثوها فى كل أعضاء جسمى ! وأخذت عروقتى تنبض
بقوة هائلة ، حتى أننى لم أشعر بنبضها فحسب ، وإنما
سمعتها ، لا سيما نبض الشرايين السباتية . وقد صحب ذلك
ضوضاء هائلة فى أذنى ، وكانت هذه الضوضاء مؤلفة من ثلاثة
أو أربعة أنواع : طنين قوى مكتوم ، وخرير واضح كأنه ينبعث
من ماء جار ، وصغير حاد جداً . ثم النبضات التى ذكرتها ،
والتي كان يوسمى أن أعد دقائقها دون أن أجس نبضى أو أمس
جسمى بيدي ! وكان هذا الصخب الداخلى من الضخامة بحيث
أنه حرمنى من إرهاب السمع الذى كان لدى قبل ذلك ، وجعلنى
تتبل السمع — لا أصم نهائياً — كما هو شأنى منذ ذلك الحين !

وفى الوسع تقدير دهشتى وانزعاجى ، فقد خيل إلى أننى
أموت ، ولزمت سريرى ، واستدعى الطبيب فروبت له جالى
وأنا ارتجف ، إذ كنت أعتبرها بلا عذر

هذا الرأي ، ولكنه قام بما تحته عليه مهنته ، وراح يسرد على تعليقات طويلة لم أفقه منها شيئا البتة ، ثم عمد - تمشيا مع نظريته الرفيعة الشأن - إلى إجراء « تجارب على كائنات حية » ١١٥ ، وهو العلاج التجريبي الذي طاب له أن يجربه معي ، وكان جد البلم ، ومثير ، وقليل المفعول ، حتى أنني سرعان ما تحولت عنه . . وبعد بضعة أسابيع ، رأيت أنني لم أحسن ، ولا ازدددت سوءا ، ففادرت فرائشي ، واستأنفت حياتي العادية ، مع استمرار نبض عروقي وطنين أذني ، اللذين لم يفارقاني دقيقة واحدة ، منذ ذلك الحين . . أي منذ ثلاثين عاما !

وكننت حتى ذلك الوقت كثير النوم ، فإذا الحرمان التام من النوم - الذي رافقه كل هذه الأعراض ، والذي ظل يلازمها باستمرار حتى الآن - انتهى إلى إقناعي بأنه لم يبق أمامي أجل طويل في الحياة . وقد هدأ هذا الاقتناع من اهتمامي بالشغاف ، فترة من الزمن . وإذا رأيت أن ليس بوسعي أن أطيل من حياتي ، فقد اعتزمت أن أفيد بأكبر شطر ممكن مما تبقى لي من العمر . وهذا ما تصنى لي بفضل صنيع فذ أسدته لي الطبيعة ، إذ أعفنتني - في مثل هذه الحال المشؤمة - من الآلام التي يبدو أنها كانت قميئة بأن تتنابنى . كنت أتضيق من هذه الضوضاء في أذني ، ولكنني لم أكن أعاني منها ، كما أنها لم تكن مصحوبة بأية مضايقات مستمرة أخرى ، اللهم إلا الأرق

١١١ IN ANIMAL VILI اصطلاح يلقى على التجارب العلوية التي

تجرى عادة على الحيوانات .

في أثناء الليل ، وبضيق دائم في التنفس ، لم يكن ليرقى إلى درجة الربو ، ولا كان يبدو محسوسا إلا عندما أحاول الجري ، أو أهرق نفسي في العمل أكثر مما ينبغي قليلا .

هذا الحادث - الذي كان خليقا بأن يقتل بدني - لم يقتل سوى شهواني ، واني لأبارك السماء في كل يوم لهذا الأثر السميد الذي أحدثه في نفسي . واستطيع أن أقول أنني لم أبدا العيش إلا حين اعتبرت نفسي رجلا ميتا ! . وبينها رحمت أقدر الأفياء - التي كننت مزعما أن اتخلي عنها - بقيمتها الحقيقية ، شرعت أشغل بالي بأمور اسمى وأنبى ، وكأنها كننت أريد أن أستبق الزمن إلى تلك الأمور التي كان ينبغي أن أبادر إلى أدائها ، والتي كننت قد أهملتها - حتى ذلك الحين - إهمالا شنيعا . كننت كثيرا ما أمسخ الدين وفقا لهواي ، ولكنني لم أكن قط بلا دين على الإطلاق . ولم يكن يكبدني شيئا أن أعود إلى هذا الموضوع الكتيب بالنسبة لكثير من الناس ، ولكنه لطيف بالنسبة لأمريء ينشد فيه مادة للأمل والعزاء . . وكانت « ماما » - في هذا الصدد - أكثر نفعا لي من كل رجال الدين تاطبة ! . . فلم تغفل - وهي التي اعتادت أن تضع لكل شيء نهجا خاصا - عن أن تطبق هذا على الدين كذلك . وكان منهجها يتألف من أفكار جد متباينة ومفككة : بعضها معقول للغاية ، والأخرى طائشة جدا . . ومن مشاعر مرتبطة بشخصيتها ، ومن أفكار قديمة تبعت من تربيته . فالتاعدة أن المؤمنين يمثلون الله على ضوء أنفسهم ، فالطيوبون يمثلونه طيبا ، والخبيثون يمثلونه خبيثا .

والمؤمنون الحقودون والمتشائمون ، لا يرون سوى الحميم ، لأنهم ينفخون النعمة للندبا بأسرها . أما النفوس الحية

والوادة ، فإنها لا تخشى الجحيم إطلاقاً ! .. ومن المدحشات التي لم يقدر لى أن أنقلب عليها قط ، أن رأيت « فينيلون » الطبيب (١) يتحدث عن ذلك في مؤلفه « تيليماك » . وكأنه كان يؤمن به حق الإيمان ! .. على أننى أرجو أن يكون قد لجأ — إذ ذاك — إلى الكذب . . . إذ إنه لا بد للمرء ، بالرغم من كل اعتبار ، من أن يكذب أحياناً ، إذا ما كان أسقفاً ! — وهذه حقيقة يمرضها الجميع ! — أما « ماما » ، فلم تكذب على . كانت هذه النفس المنزهة عن الغرض ، لا تقوى على أن تتصور لها منتقماً دائماً السخط « وما كانت لترى في إله سوى الرحمة والشفقة ، في حين أن الانتقام لا يرون فيه سوى القصاص والعقاب . وكثيراً ما كانت تقول لى أنه ليس من العدالة في شيء أن ينشد الله القصاص منا ، لأنه لم يمتحننا ما يلزم لى نكون كما ينبغي ، ومن ثم فإن القصاص يكون بمثابة مطالبتنا بأكثر مما منحنا ! .. والغريب في الأمر ، أنها — برغم عدم إيمانها بالجحيم — لم تتخل قط عن إيمانها بالمطهر (٢) ، وقد تأتى هذا عن أنها لم تكن تدري ما تفعله بالنفوس الشريرة ، فما كانت تعلم أن تدفعها بالشبح ، ولا كانت تعلم أن تسلكها في الصالحين ريثما نفدوا صالحة فعلاً . . . ولا بد في الواقع من الاعتراف — سواء في هذه الدنيا أو في الآخرة — بأن الأشرار مصدر حيرة دائماً !

Fénelon, Télémaque. (١)

(٢) المطهر في المعتقدات الدينية ، هو الطريق الذي يفضى من النار إلى الجنة . ويقضى فيه البشر — عقب الموت مباشرة — مدة للتكفير عن خطاياهم ، قبل أن يصحبوا أهلاً لدخول الجنة ! ..

وهناك أمر غريب آخر ، فمن الواضح أن نظرية الخطيئة الكبرى والتكفير ، تنهار بفضل هذا النيج ، حتى أن أساس المسيحية الشائعة ليهتز ، وحتى أن الكاثوليكية لا تعود قادرة على أن تثقل قائمة . ومع ذلك فقد كانت « ماما » كاثوليكية صالحة ، أو كانت تجبر بذلك ، ومن المؤكد أنها كانت تصدر في جهرها عن إيمان جد صحيح . وكان يبدو لها أن الناس اعتادوا أن يفسروا الكتاب المقدس في حرفية وتزمت أكثر مما ينبغي . . . وكان يلوح لها أن كل ما يقرأ عن العذاب الأبدى يجب أن يؤخذ على أنه وعيد أو مجاز وكناية . . . وكان موت المسيح يقرأ لها مثلاً للخير القدسي ، يرشد الناس إلى أن يحبوا الله وأن يتحابوا فيها بينهم على غرارهِ ! .. وموجز القول ، أنها كانت وعية للديانة التي اعتنقتها « وقد قبلت في إخلاص كل مقررات العقيدة . . . غير أنه كان يبدو منها — إذا ما نوقشت في كل مادة على حدة — أن عقيدتها تخلف تباهاً عن الكنيسة التي كانت تقر لها بالولاء دائماً . . . ولقد أوتيت — فوق ذلك — سذاجة قلب ، وصراحة أكثر تأثيراً من أى رياء . وكثيراً ما كانت هذه الصراحة تحير الناس ، حتى الراهب الذي اعتاد أن يتلقى اعترافاتها « والذي لم تكن تخفى عنه شيئاً ، فقد اعتادت أن تقول له : « إننى كاثوليكية صالحة ، وأود أن أكون دائماً كذلك . . . وانى لأعترف — بكل طاعة نفسى — مقررات أمنا الكنيسة المقدسة ، على أننى لا أتحمك في إيماني ! وإن كنت أتحمك في إرادتى ، فأسيطر عليها دون ما تحفظ . . . ولنى لراغبة في أن يؤمن كل الإيمان . فبماذا تطالبني فوق هذا ؟ »

وإنى لأعتقد بأنها كانت خليفة بأن تتبع القانون الخلقى المسيحى — ولو لم يكن يوجد ثمة قانون خلقى مسيحى — لأن مبادئه تتمشى تماماً مع أخلاقها . وكانت تفعل كل ما يأمُر به ، لكنها كانت قهينة بأن تفعله ولو لم تؤمر به ! . . . وكانت تحب أن تبدى طاعتها في الأمور غير المهمة ؛ فمثلاً لو كان أكل اللحوم مباحاً — بل لو أنه كان مفروضاً — في أيام الصوم « لصامت عنه فيها بينها وبين الله ، دون أية حاجة لمراعاة الاعتبارات التى تطبقها الحكمة ، ولكن هذه القواعد الخلقية كانت تتبع دائماً مبادئ السيد « دى تافيل » (١) ، أو بالأحرى كانت « ماها » تدعى أنها لا ترى تناقضاً بينها « فكانت على استعداد لأن تضاجع عشرين رجلاً — في كل يوم — وهى مطمئنة الضمير ، دون أن يكون لها هم سوى إرضاء الشهوة . وإنى لأعرف أن كثيرات من المتدينيات لسن أكثر منها تردداً في هذه الناحية ، ولكن الفارق بينها وبينهن هو أنهن ينسفن إلى الغواية بفضل شهواتهن ، في حين أنها تنساق بفضل فلسفتها السفسطائية ! . . . ولقد كانت في أثناء أكثر الأحاديث العاطفية تائراً — بل وأجرؤ على أن أقول : أكثر الأحاديث التهذيبية عبرة — تنساق إلى هذا الموضوع ، فلا تتغير هيأتها ، ولا تتغير لهجتها ، ولا يخطر ببالها أنها تناقض نفسها . بل إنها كانت تقطع تلك الأحاديث — إذا دعت الحاجة — لتتكلم في هذا الموضوع ، ثم تعود إلى حديثها الأول بنفس الهدوء

(١) سبق لروسو أن فكر أن المسيو دى « تافيل » قد أقصد مقدمات ددام دى غارون ، في سبيل بلوغ مأومه منها قارنى في نفسها الاعتقاد بأن أوضاع شهوات النفس لا يتعارض مع إرضاء الله والشهر !

السابق . . . وهكذا كانت صادقة في اقتناعها ، إلى درجة أن الأمر كله لم يكن يعدو أن يكون — في نظرها — مبدأ اجتماعياً يستطيع كل من أوتى إدراكاً أن يؤوله أو يطبقه أو ينبذه ، وفقاً لنظرته إلى الموضوع ، دون أقل تعرض للإساءة إلى الله !

ومع أننى — بالتأكيد — لم أكن أرى رايها في هذا الموضوع ، إلا أننى اعترف بأننى لم أجرؤ على معارضتها ، خجلاً منى من أن أبدى من قلة اللطف والأدب ما كانت تتطلبه المعارضة . ولقد كان بوسعى أن أضع قاعدة للآخرين ، وأن أحاول أن استقنى نفسى منها (١) . ولكن طابع « ماها » لم تكن فيها الوثاقية الكافية لها من أن تسيء استغلال مبادئها ، كما أننى كنت أعرف أنها امرأة لا تهيل إلى القلب والظنون ، وأن استباحة الاستثناء لنفسى كان معناه أن أدع لها فرصة إلجائه لكل من يروق لها ! . . . على أننى أورد هذا التناقض هنا — بين ما أورد من تناقضات — بحض المصادفة ، برغم أنه كان دائماً قليل الأثر في سلوكها ، بل إنه لم يكن ذا أثر البتة ، في ذلك الحين . . . غير أننى وعدت بأن أعرض مبادئها في صدق وإخلاص ، وإنى لراغب في أن أفي بوعدى .

(١) كان روسو لا يتر ددام دى غارون في فلسفتها السفسطائية التى لقنها أياها المسيو دى تافيل . ولكن هذه الفلسفة بالذات ، هي التى يسرت له أن يصيغ حديثاً لددام دى غارون ، فلو أنه قدم هذه الفلسفة — لينعج تيمان مثل هذه العلاقة بين السيدة وغيره من الرجال — لتحتم عليه أن يبحث عن سبيل ليستنى نفسه ، حتى لا يهجم من جهة

ولأرجع ثانية إلى الحديث عن نفسي .. فما إن وجدت لدى « ماما » كل المبادئ التي كنت بحاجة إليها لأعزز نفسي ضد مخاوف الموت وما وراءه ، حتى أقبلت باطمئنان على هذا المصدر للثقة ، وأصبحت أكثر تعلقا بها منى في أى وقت آخر . وكأنها كنت أود أن أنقل إليها الحياة التي كنت أحس بأنها توشك أن تهجرنى ! .. وترتبت على مضاعفة تعلقى بها ، وعلى الاقتناع بأنه لم يبق أمامى في الحياة سوى أجل قصير ، وعلى رضائى العميق بما كتب لى في المستقبل .. ترتبت على كل هذا . حالة دائمة من العلماتية - بل ومن اللذة - خدمت فيها كافة الانفعالات التي تنأى بالهواجس والأمال عنا ، ولكنها - في الوقت ذاته - تركتني انعم في سكينه ، ودون ما هم ، بما تبقى في عمري من أيام ! .. وكان ثمة عامل ساهم في جعل هذه الحال أكثر مذوبة « ذلك هو السعى إلى تنحية ميل « ماما » إلى الريف ، بكل وسائل اللهو والتسلية التي كان يوسمى توفيرها . وغيا كنت أحملها على أن تحب حديثها « وساحة دواجنها ، وحباتها ، وبقراتها ، اكتسبت أنا الآخر ميلا نحو هذه جميعا ، وإذا بهذه الشواغل البسيطة - التي كانت تملأ نبارى دون أن تعكر صفائى - تجدينى تحسنا في صحتى يفوق ما أجدانيه اللبن وسائر الأدوية الأخرى التي استخدمت للمحافظة على كيمائى البائس ، إلى أقصى ما كان ممكنا !

ووجدنا في قطف الثمار وجنى الفواكه تسلية فيها تبقى من ذلك العام ، فأخذنا نزداد شغفا بالحياة الريفية ، وسط الناس الطيبين الذين كانوا يحيطون بنا . وشهدنا اقتراب الشتاء



بأسف بالغ ، فعندنا إلى المدينة وكاننا كنا نذهب إلى منفى . .
 لا سيما أنا ! إذ كنت في ريب من أننى سأشهد الربيع مرة
 أخرى ، فامتدنت أننى ودعت (شارميت) إلى الأبد . ولم
 أبرحها دون أن أقبل الأرض والأشجار ، ودون أن أرند إليها
 عدة مرات كلما ابتعدت عنها ! ولما كنت قد تخلصت - منذ زمن
 طويل - من تلميذاتى ، وفقدت شغفى بمسلاهى المدينة
 ومجتمعاتها غائى لم أعد أغادر البيت ، ولم أعد أرى أحدا
 سوى « مايا » والسيد سالومون ، الذى أصبح - منذ قليل -
 طبيبا وطبيبى . . وكان رجلا أمينا ، ذكيا ، « كارتى » (١)
 متحمس ، يحسن الحديث عن نظام العالم ، وقد عادت على
 أحاديثه العذبة ، المفيدة ، بخير يفوق ما عادت على به كل
 وصفاته الطبية . وما كنت لأطبق يوما ذلك الغباء وذلك
 التخطيط الأحمق الذى تحفل به الأحاديث العادية ، ولكن الأحاديث
 النافعة الدسمة تبعث دائما في نفسى سرورا عارما ، وما اعتدت
 أن أرفضها قط ! . . وقد تولانى ميل شديد إلى أحاديث السيد
 سالومون ، فقد لاح لى أننى كنت أكتسب معه - سلفا - تلك
 المعلومات الرفيعة التى كان مقدرا لروحى أن تكتسبها حين
 تتخلص من القيود التى كانت تثقلها . وقد امتد الليل الذى
 استغرعتة نحوه إلى الموضوعات التى كان يعالجها ، فشرعت
 أبحث عن الكتب التى تستطيع أن تساعدنى على أن أحسن
 فهمه . وكانت الكتب التى تمزج التقوى بالعلوم هى أكثرها

(١) أى من أبحاث تعاليم « ديكارت » .

ملاءمة لى ، لا سيما كتب « الخطابة » وكتب « بور - رويال » (١)،
 التى أخذت أطلعها ، أو بالأحرى ، ألتهمها . ووقع بين يدى
 منها كتاب للأب « لامى » عنوانه « أحاديث عن العلوم » . وكان
 عبارة من مقدمة للتعريف بالكتب التى تعالج العلوم . وقد
 قرأته وأعدت قراءته مائة مرة ، وعقدت العزم على أن أجعله
 مرشدى . والفيتنى فى النهاية انجذب ، بالرغم من حالته
 الصحية ، أو بالأحرى بفضلها ، إلى الدراسة دون أن أمك
 مقاومة . وبينما كنت أنظر إلى كل يوم وكأنه آخر أيامى ،
 رحت أدرس فى حمس عارم ، وكاننى سأعيش دوما . . . ولقد
 قيل لى أن هذا كان ضارا بى ، ولكنى اعتقد - من ناحيتى -
 أن هذا قد أمادنى ، لا ذهني فحسب ، وإنما جسديا كذلك . .
 إذ أن هذا الشغل ، الذى شغقت به ، صار مستعبدا لى ،
 حتى أننى لم أعد أفكر فى على ، ومن ثم أصبحت أقل تأثرا
 بها . ومن الصحيح يقينا ، أن شيئا لم يوغر لى شفاء حقيقيا ،
 ولكنى - إذ لم أعد أشعر بألم حاد - تعودت الوهن ، وعدم
 النوم ، وأن أفكر بدلا من أن أعمل ، و - أخيرا - أن أنظر إلى
 التدهاى التدريجى البطيء ، الذى ألم بكياتى ، وكأنه تطور
 لا مناص منه ، ولا يملك أن يوقفه سوى الموت !

ولم تصرفنى هذه الفكرة عن كل هموم الحياة التى لا جدوى
 منها فحسب ، وإنما أعفتنى أيضا من مضايقات الادوية التى كنت

(١) من كتب المدرسة اللاتينية . . وقد سبق أن أوردنا نذرة منها لى

تطبيق سابق .

— حتى ذلك الوقت — أخطر إلى تقبلها مرغما . فإن سالومون لم يلبث أن اعتنع بأن هذه العقاقير لم تكن تملك لى إنتقاذاً ، فأعفاني من غضاظتها ، وقنع بأن يهدىء من شجن « ماما » المسكينه ببعض الوصفات غير الضارة ، التى نغر المريض وتحفظ على الطبيب سببته . وتحولت عن نظام التغذية الضيق النطاق ، عمدت إلى تناول النبيذ وكل مستلزمات حياة الإنسان الموفور الصحة ، بقدر ما كانت قواى تسمح . وكنت أقبل على كل شيء فى اعتدال ، ولكنى لم أحرم نفسى من شيء البتة . بل أننى عدت إلى الخروج ، واستأنفت زيارة معارفى : سيما السيد دى « كونيويه » ، الذى كانت صحبته تروق لى كثيراً . وقصارى القول أن ارتقاب الموت لم يعق مبلى للدرس . بل بدا أنه أفكاه ، سواء كان ذلك راجعاً إلى أننى رايت أن من الجميل أن أدرس حتى ساعتى الأخيرة ، أو كان راجعاً إلى أن بقية من الأبل فى الحياة كانت تكمن متوارية فى قرارة قلبى ! .. ورحلت أسرع فى جمع بعض المعرفة للعالم الآخر ، وكأنها كنت أعتقد أننى لن امتلك فيه من المعرفة سوى القدر الذى سألحله إليه . وأصبحت ولوما بحانوت كتنى يدعى السيد « بوشار » ، اعتاد أن يتردد عليه عدد من رجال الأدب . . . وعندما أصبح الربيع — الذى كنت أظننى لن أشهده ثانية — على الأبواب ، جمعت لنفسى عدداً من الكتب لأحملها معى إلى « شارميت » . إذا كان لى حظ الرجوع إليها !

وأنيح لى هذا الحظ ، فاستفلقته لصالحى . . . وإن الاعتباط الذى شهدته به البراعم الأولى للربيع ليجل عن الوصف . . .

كانت رؤية الربيع مرة أخرى ، بمثابة البعث فى الفردوس . . . فما ان بدأت الثلوج فى الذوبان ، حتى هجرنا وكرنا ، ووصلنا إلى « شارميت » لنحظى هناك بأولى أنغام البلبل . ومنذ ذلك الحين لم اعد أفكر فى الموت ! ومن العجيب حقاً أننى لم أصيب قط بأمراض شديدة الوطأة فى الريف . ولقد عانيت كثيراً من الآلام هناك ، ولكننى لم ألزم السرير أبداً . وكثيراً ما كنت أقول ، عندما أشعر أننى أسوأ حالاً من المعتاد « عندما تروننى موشكاً على الموت : أحملونى إلى ظل بلولة ، واعذكهم بأن أعود إليكم معافى » !

ومع أننى كنت لا أزال ضعيفاً ، إلا أننى عاودت أعمالى الريفية ، ولكن بقدر يتناسب مع قواى . وقد عانيت أسى حقيقياً لعدم استماعنى أن أعنى بالحديقة وحدى . . . بيد أننى كنت إذا هويت ست مرات بالعمول ، شعرت بأننى أفقد أنفاسى ، وتصيب العرق منى ، وشعرت بمعجز عن الاستمرار . . . وإذا انحيت ، كان خفقان قلبى يتضاعف ، والدم يندفع إلى رأسى بقوة بالفسة تضطرنى إلى الاعتدال سريعاً . وإذا اضطرت إلى أن اقتصر على أعمال أقل إرهاقاً ، فقد تكنلت — بين ما اضطلعت به من مهام — بأعشاش الحمام ، فشغفت بها جداً ، حتى أننى كثيراً ما كنت أغضى عدة ساعات هناك دون أن أشعر بالملل لحظة . . . والحماية جيد هياة « وصبة الترويض ، إلا أننى توصلت إلى أن أبث فى حمايتى الثقة ، حتى أنها راحت تبغنى فى كل مكان ، وقد عفى أمتيكتها . . . ولم أكن أنظر فى الحديقة أو فى سائر الأماكن أن تحط

افتتان أو ثلاث على ذراعى ورأسى فى الحبال ! .. وبالرغم من القبطة التى كنت استشعرها ، فإن هذا الموكب لم يلبث أن غدا متعبا إلى درجة اضطررت معها إلى أن أنيذ هذه الألفة . ولقد اعتدت دائما أن أجد متعة مذة فى استئناس الحيوان . لا سيما ما يكون منه خجولا ويريا نفورا . وكان يبدو لى من المطرب أن أوجى للحيوان بالثقة ، وما خدعته قط ، إذ كنت أود أن يحبنى بانطلاق ودون قيد !

ولقد ذكرت أننى احضرت معى كتباً . . . وقد انتفعت بها ، ولكن بطريقة أقل تمكينا لى من التعلم « وأدعى إلى الحيرة ولبلة الفكر . فإن الفكرة الخاطئة التى كانت لدى عن الأمور ، أغرتنى بأنه لابد لقراءة كتاب قراءة مثمرة ، من أن يحرز المرء كافة المعلومات الأولية التى يرتبط بها موضوع هذا الكتاب . دون أن يخطر ببالي أن المؤلف نفسه كثيرا ما لا يكون محيطا بهذه المعلومات . . . وأنه إنما يأخذها عن كتب أخرى . بقدر ما تدعو الحاجة . وبهذه الفكرة الدالة على غباء ، رحت أتوقف عن القراءة فى كل لحظة ، مضطرا إلى أن ألث باستمرار من كتاب إلى آخر . . . وكنت أحيانا اضطر إلى أن أستغنى مكتبات يأسرها ، قبل أن أصل إلى الصفحة العاشرة من الكتاب الذى أرجو أن أدرسه ! . . . ومع ذلك فأننى أثبتت هذا الأسلوب المجرد من الإدراك ، فى إسراف ، حتى أننى بددت وقتا لا حد له ، وأرهقت رأسى إلى درجة أننى لم أعد أقوى على رؤية أو استيعاب شيء ما . . . وفطنت - لحسن الحظ - إلى أننى كنت أسلك طريقا خاطئا ، بقودنى إلى تيه هائل ، فعدلت عنه قبل أن أضل تماما !

ومهما تكن قلة ما لدى الإنسان من ميل حقيقى للعلوم ، فإن أول شيء يشعر به حين يقبل على دراسة العلوم ، هو ترابطها الذى يجعلها تقتارب ، وتعاون ، ويلقى كل منها الضوء على الآخر ، بحيث لا يكون ثمة غنى لواحد منها عن الآخر . ومع أن الذكاء البشرى لا يقوى على أن يسعها جميعا ، بل لابد له دائما من أن يتخذ واحدا منها كأساس ، إلا أن المرء كثيرا ما يجد نفسه فى الظلام - لاسيما فى العلم الذى اختاره - إذا هو لم يلم بفكرة عن العلوم الباقية . . . ولقد شعرت بأن هذا الذى أليته على نفسى ، كان - فى حد ذاته - شيئا طيبا ونافعا ، وأنه ليس من حاجة إلا إلى تبديل الأسلوب . فأنقذت على « دائرة المعارف » أولا ، وقسمتها وقتا لفروعها ، ثم رأيت أن لا بد لى من أن أفعل العكس - تسليها فإدرس هذه الفروع منفصلة ، وأمضى فى كل منها على حدة ، إلى النقطة التى يلتقى عندها بسواه ، فتتحد جميعا . وبهذا عدت إلى التقسيم المألوف ، ولكنى عدت إليه وقد أصبحت رجلا يعرف ما ينبغى أن يفعل . وفى هذا عوضنى التأمل عن المعرفة ، وساعد التفكير الطبيسى للفاية ، على إرشادى للصواب . وسواء كان مقدرا لى أن أعيش أو أن أموت ، فقد رأيت أننى لم أوت وقتا أضيعه . وعدم الألم بشيء - فى سن تقرب من الخامسة والعشرين - مع الرغبة فى التعلم ، يتطلب الانتهاء فى الإفادة من الوقت . ومع أننى لم أكن أدرى عند أية نقطة قد يحلو للحظ أو للموت أن يوقف تحصى ، إلا أننى كنت راغبا - - - - - فى أن ألم بفكرة عن كل شيء ، لكى أتمكن من إقناع نفسه فى النهاية :

أكثر منى لكى أحكم بنفسى على قيمة الجدارة القائمة على
التحفظ !

ووجدت فى تنفيذ هذا المشروع فائدة أخرى لم أكن قد
فكرت فيها ، وهى توفير أطول وقت ممكن ، لاستغلاله فى ذلك .
ولا بد أننى لم أخلق للدرس ، لأن العكوف عليه طويلا يضجرنى
إلى درجة أنه من المستحيل على أن أضطر نفسى إلى الانشغال
بموضوع واحد لنصف ساعة بأكمله ، سيما حين أكون منصرفا
إلى متابعة سير تفكير شخص غيرى (١) . فى حين أننى أقوى
أحيانا على أن استغرق فى تفكيرى الخاص أبدا أطول ، بل
وبتوفيق كبير ! .. أما حين أتبع تفكير مؤلف ما ، ليضع
صفحات أضطر إلى مطالعتها بإيمان واستيعاب ، فإن عطفى
يشرد ويتوه بين السحاب ! .. فإذا أصرت « غائى أرقى
نفسى عبثا ، وأصاب بدوار ، ولا أعود أرى شيئا .. أما إذا
تعاقبت موضوعات متباينة - ولو كان ثماثتها متواصلات دون
إيهال - فإن الواحد منها يسرى عنى متاء الذى سبقه ، ومن
ثم غائى أمضى فيها بيسر ، دون أن أشعر بحاجة إلى أية مهلة
للراحة أو التخلف . ولقد عهدت إلى الإغادة من هذه الملاحظة
فى الخطة التى انتهجتها للدرس ، فرحت أمزج الموضوعات
بشكل كان يجعلنى أشغل بها طيلة اليوم دون أن أسام البتة ! ..
ومن الصحيح أن المهام الريفية والمنزلية كانت تحدث تغييرا

(١) كما يحدث حين يقرأ المرء كتابا للدرس ، إذ يحاول أن يتلهم سيرا

تفكير المؤلف ، وأن يستوعب آراءه .

نافعا ، ولكنى - فى غمرة التحبس المطرد - لم البث أن وجدت
الوسيلة لتوفير وقت للدرس - إلى جانب أداء هذه المهام -
ولأن أشغل بأمرين فى آن واحد « دون أن يخطر لى أن هذا
يقتل من إقتائى لكل منهما !

على أننى أعمد إلى شيء من التحفظ، بشأن هذه التفصيلات
الدقيقة التى تقتضى ، والتى أثقل بها أحيانا على قارئى .. وهو
تحفظ لا يحده القارئ إطلاقا ، إذا أنا لم أعن بتنبئيه إليه .
فهنا - على سبيل المثال - أذكر فى استعذاب كافة المحاولات
المتباينة التى تمت بها لتقسيم وقتى على نمط أتاح لى أن أجد
فيه أكثر قدر ممكن من المتعة ومن الفائدة ، فى آن واحد .
ويوسمى أن أقول أن تلك الفترة ، التى قضيتها فى عزلة ، وفى
مرض مستمر ، كانت أقل فترات عمرى تعرضا للمضوول
والضيق . وقد انقضى شهران أو ثلاثة على هذا النسق ، فى
تعرف اتجاه عطفى « وفى الاستمتاع - فى أجل نصول السنة ،
وفى البقعة التى أحالها هذا الفصل فائنة - بسحر الحياة الذى
أحسبت بقيمه تماما : كسحر الزمالة العذبة ، غير المقيدة -
إذا صح أن نطلق هذا الاسم على معاشرة ثابتة على اتحاد
كامل - أو سحر معرفة رائعة كنت أعززم أن أكتسبها ، ولكنى
كنت أفتشى بها وكأننى حصلت عليها فعلا .. أو لعل نشوتها كانت
أشد لأن لذة الدرس والتعلم كانت ذات دخل كبير فى سعادتى !

ومن الواجب التجاوز عن هذه المحاولات « التى كانت

بالنسبة لى مبعث لذة وابتهاج ، ولكنها كانت آتية لى شرح .

فأنا أكرر أن السعادة الحققة لا توفى .. وإنما هى محسوسة ..

وكلمًا عز وصفها ، كان الشعور بها أفضل وأجمل ، إذ أنها ليست نتيجة مجموعة من الوقائع ، وإنما هي حالة دائمة .
إننى كثيرا ما أكرر نفسى ، ولكنى خلى بأن أزداد تكرارا - لو
أننى رويت الشيء الواحد بعدد المرات التى يخطر فيها ببالى !
وعندما اتخذت حياتى - التى كانت كثيرة التغير - مجرى أكثر
انتظاما ، فهاكم أقرب وصف ممكن لتوزيع أوقاتى .

كنت استيقظ قبل مشرق الشمس فى كل صباح . فامرق
خلال بستان مجاور ، إلى طريق جسد بديعة . فوق حقل
الكروم التى كانت تمتد بطول سفح الجبل حتى أشامبىرى .
وهناك - وأنا أمشى - كنت أتلو صلاتى ، التى لم تكن تتألف
من مجرد تحريك شفوى بجملة فارغة ، وإنما كانت تمثّل فى
سمو صادق بالقلب إلى خالق هذه الطبيعة البديعة . التى كانت
آيات جمالها تنبسط أمام عيني . . فما أحببت قط أداء الصلاة
فى الحجرة ، فقد كانت الجدران وكل تلك الأشياء التى من
صنع الإنسان ، تبدو لى دائما وكأنها تحول بينى وبين الله . .
وإنى لأحب أن أفكر فيه وأتأمل آياته ، بينما يكون فؤادى
مبتلعا إليه . وبوسعى أن أقول أن صلاتى كانت خالصة .
وكانت جديرة - لهذا السبب - بأن تستجاب . ولم أكن
أسأل لنفسى - ولتلك التى كانت دعواتى لا تفرق بينى وبينها
إطلاقا - سوى حياة بريئة ، مطمئنة ، خالية من الرذيلة (١) .

(١) من الترويب أن يمر « موتو » على أن العلاقة المثينة - مما تكن
بجوارها - بينه وبين مدام دي فان ، لم تكن من الرذيلة فى شيء !

ومن الألم ، ومن الفاقة المدقعة ، ومن موت الاستقامة . .
وما إليها ، فى المستقبل . وفيها عدا ذلك ، كانت هذه العبادة
تنصرف فى معظمها إلى الإعجاب والتأمل ، أكثر مما تنصرف
إلى الدعاء والسؤال . . إذ أننى أدرك أن خير وسيلة للحصول
من منافع النعم الحقيقية على تلك النعم اللازمة لنسا ، هي فى
العمل على أن نستحقها ، أكثر مما هي فى طلبها منه ! . . وكنت
أعود من نزهتى بعد دورة طويلة ، وأنا منصرف إلى بال إلى تأمل
المناظر الريفية المحيطة بى ، فى سرور واستمتاع ، سوى الوحيدة
التى لا تلهي العين والقلب أبدا . وكنت أقرب من بعد ما إذا
كان النهار قد بدا عند « ماما » ، فإذا ما أصبحت نافذها مفتوحة ،
ارتجفت غبطة ، وهرعت نحو الدار . أما إذا كانت النافذة
مغلقة ، فقد كنت أدلف إلى الحديقة وأنتظر حتى تستيقظ ،
وأنا أتسلى باسترجاع ما درست فى المساء السابق ، أو العمل
فى الحديقة . وإذا بفتح مصراعها النافذة ، أبادر لأقبل « بابا » فى
فرائشها ، وهى ما تزال نصف نائمة ، فى كثير من الأحيان . .
وكان هذا التقبيل طاهرا أكثر منه عاطفيا ، يستهد من براعته
- بالذات - سحرا لم يقترب قط بملاذ الحس !

وكنّا نغفر عادة على قهوة بالين . وكانت هذه أكثر غفرات
النهار هدوءا وسكينة لنا ، فكانا نسفرمل فى الحديث على
سجبتنا . ولقد خلعت لى هذه الجلسات - التى كانت طويلة
فى العادة - ميلا قويا إلى الإقطار ، وإنى لأوثر الطريقة الإنجليزية
أو السويسرية التى تعتبر الإقطار وجبة كاملة تضم الأسرة
بأكملها ، على الطريقة الفرنسية التى تفسد بينة على من
فى حجرته بمفرده ، أو لا يفطر إطلاقا ، فى الغالب .

التي تجعلك تمضي في العملية الرياضية دون أن تدري ما الذي تفعله . وكان حل أية مسألة هندسية بالمعادلات الجبرية يبدو لي مثل عذف لحن بالاكتفاء بإدارة يد (١) !

وعندما وجدت بالحساب - لأول مرة - أن مربع المعادلة الجبرية ذات الحدين ، يتألف من مربع كل حد من حدودها ، ومن ضعف حاصل ضرب كل منهما في الآخر (٢) ، لم أشأ أن أصدق ذلك - برغم صحة عملية الضرب التي أجريتها - إلا بعد أن سجلت العملية بالأرقام . وليس معنى هذا أنني لم أوت ميلا عظيما إلى الجبر ، لأنه لا يعالج سوى كميات مجردة (مجهية) ، ولكنني كنت - عند تطبيقه على المساحات والأبعاد - أحب أن أرى العملية ممثلة بسطور وخطوط ، وبدون ذلك لم أكن أفهم منها شيئا !

* * *

وجاءت اللغة اللاتينية ، بعد ذلك . وكانت هذه أشق دراساتي ، فلم أحرز فيها أبدا أي تقدم كبير . واتبعت في البداية أسلوب « بور - رويال » اللاتيني ، ولكن دون ما ثمرة ، فإن هذه الأشعار الاستروقوطية (٣) كانت تقتضى ثلبي ،

(١) يشبه « روسو » حل المسائل الهندسية بالمعادلات الجبرية : بإدارة يد آلة موسيقية ذات زئيرك « فإذا بها تردد النغم دون أن يدري من أدارها شيئا من طريقة عملها !

(٢) (١ + ب + ٢ = ٢ + ١ + ب + ب)

(٣) كانت قائل « الاستروقوط » البربرية هي المصدر الأول للغة اللاتينية .

ولا تستطيع أن تلج أفني ! .. ووجدتني أضل وسط أكاداس القواعد ، وما أن استوعبت قاعدة حتى أكون قد نسيت التي سبقتها ! .. فليست دراسة الكلمات بالتي تليق بإنسان بلا ذاكرة ، وما أضرت على هذه الدراسة إلا لكي أغضب ذاكرتي على أن تقوى ، فحسب ! .. وكان لابد من أن أهجرها في النهاية ، على أنني استوعبت التركيب بالدرجة التي تكفي لأن أستطيع أن أقرأ أسلوب كاتب سلس ، بمساعدة قاموس . وقد اتبعت هذا النهج ، فوجدتني أتقدم . واقبلت على الترجمة . لا كتابة ، وإنما في الذاكرة ، واقتصرت على ذلك . وبفضل الزمن والمران ، أصبحت أقرأ بطلاقة كافية مؤلفات الكتّاب ، اللاتينيين ، ولكنني لم أستطع قط أن أنكم أو أكتب هذه اللغة .. وهذا ما حيرني كثيرا ، حين الفيتني - دون أن أدري كيف - مدرجا في قداد أهل الأدب . ومن العيوب الأخرى التي تربت على هذه الطريقة من طرق التعلم ، أنني لم أتعلم قط علم العروض ، وكنت أقل إلماها بقواعد نظم الشعر . ومع أنني - في رغبتني أن أنفوق وقع اللغة شعرا ونثرا - بذلت جهودا كثيرة للاطلاع بها ، إلا أنني أوقن بأن تحقيق هذا - دون ممونة أستاذ - أمر يقرب من المستحيل ، وإذا استوعبت تركيب أسهل الأشعار جميعا ، وهو السداسي الوزن ، تلمست صبرا كافييا لأن أزن كل شعر « فريجيل » ، مبينا القاعدة والكم ، فإذا ما ارتببت فيما إذا كان أحد المقاطع طويلا أو قصيرا ، رجعت إلى كتاب « فريجيل » لاسترشده به . ومن الواضح أن هذا جينمى أفتى أخفاء حميرة بسبب التغير الذي تسمح به قواعد النظم ، فإنه إن كان

لتعلم المرء بنفسه فائدة ، فإن له — كذلك — عيوباً عظيمة ، في مقدمتها العناء الذي يفوق التصور . واني لأدري بهذا من أي شخص ، أيا كان !

وكنيت أمارق كئيب قبيل الظهر ، فإذا لم يكن الغداء معداً ، فإنني كنت أسعى إلى زيارة صديقتي الحمايم ، أو للعمل في الحديقة ، في انتظار موعد الغداء . وعندما أسمع النداء ، أهرع — وأنا جد متعب — وقد أوثبت شهية عظيمة . فمن الجدير بالملاحظة أن شهيتي لا تتخلى عني ، مهما أكن مريضاً . وكنا نتفمّذ في انشراح ، ونحن نتبادل الحديث في شئوننا حتى نفرغ « باما » من الأكل . وكنا — إذا ما تحسن الجو — نذهب ، مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع ، إلى ما وراء الدار ، لنتناول القهوة في مقصورة ملبلة الجو ، ذليلة ، زينتها بحشيشة الديار (١) ، وكنا نشعر بارتياح شديد إليها في القيظ . وهناك ، كنا نقضى وقتاً ليس بالطويل ، في تفقد خضرنا وزهورنا ، وفي أحاديث تتعلق بطريقة معيشتنا ، كانت تجعلنا أقدر تذوقاً لجمالها . وكانت لى أسرة أخرى ، في أقصى الحديقة ، تتألف من نحل . ولم يكن يفوتني قط أن أزورها ، وكثيراً ما كانت « ماما » تصحبني . وكنيت أهتم كثيراً بعملها ، وأنعم للغاية برؤيتها في مودتها من جنى الزهور ، وقد أثقلت سيقانها الحقيقة بأحمالها ، بحيث كان يتعذر عليها المشي أحياناً . ولقد حملني الفضول — في الأيام الأولى — على أن أحاول التثبت مما كنت أرى ،

(١) نوع من النباتات .

فلدغني النحل مرتين أو ثلاثة ، ولكنا لم نلبث أن وثقتا تعارفاً ، حتى أنه كان يدعني وشأني ، معها أقرب منه . . . وكان يتجهم حولي — مهما تكن الخلايا مليئة ، تأهباً للأفراز — فيحيط على يدي ووجهي دون أن يلدغني قط . . . إن كل الحيوانات توجس عادة من الإنسان — وهي ليست مخطئة في ذلك — ولكنها ما أن تطمئن مرة إلى أنه لا يريد بها أذى ، حتى تصبح ثقته به عظيمة إلى درجة أنه لا يسيء إلى هذه الثقة إذا كان همجياً بربرياً !

وكنيت أعود إلى كئيب ، بيد أن أعمالي — فيما بعد الظهر — كانت أقل جدارة بأن تحمل اسم « العمل والدراسة » ، منها باسم « الراحة والتسلية » . مما كنت لأطبق قط العمل المكتبي بعد غدائي ، لأن كل عمل ، في الأيام الحارة ، يكبدني عناء ، بوجه عام . على أنني كنت أشغل نفسي بالقراءة دون الاستذكار ، وبغير إرهاق ، بل وبغير ضابط أو قاعدة . وكان الشيء الذي اعتدت أن أواظب عليه بدقة ، هو التاريخ والجغرافيا . ولما كان هذان لا يتطلبان أي جهد عقلي ، فأنني كنت أمضى فيهما قدماً بقدر ما كانت تسمح ذاكرتي المقاصرة . وحاولت أن أدرس مؤلف الأب « بيتو » ، وأنغمست في غياهب علم التاريخ ، ولكني كنت لا أهمل إلى الأجزاء الدقيقة منه ، التي لا تقاع لها ولا شاطئ (١) ، وكنيت أفضل عليها الأسماء الدقيقة التوثيق ، ومسرى الأجرام السماوية . بل إنني كنت خليقاً بأن أغرم بعلم

(١) يقصد أنها من العمق بحيث أنه كان يتعب فيها دون أن يدرك

إلى غاية أو يفقه منها شيئاً

الفلك ، لو أنفنى أوتيت أدوات له . ولكنى كنت مضطرا إلى أن أقتع ببعض مبادئه التى تؤخذ عن الكتب ، وببعض مشاهدات غير دقيقة - خلال منظار مقرب - كانت كافية لمعرفة المواعيد العامة للأجرام فحسب ، إذ أن نظرى القصير لم يكن يسمح لى بتمييز أى شىء بالعين المجردة ، فما بالك بالكواكب ؟ .. وأذكر - فى هذا الصدد - حادثا كثيرا ما يحدثنى تفكره على الضحك ، فقد ابتعت خريطة فلكية لأدرس عليها الطوالع ، وثبتها إلى إطار ، وكنت فى الليالى الصافية أذهب إلى الحديقة فأضع إطارى على أربع قوائم فى ارتفاع قامتى تقريبا ، بحيث تكون الخريطة مقلوبة . ولكى أضيفها دون أن تطفئ الرياح شمعتى ، كنت أضع هذه فى دلو على الأرض ، بين القوائم الأربع ، ثم أنظر - بالتناوب - إلى الخريطة بعينى ، وإلى الكواكب بمنظارى ، وأروح أضنى نفسى بالتعرف على النجوم واستنتاج الطوالع . وأظننى قد قلت أن حديقة السيد «نواريه» كانت مرتفعة عن مستوى الأرض ، بحيث كان كل ما يجرى يشاهد من الطريق . وحدث - ذات مساء - أن كان بعض الفلاحين مارين فى ساعة متأخرة، غراوتى فى هيئة مضحكة، وقد انهكت فى على . وكان الضوء الواهن المنعكس على خريطتى - والذى لم يكونوا يرون مصدره ، لأنه كان محجوبا عن أنظارهم بحواف الدلو - كما كانت هذه القوائم الأربع ، والصفحة الورقية الكبيرة المكسوة بالأشكال والأرقام ، والإطار ، وحركة منظارى ، الذى كانوا يرونه وهو يروح ويجهى .. كل هذه أوجت بفكرة السحر ، مما أفزعهم ! .. ولم يكن لباسى صالحا لأن يطمئنهم ،

عقد كنت ارتدى قبعة ذات حافة عريضة ، تملو قلنسوتى (طبايقى) ، وقد أجبرتني «إمما» على ارتدائها ، مما هيا لانظار أولئك الفلاحين صورة ساحر حقيقى ! ولما كان الوقت يناهز منتصف الليل ، فإنهم لم يرتابوا إطلاقا فى أنهم أمام اجتماع للسحرة ! ولما كان فضولهم أقل من أن يزين لهم مشاهدة ما كان يجرى ، فإنهم غسروا وهم فى غزع شديد ، وايقظوا جيرانهم ليروا لهم ما راوا ! .. وانتشرت القصة بسرعة، حتى أن كل امرئ فى الجيرة كان يعرف - فى اليوم التالى - أن اجتماع السحرة عقد فى دار السيد «نواريه» . ولست أدري ما كانت تؤدى إليه هذه الشائعة فى النهاية ، لو لم يعمد أحد الفلاحين الذين شهدوا حركاتى السحرية ، إلى أن يرفع شكاته - فى اليوم ذاته - إلى اثنين من « الجيزويت » ، اعتادا أن يترددا علينا « نفسها الشكوى دون أن يعرفا جليلة الأمر . ثم فكروا لنا القصة ، فأدليت إليهما بالسبب ، وضحكنا لذلك كثيرا . على أنه تقرروا - خشية تكرار ذلك الحادث - أن أقوم بمشاهداتى الفلكية فى المستقبل دون استعانة بضوء ، مكتفيا بالرجوع إلى الخريطة داخل الدار . والذين قرأوا كتابى : « مسائل الجبل » ، عن أعمالى السحرية فى (البندقية) ، رأوا - كما أرجو - أن السحر كان صنعتى ردحا طويلا !

هكذا كانت حياتى فى (شارميت) عندما لم أكن مشغولا بأية مهمة رفيعة ، فقد كانت هذه تظهر بالأمضية دائما ، كما أننى كنت - فى الأعمال التى لا تتجاوز طاقتى - أعمل كأي ملاح ! .. على أنه من الصحيح أن ضعفنى الباليه لانتباهات -

من مقدرة في هذا المجال ، اللهم إلا النية الطيبة .. هذا فضلا عن أنني كنت أبتغى أن أقوم بعملين في آن واحد ، ولذا السبب لم اتقن أيا منهما . إذ كنت قد وضعت نصب عيني أن أهيب نفسي - بالقوة - ذاكرة طيبة ، فدأبت على محاولة أن أحفظ كثيرا من المعرفة عن ظهر قلب . ومن أجل هذا كنت أحمل معي دائما كتابا أدرسه واستذكره وأرده على نفسي وأنا منهمك في العمل ، متجها في ذلك مناء لا يصدقه العقل ! ولست أدري كيف أن إصراري على هذه المحاولات غير المجدية وهذه الجهود المستمرة لم ينته إلى أن أغدو - في النهاية - غيبا . . كان لابد من أن أدرس ديوان الشاعر «ميرجيل» EGLOGUES وأن أكرر الدرس مشرين مرة ، ومع ذلك فأنني لم افقه منه كلمة واحدة ! ولقد فقدت ، أو فكتكت ، عددا كبيرا من الكتب بامتياذي حبها معي في كل مكان ، سواء كان ذلك في اعشاش الحمام ، أو في الحديقة ، أو في البستان ، أو في مزرعة الكروم . وكنت أثناء انشغالي بشيء ، أضع الكتاب في أسفل إحدى الأشجار ، أو على السياج العشبي ، ثم كنت أفسى أن أخذه ثانية . . وكثيرا ما كنت أجده - بعد خمسة عشر يوما - تالفا ، أو يكون قرضه النمل والتواقع . وأصبحت هذه اللهفة إلى التعلم تهوسا دفعني إلى ما يقرب من العته والهاقة ، حتى أنني - لانشغال بالي - كنت لا أنفك أتهم وأغمغم !

ولقد أحالني مؤلفات « بور - رويال » وكتاب « الخطابة - اللذان كنت أعروهما بكثرة بالغة - إلى شخص نصف يانسيني » . وبالرغم من تهو إيماني ، فإن « لاهوت » هذا

المذهب المتناسى كان يزعجني أحيانا . . وأخذت رهبة الجحيم - الذي لم أكن حتى ذلك الوقت أخافه كثيرا - تقض طماننتي شيئا مشيئا . . ولو لم ترقه « ياما » عن نفسي ، لقلب هذا المذهب الرهيب كل كياني ! . . وقد بذل الراهب الذي اعتدت أن أغضي إليه باعترافاتي - والذي كان يتلقى استغاثاتها هي الأخرى - قصارى وسعه في أن يجعلني في حال ذهنية طيبة . وكان هذا الراهب من « الجيزويت » ، ويدعى الأب « هيميه » . وقد كان شيخا طيبا ، حكما ، ساظلا دائما وأومر ذكراه . ومع أنه كان « جيزويتيا » ، إلا أنه كان في سذاجة الطفل ، وكانت أخلاقه وأدعة أكثر منها متراخية ، وهذا عين ما كنت في حاجة إليه ، لأعيد إلى نفسي توازنها بعد الانطباعات الكثيرة التي أحدثتها « اليانسينية » . وكان هذا الرجل الطيب وزميله - الأب كويبيه - يفدان كثيرا لزيارتنا في (شارميت) ، ورغم أن الطريق كانت شديدة الوعورة ، وأطول مما ينبغي بالنسبة لمن هم في سنهما . ولقد كانت زيارتهما ذات أثر طيب عظيم على نفسي ، أسأل الله أن يسبغ على روحيهما جزاء مثله . . إذ كانتا طاعنين في السن - في ذلك الوقت - بحيث أنني لا أظنهما على قيد الحياة اليوم . وكنت - أنا الآخر - أذهب لزيارتها في (شامبيري) ، فالتفت دارهما تدريجا ، وأصبحت مكتبتهما رهن إرادتي . وإن فكرى هذه الفترة السعيدة لترتبط ارتباطا وثيقا بذكرى « الجيزويتيين » ، حتى أنني أحبه كلا منهما من أجل الآخر . ومع أن مذهبهما كان يبدو لي - دائما - خطرا ، إلا أنني لم أستطع أن أجسد قط ميلا إلى أن أوليها كراهية صادقة !

ولكم أود أن أعرف ما إذا كان يطوف بقلوب الغير من الأفكار الصبانية ما يطوف بقلبي أحيانا . ففى غمرة دراساتي ، وفى سياق حياة بريئة إلى أقصى ما يستطيع ، وبالرغم من كل ما قيل لى ، فإن الخوف من الجحيم لا يزال يزعجنى أحيانا . وكنت أسأل نفسي : « فى أى حال أنا ؟ .. وهل أدان لو اتنى مت فى هذه اللحظة ؟ » . وعلى هدى استفتى «البانسنيين» ، لم يكن ثمة ريب فى الأمر . ولكننى كنت أرى الحكم يختلف . على هدى ضميرى ! .. وإذا كنت دائما فى خوف ، اتخط فى هذا التذبذب القاسى « فقد أخذت الجأ - وأنا أبحث عن مخرج - إلى وسائل من ادعى الأمور للضحك ، وكنت من أجلها على استعداد لأن أحبس أى إنسان أراه يأتىها ! .. غنى ذات يوم ، أخذت - بطريقة آلية ، وأنا أفكر فى هذا الموضوع المقبض - أرمى جذوع الأشجار بالأحجار ، بما كان لى من مقدرة على الرماية .. أعنى دون أن أصيب أيا منها تقريبا ! .. وفيما كنت فى غمرة هذا العمل الطريف ، خطر لى أن اتخذ منه لونا من الشمعودة كى أظلمن قلقي . فقلت لنفسى : « سأرمى هذا الحجر نحو الشجرة المواجهة لى ، فإذا أصبت ، كانت الإصابة بفسا بالنجاة ، وإذا أخفقت ، فقد حاقت بى اللعنة » ! .. وفيما كنت أقول هذا ، طوحت بالحجر ، بيد مرتجفة ، وبخفان عثيف فى القلب .. ولكنى بتوفيق بالغ ، حتى أن الحجر أصاب الشجرة فى منتصفها تماما ، وهو أمر - إن شئتم الحق - لم يكن باليسير « إذ اتنى كنت قد عثبت باختيار شجرة غليظة الجذع جدا ، وقريبة جدا . ومنذ ذلك الوقت لم يعد يخالجنى

شك فى خلاصى ! .. ولست أدرى - وأنا أذكر هذا الحادث - الضحك أم اتحسر على تقبى ! أن لكم - أيها الكبار ، الذين تضحكون ولا شك - أن تطربوا ، ولكن .. لا تسخروا من ضعفى أو عبثى ، فإنى أقسم لكم إننى أشعر به تمام الشعور ! على أن هذه الاضطرابات ، وهذه الدموع التى قد لا يمكن فصلها عن التقوى والإيمان ، لم تكن حالا دائمة . فقد كنت - بوجه عام - موفور الهدوء ، وكان الأثر الذى خلفته فكرة الموت المبكر فى نفسى « أقل انتهاء إلى الحزن ، منه إلى الضعف والاستكانة الوداعة ، التى كان لها سحرها الخاص .. ولقد عثرت بين أوراق قديمة على قطعة رثاء كنت قد وجهتها إلى نفسى « اهتئها فيها على موتى فى سن بشمر عفاها المرء بقدر كلف من الشجاعة على مواجهة الموت ، دون أن أكون قد عانيت مئلا قاسية - بذنية كانت أو عقلية - خلال حياتى ! .. ولكم كنت مصيبا ! .. كان ثمة هاجس يخيفنى من الحياة خشية العذاب ! .. لكانها كنت أرى مقدما الحصر الذى كان فى انتظارى فى أواخر أيامى ! .. أبدا ما كنت قريبا من الحكمة بقدر ما كنت فى تلك الفترة السعيدة ! .. ففى بعدى عن الحيرة البالغة على الماضى ، وفى تحررى من هواجس المستقبل ، كان الشعور الغالب على نفسى باستمرار هو شعور الاستمتاع بالحاضر . أن الانتقاء يؤتون - عادة - قدرا ضئيلا من شسوة مفاجئة ، تجعلهم يتفوتون فى استمرار تلك الملاذ البريئة المباحة لهم . ولكن الدنيويين يرون فى ذلك جرما من جانب الانتقاء . ولست أدرى لذلك سببا .. لا ، بل أحسبني أعرف نفسي .. فبم

يحبسون الأتقياء على بهجة الملاذ الساذجة التي فقدوا هم طعمها . . . ولقد كان هذا الميل لدى ، توجدت من بواعث الغبطة أن أرضيه وأنا مطمئن الضير . . . وكان تلبى ما يزال غضا « فأسلم نفسه إليه تهايا ، وفي فرح الطفل ، أو بالأحرى - إذا كان لى أن أجرؤ على القول - في شيق الملاك ! . . . فقد كان لهذه المتع الوادعة ، ما لمباهج الفردوس من سحر جليل ! . . . كان تناول الغذاء على الحشائش في (مونتانيول) ، وتناول العشاء تحت الخمائل ، وجنى الفواكه ، واقتطاف العنب ، والأمسيات التي كانت تقضى في انتراع الياف القنب مع رجالنا . . . كل هذه كانت أعيادا حافلة وجدت « ماما » فيها عين ما كنت أنا أجد من سرور .

وكانت الزهات التي نقوم بها وحيدين ، ذات مقننة أشد وأكثر ، لأن القلب كان ينطلق متحررا . . . ولقد قمنا - فيها قمنا به منها - بنزهة تعتبر من المعالم في ذاكرتي - كان ذلك في يوم ميد للقديس لويس ، الذي سميت « ماما » باسمه ، وانطلقنا معا - وحيدين - في البكور ، بعد قداس جاء أحد الرهبان « الكرملين » ليلقيه علينا - في مطلع النهار - في كنيسة صغيرة ملحقة بالدار . وكنت قد اقترحت أن نتشى في جانب الوادي المقابل للجانب الذي كنا فيه ، ولم تكن قد زرناه قط . فأرسلنا زائدنا مقدما ، إذ كانت النزهة تستغرق اليوم بطوله . ولم تكن « ماما » ثقيلة في سيرها ، برغم أنها كانت بدنية ، ممثلة الجسم ، فأخذنا ننقل من هضبة إلى هضبة ، ومن غابة إلى غابة « في الشمس حينما وفي الظل أحيانا ، ونحن نستريح من



فأخذنا ننقل من هضبة إلى هضبة ، ومن غابة إلى غابة في الشمس حينما وفي الظل أحيانا .

أن إلى آخر ، وقد غفلنا تهما عن سير الزمن . وكنا نتحدث عن نفسي ، وعن رابطتنا الوثيقة ، وعن عذوبة نصيبنا في الحياة ، رافعين - من أجل دوامه - دعوات لم تستجب ! .. وكان كل شيء يبدو وكأنه يذير في الخفاء لجعل هذا النهار هنيئاً . وكان ثمة مطر قد تساقط منذ غرة قريبة . غلا اثر لغبار .. كما كانت ثمة جداول جارئة . ونسيم يداعب أوراق الشجر . وكان الهواء نقياً ، والأفق خلواً من السحب ، والسماء - كقلبي - يسودها الصفاء ! .. وتناولنا غداً في دار أحد الفلاحين ، وقد تقاسمناه مع أسرته التي باركتنا وشكرتنا من صميم الأفئدة . ما أطيب أولئك الفقراء من أهل ! سافوا !

وبعد الغداء ، لدنا بالظل نحت الأشجار الوارفة . حيث رجحت أنسلي بجمع بعض العيدان الخشبية الجافة لنعقد قهوتنا ، بينما كانت « ماما » تظلي بتفقد الأعشاب بين الأدغال . . وراة الزهور التي كنت قد جمعتها أثناء الطريق ، فأخذت تلفت نظري إلى الف غريبة وعجيبة في تكوينها ، مما لذ لي كثيراً . ومما كان خليفاً بأن يجعلني أميل إلى علم النبات ، لولا أن أوان هذا الميل لم يكن قد حان ، فقد كنت منصرفاً عنه إلى كثير من الدراسات الأخرى . وخطرت لي فكرة حولفتي عن الزهور والنباتات : فإني الجو الروحي الذي الفيض فيه ، وكل ما قلنا وفعلنا في ذلك اليوم ، وكل الأشياء التي ظلمت لي ، ذكرتني بذلك الحلم الذي رأيته وأنا في كامل اليقظة في (أنيس) قبل سبع أو ثماني سنوات ، والذي رويته في مكانه (١) . وكان الشبه من القوة

بحيث أنني حين تذكرت الحلم . اهتزت مشاعري تأثراً وانساب دمي . . وفي نوبة من الانفعال العاطفي : عانقت تلك الحبيبة الغالية ، وقلت لها في وجد : « ماما ، ماما . . لقد كنت موعوداً بهذا اليوم منذ أجل طويل ، ولست أرى ما يفوقه ! .. إن سعادتي - بفضلك - في أوجها . فليتها لا تتناقص بمد ذلك ! .. ليتها تدوم طالما ظلت أنعم باستمرائها ! .. ليتها لا تنقضي إلا مع انقضاء أجلى ! »

وهكذا أخذت تنساب أيامي السعيدة . . بل الأيام التي كانت أكثر من سعيدة ، حتى أنني - لعجزى عن أن أتبين ما قد يقوى على تعكيرها - كنت أنصور أنها لن تنتهي . في الواقع ، إلا مع نهايتي ! .. وليس معنى هذا أن تبع وسواسي كان قد نصب تهما ، وإنما كان معناه أنني رأيت هذه الوسواس تتخذ طريقاً آخر مكنتني من أن أوجه أحزاني وآلامي إلى أهداف نافعة ، جلبت عليها دواء ناجحاً ! .. ولقد كانت « ماما » تهب الريف بطبيعتها ، فوجد هذا الميل مني ما يذكىه . وما لبثت أن انتقلت إليها - تدريجاً - عدوى الشغف بالأعمال الريفية . . وكانت تحب تقويم الأرض (١) ، كما كانت لديها - فوق هذا - معرفة ومعلومات كانت تستغلها في هذا العدد باستماتة . ولم تقتنع بالأرض التي كانت تابعة للبيت الذي استولت عليه ، بل إنها كانت تستأجر تارة حقلاً ، وتارة مرجاً . وانتهت إلى أن ركزت روح ابتكار المشروع لديها في الأمور الزراعية ، بدلا

من أن تبقى عاطلة في الدار . وبدأت تعمل لكي تصير - في القريب العاجل - مزارعة كبيرة !

ولم أكن أحب كثيرا أن أراها تتوسع في ذلك ، فرحت أعارضها فيه قصارى ما استطعت ، وأنا واثق تمام الثقة من أنها كانت دائما تفكر فخطيء ، وأن روحها المتحررة السخية كانت تجعلها دائما على أن تنفق أكثر مما يعود عليها من إنتاج . على أنني وجدت عزاء في التفكير في أن هذا الإنتاج لن يكون معدوما - على الأقل - وأنه قد يساعدها على العيش . وبالنسبة إلى كافة المشروعات التي قدر لها أن ترسمها ، بدا لي هذا المشروع أقل إيقاعا للخراب بها . ومع أنني لم أر - مثلها - فيه موردا للربح ، إلا أنني رأيت فيه شاعلا بقيها باستمرار حيل المحتالين الخبيثة !

وبهذه الفكرة ، أصبحت أرغب كل الرغبة في أن استرد قوتي وصحتي معا ، حتى يتسنى لي أن أسهر على أعمالها ، وأن أغدو رئيسا لعمالها ، أو العامل الأول في خدمتها . ومن الطبيعى أن المران والرياضة اللذين جعلتني هذه الرغبة على القيام بهما ، أصبحا ينتزعاني في كثير من الأحيان من كتيبي ، ويشغلاني عن حالي الصحية ، مما كان خليقا بأن يسر بها نحو التحسن !

من سنة ١٧٣٧ إلى سنة ١٧٤١

عاد « باريو » من إيطاليا في الشتاء التالي ، وقد جلب لي معه بعض الكتب ، منها كتابا للأب بانشيرى : « بونتيبي » و « كارولا بير ميوزيكا » ، اللذان حيبا إلى دراسة تاريخ

الموسيقى ، والأبحاث النظرية في هذا الفن الجميل ، وبقي « باريو » معنا فترة من الزمن . ولما كنت قد بلغت سن الرشد قبل ذلك ببضعة أشهر ، فقد اتفقنا على أن أذهب إلى (جنيف) في الربيع التالي ، لأطالب بثروة أمي ، أو لأطالب - على الأقل - بذلك النصيب الذي خصني منها ، ريثما نستبين ما ألم بأخي . ونفذت هذه الخطة كما اتفقنا ، فذهبت إلى جنيف حيث لحق بي أبي ، وكان قد الف منذ فترة طويلة أن يزور المدينة دون أن يحثك به أحد . بالرغم من أن الحكم الذي صدر عليه كان ما يزال قائما ، ولكن أبي كان موضع التقدير لبرسالته ، والاحترام لامنته ، ننتظاهر أولو الأمر بأنهم نسوا قضيته الصغيرة . وكان الحكام في شغل شاغل بالمشروع العظيم الذي يزغ فجره بعد ذلك بقليل . ولذلك أبوا أن يشيروا ثائرة الطبقات الوسطى قبل الأوان ، بأن يذكروهم بتحزيبهم السابق في لحظة غير مواتية .

وخشيت أن تقوم في وجهي الصعوبات بسبب ارتدادى عن مذهبي ، إلا أن شيئا من هذا لم يحدث ، فتوائين جنيف في هذا الشأن ليست في صرامة قوانين (برن) ، حيث يفقد من يرد عن دينه لا منزلته فحسب بل أهلاكه أيضا . ولم يكن ثمة نزاع في حقى . إلا أن الميراث نفسه ، لسبب لا أدركه ، تضاعل إلى مبلغ تافه . ومع أن أخى كان - في غالب الظن - قد لقي ربه ، إلا أنه لم يكن ثمة دليل قانونى على هذا . لم يكن هندي من الأسانيد ما يكفى لأن أطالب بنحسبه ، فتركته عن طيب خاطر لأبى يستعين به على حياته ، وقد كان له الحق المنصف لما هو على قيد الحياة . وما أن تمت الإجازة القضائية وانتهت

مالى حتى أنفقت شيئا منه في شراء بعض الكتب ، وهرعت إلى «ماها» أضع الباقي تحت قدميها ، وكان قلبي يطلع بشرا أثناء الرحلة . وفي اللحظة التي وضعت فيها هذا المال في يدها، كنت أسعد ألف مرة من اللحظة التي تسلمته فيها ! .. وتقبلت هي المال قبول النفس السامية الرفيعة ، التي لا تجد من المسير عليها أن تأتي مثل هذا الفعل ، فلا يدهشها أن يعاملها الغير نفس المعاملة .. وقد أنفقت المال كله تقريبا على شخصي ، بنفس تلك البساطة التي اتسمت بها . ولو كان هذا المال قد جاء من مصدر آخر لأنفقت على نفس هذه الصورة !

ولم أكن ، في ذلك الوقت ، قد استعدت صحتي تماما ، بل — على العكس — كنت أذوى وأذبل بشكل واضح ! .. كنت في شحوب الموتى وهزال الهيكل العظمي ، وكانت ضربات عروقي مظيعة لا تحتمل ، وازدادت نبضات قلبي ، وكنت أعاني على الدوام من عسر التنفس .. وازددت ضعفا آخر الأمر حتى كنت لا أكاد أستطيع الحراك .. كنت لا أستطيع أن أأخذ السير إلا وأشعر بالاختناق ، ولا أنحنى دون أن بصيصي الدوار ، وتعذر علي رفع أصغر الأثقال ، فأكهرت على اليقضاء ساكنا جامدا ، وهو أكبر عذاب يصيب رجلا في مثل قلتي وضجري . ولا شك في أن مرضي كان مرده (الهستيريا) إلى حد كبير، فكانى قد بليت بذلك المرض الذي لا يصيب إلا السعداء ! .. فالدموع التي كثيرا ما كنت أذرفها دون سبب يدعو إلى البكاء .. وفرحتي واعتناني بحفيف ورقة من أوراق الشجر ، أو تفريد طائر طروب .. ومزاجي المتقلب في حياة بلغت ذروة الهناء

كل هذه كانت دلائل على كلال من تأثير السعادة يؤدي إلى حساسية مفرطة . ونحن لم نتزود للسعادة في هذا العالم إلا بالقليل ، مما يقتضي أن يعانى الروح أو الجسم .. إذا لم يعانينا معا .. وسعادة الواحد منها تؤذى الآخر دائما تقريبا . وببينا كنت مستطيعا أن أنعم بحياتي في سعادة تامة ، غلب انحلال جهاز جسمي كان يحصل بيني وبين ذلك ، دون أن يستطيع أحد أن يدلنى على موضع الداء منى . ويسدو أن جسمي قد استعاد فيها بعد قوته ، بالرغم من التداوى الذي أحسه في كبرى وآلامى المبرحة الحقيقية التي أصبحت في الكبر أشد قوة وتبريجا . واليوم ، وأنا أكتب هذه السطور ، وقد نال منى الضعف وبلغت السنتين من عمرى أو أكاد ، وغلبتنى الآلام من كل نوع على امرى ، أشعر أن في كيائى من الحياة والقوة على احتفال الألم ، أكثر مما كان لدى من الحياة والقوة على الاستمتاع — في ميعاة الصبا — في فترة من أصدق آيات السعادة .

ورقية في إذلال نفسي إذلالا تاما ، شرعت — بعد أن قرأت شيئا من الفلسفة — في دراسة التشريح ، وعرفت عدد الأعضاء المستقلة التي يتألف منها جهاز جسمي ووظائفها . وكنت أميل للشعور ، عشرين مرة في اليوم ، بأن الخلل قد دب في أعضائى جميعا ، ولم يكن يذهلنى قط أن أجدنى في حالة احتضار ، وإنما كان يدهشنى اننى ما زلت قادرا على الحياة ! وكنت أعتقد أننى مصاب بكل مرض أفسد أوصافه ، وأبلى بفتح منى . ولم يكن مريضا فقد جعلتنى هذه الدراسة الفظة كذلك .

أجد في الأعراض التي تنتابني أعراض كل علة ، فحسبتي مصابا بالعلل جميعا ! .. وبذلك انتابني مرض ، هو أقسى الأمراض جميعا ، وكنت أظنني براء منه .. وأعنى به الرغبة الملحة في أن أشفى ، وهى رغبة يتعذر على المرء أن يفلت منها إذا ما بدأ في قراءة الكتب الطبية ! .. وانتهيت بشئ من البحث والتأمل والمقارنة إلى أن أساس مرضى هو « ورم ليفى في القلب » ! .. وقد لاح على سالومون نفسه أن الفكرة أذهلته ، ولئن كان من الواجب أن تؤيدنى هذه الافتراضات تأييدا معقولا في قراراتى السابقة ، إلا أن الحال لم تكن كذلك ، فقد بذلت كل ما وسعنى من جهد عقلى لاكتشف طريقة علاج الورم الليفى الذى يصيب القلب .. وقد صح منى العزم على أن أتكمل بهذا العلاج الرابع .

ولقد قيل للقصي « أنيه » في رحلته إلى (مونبيليه) لزيارة حدائق النباتات ومسيو سوفاج - المعيد - بأن مسيو فيز قد شفى مريضا بهذا الورم الليفى ، وكان هذا كافيا لأن يوحى إلى برغبة ملحة في أن أقصد مسيو فيز للاستشارة .. فقد أعاد الأمر في الشتاء إلى نفسى الشجاعة وزودنى بالقوة على جشم مشاق الرحلة ، وكان المال الذى جئت به من جنيف عوثنى على ذلك .. وشجعتنى « ماما » على الذهاب ، وهى أبعد الناس عن أن تحاول إثنائى عن عزمى .. وهكذا وجدتنى في طريقي إلى (مونبيليه) ! وما كانت بى حاجة لأن أذهب إلى هذا المكان النائي سعيا وراء الطبيب الذى أنا في حاجة إليه ! .. واستقلت عربة في (جرينوبل) - إذ كان ركوب الجيصاد يعينى كثيرا - فوصلت إلى (موران) - بعد عربتى - خمس أو ست عربات

غيرها ، الواحدة في أثر الأخرى .. وكان معظم هذه العربات جزءا من موكب عروس زفت حديثا اسمها السيدة « دى كولمبيه » ، وكانت ترافقها سيدة أخرى هى السيدة « دى لارنجا » ، أصغر منها سنا ، وإن لم تكن جذابة في ملامحها مثلها هى في ظرفها .. وكانت تتوى أن ترتحل من (رومانس) - وهى المدينة التي ستوقف فيها السيدة « دى كولومبيه » - إلى مدينة (سانت أندويل) قرب (سان اسبرى) . ونظرا لما طبعت عليه من خجل ذاع صيته ، فلا تحسبن أنني تعرفت بهاتين السيدتين الظريفتين وحاشيتهما بسهولة .. ولكنى كنت أسافر في نفس الطريق الذى يسافرون فيه « وأنزل في الفنادق نفسيا التي ينزلون فيها ، فخشيت أن يقال عني إننى أبعث على السأم والملافة ، وكنت مكروها أيضا على الجلوس معهم إلى مائدة واحدة .. فوجدت من المستحيل على آخر الأمر أن اتجنب التعرف بهم ، ففعلت هذا .. تعرفت بالسيدتين بأسرع ما كنت أريد ! .. وبرغم أن كل هذه الضوضاء لم تكن لتناسب رجلا مريضا ، وخاصة إذا كان في مثل مزاجى ، إلا أن حب الاستطلاع يجعل هذه المخلوقات الماكرات غاية في الإغراء ، حتى أنهن عندما يردن التعرف برجل ، يبدأن في امتلاك لبه ، وهذا ما وقع لى ! .. بيد أنه كان يحيط بالسيدة دى كولومبيه بعض الشبان الخائفين ، إحاطة السوار بالمعصم ، مما لم يفسح لها الوقت للتعرف بى .. أضف إلى هذا أن الأمر لم يكن يستحق منها التفانا طالما أننا كنا على وشك الافتراق .. ولكن السيدة « دى لارنجا » ، ولم يكن ليحيط بمسألة هذا الافتراق من

المعجبين ، كان لا بد لها ان تتزود لرحتها بما يلزم ، وهكذا كانت السيدة « دى لارناج » هى التى أخذت على عاتقها ان تغزو قلبى . . . ومنذ ذلك الحين ، وداعا لجان جاك المسكين - او على الأصح وداعا للحصى والهستيريا والورم اللئيم - وداعا لكل شيء وأنا فى صحبتهما ، خيما عدا بعض تبضات القلب التى بقيت ، والتى لم يبد منها أى ميل لشغافى منها . وكان سوء حالتي الصحية هو أول موضوع تطرقنا إلى الحديث فيه . لقد كاننا تريان أننى مريض وتعلمان أننى ذاهب إلى «مونبلييه» ولا بد أن مظهرى وأخلاقى قد جعلت من الواضح أننى لست خليعا . . . ذلك أنه تبين لى ، مما تلا من الحوادث - أنهما لم تشبها فى أننى ذاهب إلى مونبلييه لكى اعالج من نتائج الخلاعة . ومع ان سوء الصحة ليس مما يحيب النساء كثيرا فى المرء فقد اتار مقبى اهتمام هاتين السيدتين ، فكانتا ترسلان إلى فى الصباح تسالان عن حالى وتدعوانى إلى تناول الشكولاتة معها ، وتسالانى كيف قضيت ليلتى . . . وذات مرة اجبت بأننى لا أدرى ، على ما الفت فى عادتى الحميدة من الكلام دون تفكير ، فحملها هذا الرد على الاعتقاد بأننى مجنون ، وشرمتا تفحصانى بدقة أكثر . ولم أصب من ذلك بضرة ، وإن سمعت السيدة « دى كولومبييه » تقول مرة لصديقتها : « إنه لا خلق له ولكنه ظريف » ، وقد شجعتنى هذه الكلمات كثيرا ودعتنى إلى العمل بمقتضاها !

وازدادت علاقتنا توثقا ، فاضطرت إلى ان أحدث عن نفسى ، وأن أفصح عن أكون ومن أين أتيت . وقد سبب لى هذا شيئا من الحيرة والارتباك ، لأننى أدركت بوضوح ان كلمة

«مرتد» ستقضى على سمعتى فى الطبقة الراقية وبين السيدات المهذبات ، ولست أدرى أية نزوة غريبة تلك التى تملكتنى وجعلتنى أقول إننى إنجليزى . ووصفت نفسى بأننى يعقوبى ، وسميت نفسى « دودنج » ، فآخذنا تدعوانى بالمستر دودنج ، وكان معنا شخص لسين هو « المركيز ده تورنيان » ، وكان مريضا مثلى . إلا أن كبر سنه وسوء خلقه كانا شغفا على إيالة ، وقد استبذت به رغبة فى محادثة بستر دودنج . وحذتنى عن الملك جيمس وعن مدعى العرش وبلاط سان جرمان القديم . وكنت على أحر من الجهر . فإننى لم أكن أعرف شيئا عن كل هذا الليم إلا القليل الذى قرأته فى كتاب الكونت هاملتون وفى الصحف . ولكنى احسنت استخدام ما كان فى جعبتى من معلومات ضئيلة حتى خرجت من ورطتى . . . ولحسن الحظ لم يسألنى أحد عن اللغة الإنجليزية التى لم أكن أعلم منهم شيئا كية !

وكنا على أطيب ما تكون العلاقات والود . ننظر إلى مراقنا نظرة أسف وحسرة ، وكنا نساغر نهارا . وفى صباح يوم أحد وجدنا أنفسنا فى «سان مارسيلان» ، وأبدت السيدة « دى لارناج » رغبتها فى حضور القداس ، فصحبتهما ، مما كاد يفسد خلطى : فقد مارست طقوس القداس كما كنت أفعل دائما ، واستنتجت هى من سلوكى المتواضع المتحفظ أننى من المتعبدين ، فساءت نكرتها عنى - كما اعترفت لى بعد ذلك بيومين ! - وقد اقتضائى الأمر قدرا كبيرا من الكياسة كى أمحو هذه الفكرة السيئة ، أو بالأحرى : أن أفسد سمعتى . وهى المرأة المحنكة الخيرة التى لا

كانت على استعداد لأن تخاطر بالتودد إلى لثري كيف أنقذ نفسي .. وقد أسرفت في التودد حتى أنقذ ، وأنا الذي لا أعالي في تقدير مظهرى الشخصى ، اعتقدت أنها تسخر منى ، وتملكتنى هذه الفكرة حتى لم يبق ضرب من ضروب الطيش والرعونة لم ارتكبه ! .. لقد كنت في ذلك أسوأ من المركيز دى ليجز (١) ، وكانت السيدة دى لارناج ثابتة العزم ، فحاولت إغرائى كثيرا ، وكانت تحدثنى في رقة بالغة ، حتى أن رجلا أحكم منى كان يجد من الصعب عليه أن يأخذ هذا كله مأخذ الجد ! وكلما الحت في سميها ازداد يقينى بفكرتى ، والذي عذبتى أكثر لما كثر أننى أصبحت جادا في ولعى بها ، نقلت لها - ولنفسى - في ثاوه : « آه ! لو أن كل ما تقولينه كان صحيحا ، لكنت أسعد مخلوق ! » . وأعتقد أن بساطتى المجردة إنما خيبت ظننا ؛ ولكنها لم تكن مستعدة للاقرار بالهزيمة !

وكنا قد تركنا السيدة دى كولومبيه وحاشيتها في (رومانس) ، وتابعا المسير في بطة ونحن في غاية السرور - السيدة دى لارناج والمركيز دى تورنيان وأنا - وكان المركيز ، بالرغم من أنه رجل مريض كثير التأفف والتذمر ، كيسا ظريفا ، غير أنه لم يكن مما يفتبط له أن يرى غيره من الناس يتشعرون ، دون أن يستطيع هو تذوق المذعة مثلهم ! .. ولم تمن السيدة دى لارناج إلا تليلا

(١) شخصية في كوميديا « ماريو » ، أحب لأول مرة وكان في غاية القبح من أن يوبخ به ، في حين أن شخصية الكونتس كانت على التقيض من شخصيته تماما .

بإخفاء ميلها إلى ، حتى أنه كان أسرع منى في ملاحظته . وكان يجب أن تزودنى تهكماته الخبيثة على الأقل بالثقة التى لم أكن لأجرؤ على استخلاصها من تودد السيدة إلى ، لولا أننى ظننت - في روح من العناد ، كنت أنا وحدى قادرا عليها - أنهما قد اتفقا على أن يلها على حسابى ! وأدارت هذه الفكرة السخيفة رأسى ثلها آخر الأمر ، وجعلتنى ألمع دور الغر الأبله في موقف ربما أمرنى فيه قلبى - وقد تملك الحب شفقانه - بأن اتصرف تصرفا أفضل من هذا التصرف بكثير . ولست أدرى كيف أن السيدة دى لارناج لم يتملكها النفور من كآبتى بحيث كانت تنأى عنى وهى تزودينى أشد الأزدراء . وإنما كانت امرأة بارعة تفهم من تعامل من الناس ، غرات في وضوح أن مسلكى كان يتسم بالغباء أكثر مما يتسم بغثور الهمة !

وافلحت المرأة آخر الأمر ، وبشى ، من المشقة : في البوح بما يكنه صدرها ، وكنا قد بلغنا (مالانيس) في موعد الغداء ، وبقينا بها - وفقا لعاداتنا الحبيدة - بقية النهار ، وحططنا رحالتنا خارج المدينة ، في (سان جاك) - ولن أنسى هذا الفندق أو الغرفة التى كانت تنزل فيها السيدة دى لارناج ! - وقد أرادت أن تقوم بنزهة بعد الغداء ، وكانت تعلم أن المركيز ليس مولعا بالسير ، وكان هدفها من ذلك أن تنفرد بى ، وببيت أن تنفزع بخلوتها معنى أكبر انتفاع ممكن ، ذلك أنه لم يبق ثمة وقت تضيمه ، إن كان قد بقى شيء من الوقت تنفزع به .. وسرنا حول المدينة وعلى طول الضنايق ، وعدت القى على من أراضى ، فكانت تجيب عليها في

بذراعى على قلبها ، حتى أنه لم يكن يحول بينى وبين الاقتناع بأنها تجد فى حديثها إلا غباوة كفاوتى ! .. أما الأمر الذى لم يحسب حسابه فهو أن الحب كان قد نال منى عنالا عظيما ، فلقد سبق لى أن قلت إن السيدة كانت ظريفة ، وقد جعلها الحب فاتنة ، وأعاد إليها كل بهائها فى صدر شبابها ، وكانت تصطنع فى توددها من المكر والدهاء ما كان خليقا بأن يفري رجلا من أوسع الرجال خبرة وتجربة . وكنت قلقا مضطربا ، وكثيرا ما هممت بأن أتجاوز معها حد الأدب ، لكن الخوف من إساءتها أو إغضبائها ، بل والخوف الأكبر من أن أصبح موضعا للسخرية والاستهزاء ، وأن أزود المائدة بقصة تروى عنى ، وأن يهتئنى المركز العاتى - الذى لا يرحم - على بسالتي - كل ذلك عاقنى وأثار غيظى من خلجى الأخرق وعدم استطاعتي التغلب عليه ، فى حين كنت أنحى على نفسى باللأئمة من جرائه .. لقد كنت فى عذاب اليم ، وكنت قد نبذت كلامى الذى يقرب عليه الحياء ، فقد شعرت بسخافته بعد أن قطعت من الطريق هذا الشوط الكبير . ولكنى ، وقد انتابتنى الحزن عام أعرف كيف أتصرف أو ماذا أقول، لزممت الصمت وعلت وجهى الكآبة . ومجمل القول أننى فعلت كل ما من شأنه أن يصيبنى بالمعاملة التى كنت أخشأها : .. على أن السيدة دى لارناج كانت لحسن الحظ رحيمة رؤوفة ، فقطعت حبل السكون فجساة بوضع ذراعيها حول رقبتى ، ثم حدثتني غمها - وقد أطبق على غمى - فى لغة صريحة واضحة لم تدع لى مجالاً لأى شك بعد ذلك . وما كانت الأزمة لتقع فى لحظة أسعد من تلك اللحظة ،

فلقد أصبحت ظريفا ، ومنحتنى ثققتها - وهى التى حال افتقارى إليها دائما دون أن أكون طيبعا . أما فى هذه المرة ، فقد كنت على سجيتى ، ولم يحدث أن أجادت عيناى ومشاعرى وقلبى - فى الحديث ، مثل هذه الإجابة ! .. كما لم يحدث لى من قبل أن أصلحت أخطائى هكذا تماما .. وإذا كانت هذه المشاورة الصغيرة قد كللت السيدة دى لارناج شيئا من الجهد والتعب ، فعندى من الأسباب ما يحلتنى على الاعتقاد بأنها لم تندم عليها !

ولو أننى عشت مائة عام لما استطعت أن افكر قط فى هذه المرأة الفاتنة دون فيض من السرور يطغى على ! وأنا أصفها بالفتنة ، لأنها وإن لم تكن بالصغيرة أو الجميلة فإنها لم تكن أيضا بالعجوز ولا بالدميمة ، ولم يكن فى وجهها ما يحول دون أن يظهر كذاؤها وطرغها فى أبهى حللها . ونحن إذا ثارناها مقارنة مستقبضة بشرها من النساء لوجدنا أن أقل ما يتصف بالنضارة وجهها ، واعتقد أنها أفسدت بما كانت تصبفه به من المسحوق الأحمر (الروج) .. وقد كانت لمة أسباب لاستهانتها بفضيلتها ، فقد كانت هذه خير وسيلة تؤكد بها مفاتها . كان من الممكن أن تنظر إليها دون أن تحبها ، ولكن ما كنت لتستطيع أن تتركها دون أن تعبدها ، ويلوح لى أن هذا من شأنه أن يثبت أنها لم تكن تصرف دائما فى حياء إسرائفا فيه معى .. لقد كان توددها إلى مفاجئا حيا ، حتى لبتعذر على أن أجد عذراء يبرره ، سوى أن قلبها كان له فى ذلك نصب كنصيب حواسها . وفى الفترة الوجيزة المنقطة بنفى صحتها .

اجتمعت لى اسباب ذلك الاعتدال الذى أرغمتنى عليه وفرضته على فرضا ، فإنها — برغم كونها شهوانية جياشة العاطفة — كانت تفكر فى صحتى أكثر مما تفكر فى متعتها !

ولم يفت المريكز ما كان بيننا من تقاضم ! على أنه لم يكف عن المزاح معى . بل أنه على التقيض كان يعاملنى — أكثر من دى قبل — معاملة العاشق البالغ الحياء ، شديد قسوة السيدة وحسودها ! ولم تكن تقلت منه كلمة أو ابتسامة أو نظرة تدعنى اشتبه فى أنه قد كشف أمرنا . . بحيث كان لى أن اعتقد أننا خدمناه ، لولا أن السيدة دى لارناج . وكانت أكثر منى فطنة وحذقا ، أخبرتنى بأن الحال ليست كما وصفت . بل إنه كان رجلا شهما من أصحاب المروءة والنبل . . والواقع أنه ما من أحد كان يظهر ما أظهر من أدب . أو يتصرف فى كياسة أكثر مما كان يتصرف هو دوما . حتى نحوى أنا — غيما عسدا تهكمه . وخاصة بعد نجاحى — ولعله كان يعزى الفضل فى ذلك إلى . واعتبرنى شخصا غير ذلك الأحق الذى كنت أبدوه — وقد كان فى ذلك مخطئا ، كما مر بنا ! — ومهما يكن من أمر فقد انفضت بخطئه . ومن الحق أن أقول إننى . وقد انقلبت كفة الميزان : كنت أحتفل نكاته بصدر رحب وسماحة : بل كنت أحبه عليها . والسعادة تغلب على — فخورا بأن اكشف أمام السيدة دى لارناج تلك الفطنة التى وصفتنى بها ، بعد أن لم أعد الرجل الذى كنته !

ولقد كنا فى الريف . وفى غسل تشبع فيه البهجة ، واستمتعنا به غاية الاستمتاع بفضل المريكز ، ولو أتى كنت

مستطيعا أن استغنى عن عنايته بنا . تلك العناية التى امتدت حتى شملت مخادعنا ، فقد كان يرسل خادمه ليحجز لنا حجراتا مقدما . وكان هذا الوعد . إما من تلقاء نفسه أو بناء على أوامر المريكز — يحجز لسيدة داتها غرفة مجاورة لغرفة السيدة دى لارناج . فى حين يلتقى بنا فى الطرف الآخر من الفندق . . على أن هذا لم يسبب لى من الحرج إلا القليل ، بل أضاف إلى فتنة مقابلتنا . . ودامت هذه الحياة البهجة السعيدة أربعة أو خمسة أيام . ثملت خلالها بأحلى اللذات ! كانت لذة حية لا ريف فيها . ولم تشبها أقل ثنائية من الآلام . . أول وآخر ما نعمت به من هذه المتع ! . . ولا يسعنى إلا القول بأننى مدين للسيدة دى لارناج بنى لن أرحل عن هذا العالم دون أن أعرف طعم المتعة واللذة !

لم يكن شعورى نحوها هو الحب بمعناه . وإنما كان على الأقل مجاورة رقيقة للحب الذى تظهره لى . . وكانت هى ملحة فى إشفاء غليلها من الصلة الجنسية ، طوذة فى ممارستها ، بحيث جعلت فيها كل ما يكون فى الهوى من فتنة وسحر ، مجردين من ذلك الهذيان الذى يدير العقل ويفسد المتعة . إننى لم أشعر بالحب الصادق إلا مرة واحدة فى حياتى ، ولم يكن هذا معيا ، بل إننى لم أحبها كما أحببت وما زلت أحب مدام دى فاران ، ولكن امتلاكها كان يضى على من المتعة ما يفوق متعنى مع الأخرى مائة مرة ! . . لقد كانت متعنى مع « ماما » يشوبها دائما شعور بالحزن . . شعور دفين بالفساد يرفعه القلب . . شعور كنت أجد صعوبة فى التغلب عليه . .

تهنئة نفسي على امتلاكها كنت انحى على نفسي باللائمة لإذلالها وتحقيرها ! .. أما مع السيدة دى لارناج فقد كنت ، على العكس ، نخورا برجولتي وبسعادتي .. وأطلقت لنفسى العنان فى اطمئنان وفرح - لإشباع رغباتي - ولقد شاركتها الشهور الذى بعثته فيها ، وكنت امتلك زمان نفسي ، وانظر إلى فوزي نظرة الارتياح النفسى التى أنظر بها تمامي إلى المتعة - واستمد منها الوسيلة التى تعيننى على مضاعفتها :

ولا أذكر متى تركنا المركز - الذى كان من اهل المنطقة - غير أننا كنا وحدنا عندما بلغنا (مونتيليمار) ، حيث أحرمت السيدة دى لارناج خادمتها بأن تستقل عربتي ، بينما ركبت أنا عربتي . واستطيع أنؤكد لكم أننا بهذه الطريقة لم نجد الرحلة ساقية . وإننى لأجد من الصعب على أن اصف المنطقة التى اجتزمناها : وقد بقيت السيدة فى (مونتيليمار) ثلاثة أيام ، نعضى شئونها . على أنها لم تتركنى خلالها إلا ربيع ساعة قامت فيها بزيارة . عادت عليها بدعوات عاجلة ملحة . ولم تكن ميالة بأى حال من الأحوال لقبول هذه الدعوات . فزعمت أنها بمنوعة المراجع ، على أن هذا لم يحل بيتنا وبين السير سويا وحدنا - كل يوم - فى أجمل بقعة من بقاع الريف ، وفى ظل أجمل سماء فى العالم .. واحسرتاه على تلك الأيام الثلاثة ! لقد جد فى حياتي من الأسباب ما دعانى للندم عليها أحيانا ! فما استمتعت قط بمثلها بعد ذلك !

والحب أثناء السفر لا يمكن أن يدوم . وهكذا اضطررنا للانفراق .. واعترف إن الوقت كان قد حان لذلك ، لا لأننى

انعمت وزهدت ، أو لسبب من هذا القبيل . بل إننى كنت أزداد ولعاً بها يوماً بعد يوم ، غير أننى بالرغم من حرصها ، لم يبق لى - فيما خلا صفاء النية - إلا القليل . وقبل أن نفرق أردت أن أستمتع بذلك القليل . فاذعننت لى لرغبتى - على سبيل الاحتياط من غادات (مونتيليمار) . وتحايلتنا على ما كان يمر بنا من أسى بإعداد العدة للمقابلة مرة أخرى .. وكان قد تقرر أن استمر فى العلاج ، الذى افادنى غائدة عظمى ، وأن اقضى الشتاء فى (سانت انديول) تحت رعايتها . على أن أبقى خلسة أسبوع أو ستة فقط فى مونتيليمار ، حتى أفسح لها الوقت ، لكى تعد الترتيبات التمهيدية الضرورية : متعا للفضيحة . وقد لغتثنى التعليمات المفصلة عما كنت بحاجة إلى معرفته - وما يجب أن أقول والكيفية التى يجب أن اتعرف بها عليها ، وكان علينا فى الوقت نفسه أن نبادل الرسائل . وقد حدثنى طويلاً فى جد واهتمام عن وجوب العناية بصحتى ، ونصحتنى بأن استشير بعض الأطباء الماهرين وأن اعنى باتباع ما يشررون به ، وأخذت على عاتقها أن تجعلنى أنفذ تعليماتهم ، مهما كان من صرامتها ، طالما أنا معها . واعتقد أنها كانت تتحدث فى صدق وإخلاص ، إذ أنها كانت تحببى ، وقد زودتنى بالأدلة الكثيرة على ذلك . التى يعتمد عليها أكثر من الاعتماد على هبتها نفسها لى ! .. وقد أمكنها أن تحكم من طريقة سفرى بأننى لم أكن اتمرع فى المال ، ومع أنها هى أيضاً لم تكن بالموسرة بأى حال من الأحوال إلا أنها كانت تريد أن تقاسمنى ما فى كيبى نقودها ، وكانت قد جاءت به مليئاً من (جرينوبل) .

في حبليها على قبول اعتذارى « وتركتها أخيرا ، تاركا في قلبها -
قيما اعتقد - حبا صادقا لى !

وانتهت رحلتى ، بينما كنت استعديدها في ذاكرتى منذ
البداية . وكنت قانعا في تلك اللحظة كل القناعة بأن اجلس في
عربة مريحة أحلم « في راحة ويسر ، بالمنع التى كان من نصيبى
أن أنعم بها ، وبذلك التى وعدتني بها . لم أكن أفكر إلا في (سألت
أندوبل) والحياة البهيجة التى كانت تنتظرني فيها . ولم أكن أرى
إلا السيدة دى لارناج وبينيتها . . أما بقية العسالم فلم تكن
بالنسبة لى شيئا مذكورا ، حتى « ماما » نسيقتها ، واستغرقت
في التفكير في كافة التفاصيل التى ذكرتها لى السيدة دى لارناج
حتى توحى إلى مقدما بفكرة عن منزلها وعن جيرانها وأصدقائها
وطريقة حياتها . وكانت لها ابنة ، كثيرا ما حدثتني عنها في
عبارات من الحب أسرفت فيها كل الإسراف . وكانت ابتغيا
هذه في السادسة عشرة من عمرها ، رشيقة غائفة ودود .
ووعدتني السيدة دى لارناج بأننى سأكون ولا شك صاحب
الحفلة الكبرى عندها . ولم أنس هذا الوعد ، وقد استبد بى
الفضول لكى أرى كيف تتصرف الأنسة دى لارناج نحو صديق
أمها الحميم ! كانت تلك هى أحلامى من (بون سان أسبرى «
حتى (ريمولان) . . ولقد قيل لى أن اذهب وأشاهد «بون دوجار»
(جسر الحرس) . ولم يفتنى أن أفعل ، فلقد كان الجسر هو
الأثر الرومانى الأول الذى شاهدته . وانتظرت أن أرى نصبا
جديرا بالأيدي التى أقامته . . ولليرة الأولى والأخيرة في حياتى

جاوزت الحقيقة ما كنت أتخيل : لم يكن يستطيع غير الرومان
إقامة هذا الأثر الخالد !

لقد اثر في نفسى منظر هذا العمل البسيط . النبيل مع ذلك ،
أعظم تأثير . . ذلك أنه كان يقوم في قلب الصحراء . حيث
السكون والوحدة يبرزان الأشياء إبرازا عظيما ويتم أن شمورا
بالإعجاب أقوى وأشد ، إذ أن هذا الجسر المزعوم لم يكن إلا
مجرى ماء فوقه غناطر . ومن الطبيعي أن يتساءل المرء أية قوة
تلك التى نقلت هذه الأحجار الضخمة إلى هذا المكان النائي عن
أى محجر من المحاجر ، وتمثلت في أذرع الآلاف المؤلفة من
الرجال في بقعة لا يقيم أحد منهم فيها !

واجتزت الطبقات الثلاث التى كان يتألف منها هذا المناء
البديع . وكنت أشعر داخلها باحترام كاد يمنعنى من أن أماتها
بقدمى ! وحملتني صدى وقع قدمى تحت هذه الأقبية العظيمة
على أن أخيل أننى أسمع الأصوات القوية لأولئك الذين أقاموا
صرحها ! شعرت أننى ضائع في وسط هذه العظيمة كأننى
الحشرة . وشعرت بالرغم من إحساسى بضالتي كان روحى قد
سمت بطريقتة ما . وقلت أحدث نفسى وأنا أتأوه : « لماذا لم
أولد رومانيا ؟ » ، وبقيت في ذلك المكان بضع ساعات في تأمل
يذهل العقل ، وعدت وأنا سارج الفكر ، ولم يكن شرود الفكر
ليوافق السيدة دى لارناج ، وهى التى عانيت بأن تحذرنى من
فتيات (مونيبييه) ، لا من جسر الحرس . . لكن لم يكن
فى كل شيء !

وفي (نيم) ذهبت لأشاهد اللعب المدرج ، انه عمل أكثر روعة بكثير من جسر الحرس . إلا أن تأثيره على كان أقل بكثير من تأثير الجسر . فلما أن الجسر قد استنفد كل إعجابي - أو أن المدرج ، وهو يقع في وسط المدينة - كان أقل من أن يثير إعجابي ! لقد كانت تحيط بهذا الميدان البديع النسيج الأرجاء منازل صغيرة قبيحة ، وأمثلة الحلية بمنازل أخرى ، أصغر وأقبح . حتى أن المنظر كله كان يبعث في النفس الشعور بالاضطراب وعدم التناسق . كما كان الغفور يخمد المتعة والدهشة ، وقد رأيت منذ ذلك الحين ملعب « غرونا » وهو أصغر بكثير وأقل مهابة وجلالا . ولكنهم احتفظوا به في أكبر قدر ممكن من النظافة والاناقة ، ولهذا السبب وحده أثر في تأثيره أبلغ وأقوى ، ووضع من نفسي موقع القبول . إن الفرنسيين لا يعنون بشيء ولا يجتهدون التصيب ، وهم توافقون أشد التوق للقيام بأي عمل . ولكنهم لا يعرفون كيف يتمونه أو كيف يحفظونه سليما إذا ما أنتجوا منه !

لقد تبدلت حالتي كثيرا ، واستيقظت احساسى - وكانت قد تنبهت إلى العمل - حتى بقيت يوما بأكمله في فندق ابون دى لونيل (لأنهم مع الزائرين الآخرين بطبيب الجو الذى شاع فيه . وكان هذا الفندق - إذ ذاك - أشهر فندق في أوروبا . كما كان جذيرا بها اكتسب من صيت ، فقد عرف أصحابه كيف يستغلون موقعه البديع ، فزودوه بغرفة من أطباء المأكولات . لقد كان من الغريب حقا أن تجد في دار فائقة منعزلة - وفي وسط الريف - مائدة زودت بسمك البحر وسمك النهر ولحوم الصيد الطبيعية والخمور المنتقاة ، تقدم لك في أدب وكياسة لا تجدهما إلا في بيوت

العظماء والموسرين . . وكل هذا بخمسة وثلاثين « سو » لشخصي ! . . إلا أن « جسر دى لونيل » لم يبق في هذا المستوى طويلا . إذ أنه تمادى في استغلال سمعته - حتى فقدوها بأسرها في النهاية !

ولقد نسيت أثناء رحلتي أنني كنت مريضا . فلم أتذكر ذلك إلا عندما بلغت (مونبيليه) . ولقد كان من المحقق أنني شغيت من نوبات الهستيريا التي كانت تشاينى . إلا أن كل على الأخرى بقيت . ومع أن اعتيادى إياها جعلنى أقل إحساسا بها ، إلا أنها كانت تكفى لأن تحمل أى إنسان على الاعتقاد - إذا ما تعرض لنوباتها فجأة - بأنه على باب القبر . كانت هذه العلل - في الواقع - أكثر بعثا للانزعاج منها إثارة للألم ، وكانت تسبب من عذاب العقل أكثر مما تسبب من عذاب الجسم . وهى التي كانت تعلن عن تدميره فيها يلوح . ومن ثم فأنسى كنت - حين أشغل بالالفعالات الدنيوية - لا أفكر في حالتي الصحية . ولكن على لم تكن خيالية . فكنت أعود إلى الاحساس بها مرة أخرى عندما يعاودنى هدوئى ، وبدأت عنفوذ أفكر تفكيرا جديدا في نصيحة السيدة دى « لارناج » . وفي هدنى من رحلتي ، فاستشرت أشهر الأطباء وعلى الأخص السيد « فيز » .

وزيادة في الحبطة ، نزلت عند طبيب . كان إيرلنديا اسمه « فيز موريس » ، وكان يترى عنده عدد عظيم من طلبة الطب . وبما جعل منزله أكثر مدعاة لراحلة السفر المقصود أنه كان يقع بأجر معقول لقاء المأكل والمشرب والمأوى .

نزلائه في مقابل الرعاية الطبية ، وقد أخذ على عاتقه أن ينفذ تعليمات السيد « فيز » ، وأن يمتن بصحتي . أما فيما يتعلق بالغذاء فقد كان يوفى ما عليه وفاء يدعو للأعجاب . لا يكن بين النزلاء من يعاني عسر الهضم . ومع أنني لم أكن ممن يابهون بالحرمان من الطعام ، إلا أن الفرص التي تبيىء لي المقارنة كانت في متناول يدي ، حتى أنني لم أتمكن في بعض الأحيان من أن أتبين - فيما بيني وبين نفسي - أن السيد دي «دورنيان» كان موردا للأغذية أفضل من السيد « فيتز موريس » ، وعلى كل حال فلم تكن تشكو الجوع نهائيا . وكان الطلبة الشبان غاية في المرح ، وقد أضافتني حقا هذا الأسلوب من أساليب الحياة ، وحال دون إصابتي بما كان يتأبى قبلا من الاكتئاب . وكنت أقضي الصباح في تناول الأدوية ، وخاصة بعض المياه - التي اعتقد أنها كانت تأتي من (فالس) ، وإن لم أكن وافقا من ذلك - وفي الكتابة إلى السيدة دي «لارناج» . ذلك أن الرسائل ظلت مستمرة ، وقد آلى روسو على نفسه أن يأتي بخطابات صديقه « دودنج » .

وكنت انطلق - عند الظهر - في جولة إلى الكانورج مع أحد زملائنا الشبان الذين كانوا ينزلون معنا . وقد كانوا جميعا على خلق عظيم . وكنا نجتمع بعد ذلك لتناول الغداء . فإذا ما فرغنا منه ، كان معظمنا يشغل بمسألة هامة حتى المساء . تلك هي أننا كنا ننطلق إلى خارج المدينة ، لنلعب دوريين أو ثلاثة من لعبة الكرة والصولجان ، ولنتناول شاي الأصيل . ولم أكن أشارك في اللعب معهم ، إذ لم تتوغل لي القوة أو

البراعة في اللعب ، ولكني كنت أراهن على النتيجة . . وهكذا كنت أتبع لاعبينا وكراتهم عبر الطرق الوعرة الصخرية ، وأنا مهتم برعائي ، غانم بريضة صحية ممتعة ، كانت تناسني إلى أقصى حد . وكنا نتناول الشاي في مقصف خارج المدينة ، وغنى عن البيان أن هذه الوجبات كانت مليئة بالمرح ، ولكنني أضيف إلى هذا أنها كانت محتشمة ، بالرغم من أن فتيات المقصف كن جميلات ! . . وكان رئيس الفريق هو السيد « فيتز موريس » نفسه ، فقد كان لاعبا عظيما . واستطيع أن أقول - بالرغم من سوء سمعة الطلبة - أنني وجدت بين هؤلاء الشبان من الأدب والحشمة ما لا يسهل العثور عليه بين عدد مساو لهم من الرجال الناضجين . . كانوا مهمل للوضوء منهم للفسق ، والمرح منهم للخلاعة . ولما كان من السهل على أن اعتاد أي سبيل من سبل الحياة - عندما يكون ذلك باختيار - فأنني لم أعد أتنبأ أكثر من استمرار هذه الحال .

وكان بين الطلبة عدد من الأيرلنديين حاولت أن اتعلم منهم بضع كلمات إنجليزية تأهباً لأهالي إلى (سانت أندريول) ، فقد كانت السيدة دي « لارناج » تستحثني في كل بريد ، وكنت على استعداد لكي أذعن إلى رغبتها . وكان من الواضح أن أطبائي - وقد غاب عنهم علتي - اعتبروا ألا وجود لها إلا في مخيلتي . وبناء على هذا فإنهم كانوا يعالجونني بأعشابهم الصينية ومياههم واللبن الخثر . . والأطباء كالفلاسفة ، ولكنهم يخطئون جد الاختلاف عن علماء أصول الدين - إذ أنهم لا يرون بأن شيئا ما صحيح إلا إذا كان في الكتاب المقدس .

انهم يجعلون من إدراكهم مقياسا لكل ما هو ممكن ! .. ولم يكن هؤلاء السادة يدركون شيئا عن غلتي . ولذلك لم أكن مريضا البتة ، في رأيهم ! .. فإن الأطباء يعرفون كل شيء طبعاً ! .. وكنت أرى أنهم إنما يحاولون خداعي وجعلني على إفتاق مالي ، ولما كنت اعتقد أن نائبتهم في (سانت انديول) ستشفل عين ما كانوا يفعلون - ولكن بطريقة اضرب - فقد مسح عرسي على أن أفصلها عليهم ! .. وما أن قر رأيي على هذا القرار الحكيم ، حتى رحلت عن مونتبيليه ، غادرتني في أواخر شهر نوفمبر ، بعد أن أقمت فيها ستة أسابيع أو شهرين . وبعد أن أنفت فيها اثني عشر « لوى » (١) دون أن يمسود ذلك ، بأي نفع على صحتي أو على إدراكي . اللهم فيما عدا مقيح في النشريح بدائه تحت إرشاد السيد « فيقر موريس » واضطرت أن أكف عن تلقيه نظرا للراحة النفثة التي كانت تساعد من الجثث المشرحة ، فقد وجدت أن من المستحيل على أن اتحملها !

وشعرت أنني غير مستريح للقرار الذي اتخذته ، مشرعت أفكر فيه وأنا أوصل رحلتي صوب « يون سان اسبري » ولكن الطريق يؤدي إلى (شامبيري) كما كان يؤدي إلى (سانت انديول) ، غائرت ذكرى « ماها » ورسائلها - ولو أنها لم تكن تكتب كثيرا كما كانت السيدة دي « لارناج » تفعل - لواعج الحسرة في فؤادي من جديد . بعد أن كنت قد أخذتها في

(١) اللوى عملة ذهبية كانت قيمتها ٢٠ فرنكا .

السطر الأول من رحلتي . . وكانت في عودتها قوية عتيقة . حتى أنها رجحت على حب المتعة ، فلم أجد مفاصا من الاستماع إلى صوت العقل وحده . ولعلني كنت في دور الأتاق - الذي عدت إلى الشروع في أدائه - أقل توفيقا وحظا كما كنت في المرة الأولى . ذلك لأن الأمر - في هذه المرة - لم يكن يتطلب سوى أن يوجد في بلدة (سانت انديول) بأسرها ، شخص واحد . سبق له أن زار إنجلترا . وعرف الإنجليز ، ويمكن من لغتهم « حتى يقتضح أمرى ! .. وكان من المحتمل ألا أروق لاسرة السيدة دي « لارناج » ، فعمالتي يقليل من الكياسة . إذ كانت ابتغيا - التي كنت أفكر فيها ، بالرغم منى . أكثر مما كان ينبغي - تسبب لى قلقلنا يفارقتى . . وكنت أرتجف لمجرد احتمال أنني قد أقع في هواها ! .. وكان هذا الخوف يؤلف نصف العوايل التي كانت تحملني على العدول . . وكنت أقول لنفسى : أترانى - في مقابل اغضال الأم - أسعى لإفساد الابنة وللدخول معها في علاقة بغيضة ، تصيب الأسرة بالتصدع والعار والفضيحة والجحيم معا ؟

كانت هذه الفكرة توقع الرعب في نفسى ، ومن ثم فقد صممت تصميمًا جازما على أن أقاوم هذه النفس واهزمتها . إذا أنا شعرت بمثل هذه الرغبة الدنيئة . ولكن . . لماذا أعرض نفسي لصراع كهذا ؟ . . أية حال تمسكة من العيش تلك التي تدعوني إلى أن أحيا مع الأم - التي كنت أوقن من أنني سأميتها - بينما يضطرم قلبي بحب الابنة . . أية ضرورة - أكتشف لها قلبي ؟ . . وأية ضرورة -

ك هذه ، أتعرض فيها للإهانات والنعم ، في سبيل منع خيليت مقدما بأعظمها فتنه . . . ذلك أنه كان من المحقق أن أهوائى كانت قد فقدت حدتها الأولى . . . كان الميل للمتعة ما يزال قويا ، ولكن العاطفة المتأججة كانت قد ولت . وقد خالطت ذلك أفكار تتصل بموقفى ، وواجباتى ، وتلك الأم المفرطة الطيبة والكرم ، التى تورطت في ديون - فوق التى كانت تثقل عاتقها - في سبيل نفقاتى الطائشة ، والتى انفتحت كل ما كانت تملك من أجل ، أنا الذى كنت أضعها بخبة . . . ولقد اشتد هذا التائب وثقل على ضميرى حتى انقلبت الكفة آخر الأمر ، فما أن اقتريت من إسان أسبرى ، حتى قررت أن أسرع باجتياز (سان أنديو) دون أن أتوقف فيها . ونفذت هذا القرار ببسالة ، وإن كنت لا أنكر أننى زفرت بعض زفرات . بيد أننى في رضائى عن نفسى ، كنت أتذوق - للمرة الأولى في حياتى - لذة القدرة على أن أقول : « من حقى أن أشيد بذكر نفسى ، فأننى أعرف كيف أقدم واجبى على مقعنى » !

وهذا هو الالتزام الحقيقى الأول ، الذى خرجت به من دراستى ، إذ أنها علمتنى أن أفكر ، وأن أقارن . . . وبعد مبادئ الطهر والعفة - التى انتهجتها منذ عهد قريب - وبعد قواعد الحكمة والفضيلة التى ارتضيتها لنفسى ، والتى كنت نخور كل الفخر باتباعها ، وجدتنى أشعر بالخزى من أن أكون متساهلا مع نفسى ، ومن أن أخالف قواعدى المقررة بهذه السرعة وهذه القوة ، وطمخى هذا الشعور على ، فانتصر على المتعة ، وربما

كان للاعتزاز بالنفس نصيب - في قرارى - يعادل نصيب الفضيلة سواء بسواء . ولكن ، إذا لم يكن هذا الاعتزاز هو الفضيلة ذاتها ، فإن آثاره كانت تشابه آثار الفضيلة إلى درجة أن المرء يخطئ في التفريق بينهما !

ومن الآثار الطيبة للأفعال الصالحة ، أنها تسهم بالروح وتميل بها إلى الاتيان بشئ أفضل - ذلك أن الضعف البشرى بلغ مبلغا عظيما ، حتى ليتنبى لنا أن نسلك في عداد الأفعال الصالحة الامتناع عن الشر الذى تغربنا نفوسنا على ارتكابه . . . وما أن اتخذت قرارى حتى أصبحت رجلا آخر ، أو - على الأصح - أصبحت الرجل الذى كنته من قبل . . . الرجل الذى حملته نشوة هذه التجربة على أن يخطئ . فواصلت رحلتى وقد انطوى صدري على أطيب المشاعر وأفضل القرارات ، منتويا التفكير عن خطئى ، وعدم التفكير إلا في تنظيم سلوكى في المستقبل على أساس من قوانين الفضيلة ، مكرسا نفسى دون قيد أو شرط لخدمة أبر الأمهات ، منذرا لها إخلاصا يعادل حسى لها ، منصتا لنداء واجبى وحده ، ولكن والاسفاه . . .

كان إخلاصى في العودة إلى الفضيلة ، يبدو وكأنه يخفى، لى مصرا آخر . بيد أن مصرى الحقيقى كان قد كتب في لوح القدر ، وبدأ يتحقق فعلا . وفي اللحظة التى لم يكن فيها قلبى - الزاخر بحب كل ما هو طاهر وشريف - يرى أمله سوى البراءة والسعادة ، كنت أقرب من اللحظة الفائلة التى قدر لها أن تجر وراءها تلك السلسلة الطويلة من الكوارث التى طشت راي . كان تعجل الوصول قد جعلني أعمى ، ولكنني أكره

كنت انتوى ، وكنت قد ارسلت خطابا إلى « ماما » من (فالانس) اخبرها فيه باليوم والساعة اللذين توقعتم ان أصل غيبيما . ولما كنت قد استيقمت موعدى بنصف يوم ، فقد قضيت ذلك الوقت في (شباباريان) لكي أصل في اللحظة التي عييتني بالضبط . وكنت اتوق إلى ان استمتع غاية الاستمتاع بمرأها ثانية . ففضلت ان اؤجل وصولي قليلا حتى اضيف إلى ذلك منعة الشعور بان ثمة من ينتظره . وكان حطيف هذا الاجراء النجاح دائما ، فقد كنت أجد القوم يحتفلون بوصولي - في كل مرة - وكأنه يوم عيد صغبر . وهذا ما توقعته في هذه المناسبة . وكانت تلك العناية - التي كانت تهفو بالقلب والمشاعر - جديرة بالتعب الذي كان يبذل في سبيل الظفر بها !

ووصلت في اللحظة التي ميّنتها تماما . ومذ كنت على مسافة بعيدة من غاييتي ، رحلت انعم النظر في الطريق ، علني اراها . . « ماما » ! . . وراح قلبي يخفق في عنف أخذ بطرد بازدياد اقترابي . ووصلت وأنا الهث - إذ أنني كنت قد تركت عربتي في المدينة . . ولم أر أحدا في القناء أو عند الباب أو مطلا من النافذة ، فبدا القلق يساورني خشية أن يكون قد وقع حادث . . ودخلت فإذا كل شيء هادئ ، وبعض العمال يأكلون في المطبخ ، ولم تكن ثمة إمارات تنم عن ان القوم بنظرونتي . وبدت الدهشة على الخادم لرؤياي إذ أنها كانت تجعل أمر تسدومي . وصعدت الدرج . . وأخيرا رأيته . . تلك الأم العزيزة ، التي اجتمع لها في قلبي كل ما في الحب من رقة وقوة وإخلاص . وهرعت إليها ، فالتقيت نفسي عند قدميها . وقالت

لي وهي تعانقني : « آه أذن فقد عدت أيها الصغير ! . . اكانت رحلتك ممتعة ؟ . . كيف حالك لا » . . وأذهلني هذا الاستقبال بعض الشيء ، فسالته عما إذا كانت قد تلقت خطابي . وجابني بنعم ، فقلت : « ما كنت أعتقد هذا » . . وانتهى الحديث عند هذا الحد . فقد كان معها شاب تفكرت أنني رأيته في المنزل قبل رحلي . ولكنه بدا - في هذه المرة - وكأن المقام قد استقر به هناك . وكان ذلك هو الواقع فعلا . ومجمل القول أنني وجدت من حل محلي !

وكان هذا الشاب من منطقة اغو . وكان أبوه . . واسمه « فنزونريد » - أمين حصن (شيبون) - أو كبير ضباطه كما كان يدعونه نفسه . أما الابن فقد كان عاملا يصنع الشمसर المستعار ، وكان يطوف بالبلاد يمارس مهنته ، عندما قدم نفسه إلى السيدة دي « غاران » فاحسنت استقباله ، كما كانت تفعل مع عابري الطريق جميعا ، لا سيما أولئك الذين يكونون قادمين من مسقط رأسها . وكان الشاب ذا شعر أشقر غزير حائل اللون ، وجسم بدیع التكوين ، ووجه سمين ، وعقل في ثقل جسمه . . فقد كان يتحدث كالمفروور المتحذلق ، وهو يخلط بين اللهجات ، ويهزج الأحاديث التي تعطيها مهنته بقصة طويلة - عن مقامراته وفتوحاته الغرامية - لم يكن يضمنها ، فيما زعم ، سوى نصف من ضاحكين من المركيزات ! . . وكان يدعى أنه ما صنف شعر حسناء ، إلا وزين رأس زوجها أيضا ! . . كان مفروورا أخيرا ، فاستقر في مكان عدا هذا ، فقد كان من أحسن الشر

البديل الذى حل محلى أثناء غيابى والرفيق الذى قدمه إلى بعد عودتى ! وإذا كانت الأرواح التى تنطلق من القبور الجنوية . نظل ترى - خلال أضواء الأبدية - ما يجرى بين أهل الأرض . فاغفر لى - إذن - أيها الطيف الحبيب الأثير - أننى لا أغض الطرف عن أخطائك ولا عن أخطائى ، بل أننى أكتشف عنهما جبهىما أمام القارئ ، وعلى قدم المساواة ! .. لسوف أكون - ولابد لى من أن أكون - صادقا نحوك صدقى نحو نفسى . ولن يصيبك من ذلك قط إلا ما يقل كثيرا عما يصيبنى أنا ! .. أه ! كم بكفر خلقك الوديع الرقيق ، وطيبة قلبك - التى لا ينضب معينها - وصراحتك ، وكل صفاتك الباعثة على الإعجاب .. كم تكفر هذه عن نقاط ضعفك . إذا ما ذكرت تلك القوى التى يمكن أن توصف بأنها من أخطاء عقلك وحده ! .. لقد خذلت . ولكنك كنت براء من الرذيلة - ولقد استحق مسلكك اللوم . ولكن قلبك ظل نقياً دائماً .

ولقد أظهر القادم الحديث غيرة وحمية وعناية بتنفيذ الشؤون الصغيرة العديدة التى كانت « ماما » تحتاج إليها ، ونصب نفسه رئيساً على عماليها .. وكان كثير الضجيج ، بقدر ما كنت شديد الهدوء ! .. كان يقوم برونه ويسمعونه فى كل مكان فى وقت واحد . عند المحراث ، وفى مخزن الدريس ، وفى مخزن الخشب ، وفى الأسطبل ، وفى ساحة المزرعة . وكانت فلاحه البساتين هى الشيء الوحيد الذى أهمله ، إذ أنها كانت هادئة جداً ، لا تبيىء الفرصة لإحداث ضوضاء .. كان يفرح أشد الفرح بوسق عربة وقبائنها ، ونشر الخشب أو

تكسره .. فما كنت تراه إلا والنفاس أو البلطة فى يده ، وهو يعدو ويدفع ما أمامه ويصبح بكل ما فيه من قوة .. ولمست أدرى كم من عمل الرجال قام به ، ولكن الذى أدرى أنه كان يحدث من الضوضاء قدر ما يحدثه عشرة رجال أو اثنا عشر . وكانت كل هذه الضوضاء والحركة تؤذع « ماما » المسكينة ، فقد حسبت أنها وجدت فى هذا الشاب كنزاً يعاونها فى شئونها ، وأرادت أن تحمله على التعلق بها فاستخدمت فى ذلك كل السبل التى اعتقدت أن من الممكن أن تأتى بالنتيجة المرجوة .. ولم تنس ذلك السبيل الذى كانت تعمل عليه أكثر من سواه !

ولابد أن القارئ قد استشف شيئاً عن قلبى ، وعن مشاعره الصادقة الثابتة ، لا سيما تلك التى حدثت بى إلى العودة إلى « ماما » إذ ذاك ، ولكن يا للانقلاب المفاجئ الكامل فى كيانه كله ! .. فليضع القارئ نفسه فى موضعى ، ليستطيع الحكم ! .. لقد رأيت كل ذلك المستقبل السعيد - الذى تخيلته لنفسى - يتلاشى فى لحظة . وتبددت أحلام السعادة التى كنت اعتر بها اعتزازاً .. ووجدتنى للمرة الأولى وحيداً ، أنا الذى الفت منذ صباى إلا أرى لنفسى وجوداً إلا فى وجود « ماما » ! .. كانت تلك اللحظة فظيعة ، ولكن اللحظات التى تلتها كانت قاتمة كئيبة .. كنت ما أزال شاباً ، ولكن تلك الشعور المذبذبة بالمتعة والأمل - الذى يبعث الحياة فى الشباب - كان قد هجرنى إلى الأبد . ومنذ ذلك الحين مات فى أعماقنى الصب المرفف - نصف ميتة .. ولم أعد أرى أمامى إلا تافهة ، فإذا ما أنكى شهواتى -

من سعادة ، فإن هذه السعادة لا تبدو لي حقيقية . . بل أنني كنت أوقن بأن ظفري بها ، لن يجعلني سعيدا حقا .

ولقد كنت غاية في السذاجة . كما كانت ثقتي بـ « ماما » عارمة ، حتى أنني لم أحس قط السبب الحقيقي للبهجة الألفة التي كان المقادم الجديد يتحدث بها ، والتي اعتبرتها من نتائج طبيعة « ماما » السهلة الهيئة التي تجتذب الناس جميعا إليها . . وما كنت لأحس الأمر ، لو لم تبع به هي نفسها . فقد باهرت إلى الاعتراف . في صراحة كان من المحتمل أن تفكي سخفلي . لو أن قلبي كان يتسع لمزيد من السخط . . ذلك أنها كانت ترى الأمر بسيطا . فقد عابت على إهالي أثناء وجودي . . وتذعرت ضدى بغياي المتكرر ، وكأنها كانت طبيعتنا تقتضيها ملء الفراغ بأسرع ما يمكن . فقلت لها وقلبي يتمرق حزنا : « وأها يا ماما . . ما هذا الذي تجروين على أن تحدديني به ؟ . . يا له من جزاء على إخلاص كذلك الذي أثرتك به ! . . هل انتقدت حياتي هكذا مرارا . لغير ما داع إلا لتحرميني ذلك الذي جعلها عزيزة عندي ؟ . . ان هذا سيوردني مورد التهلكة ، ولكنك ستأسفين على فظدي ! » . غررت . في هدوء كل خليقا بأن بدعمني إلى الجنون . بل أنني طفل ، وأن الناس لا يموتون من مثل هذه الأمور ، وأنني لم أقتد سينا ، وأنا خليقان بأن نكون صديقين حميمين . بكل ما للصداقة من عسر . وثبتني الصلة في كل أمر من الأمور ، وأن حينا العميق لي أن يقل ولي ينتهي إلا بانتهاه حياتها ! . .

ومجمل القول أنها جعلتني أدرك أن جميع مزاياى باقية على ما كانت عليه ، وأنني لن أجد أي نقص فيها ، بالرغم من أن ثمة من أصبح يشاركني إياها . ولم يظهر قط حبي لها . في صفاته وصدقته وقوته . ولا ظهرت روحي . في إخلاصها واستقامتها . مثلها ظهرا على هذه الصورة الواضحة ، في تلك اللحظة . فقد القيت بنفسي عند قدميها ، وذعرت الدموع مدرارا ، واسكت بركبتها ، وهتفت بها وأنا شاردا الفكر : « خلا يا ماما ! . . إني أحبك حبا أعيق من أن يسمح لي بأذلك ، وأمتلكك أغلى عندي من أن أستطيع مشاركة آخر فيه . . إن الندم الذي شعرت به عنديا وهيتني نفسك . لأول مرة . . قد ازداد بازدياد حبي . ولن أستطيع أن أحتمل هذا الندم بنفس الثمن ، لسوف أظل دائما أعبدك . وأبقى جديرا بحبك . طالما ظلت حاجتي إلى احترامك أكبر من حاجتي إلى امتلاكك . لنني أكل أمر نفسك إلى نفسك ، وأضحي في سبيل اتحاد قلبيينا بكل متعي ! . . وخير عندي أن أموت ألف مرة من أن أسعى إلى إذلال من أحب ! » .

ولقد ظلمت أمينا على هذا القرار في ثبات وحزم أجرؤ على القول باتيها جديرا بالشعور الذي دفعني إلى هذا القرار . ومنذ تلك اللحظة كنت أنظر إلى تلك الأم العزيزة بعيني الابن البسر ! . . ولا بد لي من أن أضيف إلى هذا أن قرأري ، وإن لم يكن قد صادف موافقة منها شخصا . كما تبين لي جليا . إلا أنها لم تحاول قط أن تثقيني عن عزمي . ولا بالملاطفة ، ولا بسبل الفواية التي

دون أن تصبئ أنفسهن بالجروح ، والتي نادرا ما يمتنن فيها
بالفشل !

ووجدتني مكرها على أن أسعى إلى مصير مستقل عن
« ماما » .. واستعصى على التفكير . فسرعان ما انتهيت في
أحضان نقيضه تماما ، إذ سميت إلى البحث عن المصير المثلث
عندها هي نفسها .. واستغرقت في البحث عنه نذرها . حتى
أفلحت في نسيان نفسي أو كدت ، واستوعبت بشاعري الرغبة
الملحة في أن أراها سعيدة مهما كان الثمن .. ولقد كان من
العيب لها أن تفضل سعادتها على سعادتي . فلو كنت أرى
سعادتي في أغوار سعادتها ، بالرغم منها !

وهكذا ، بدأت تنمو مع مصائبى تلك الفضائل التي كانت
بذورها قد غرست في أعماق قلبي ، والتي هذبها الدراسة .
ولم تكن تنتظرها إلا الشدة حتى تؤتى ثمارها . وكانت النتيجة
الأولى لإنكار الذات والتجرد عن الغرض . أن زال من قلبي كل
شعور بالحقد والحسد نحو ذلك الذي أحل محلي . بل أنني
— على العكس من ذلك — كنت أريد في إخلاص صادق أن أصبح
وثيق الصلة بهذا الشاب ، وأن أصوغ خلقه ، وأعلمه وأشعره
بسعادته ، وأجعله جديرا بها إذا أمكن . وبالاختصار أن أفعل
له ما سبق لأبيه أن فعله من أجلى في ظروف مماثلة ! .. إلا أن
طبيعتنا لم تكونا متماثلتين . ومع أنني كنت أرق حاشية
وأوسع علما من آتية إلا أنني لم أوت قلة ميالاته أو ثباته أو قوة

خلقته ، التي كانت تبعث على الاحترام ، والتي كان لابد منها
لضمان النجاح . زد على ذلك أنني لم أكن أجد في هذا الشاب
الصفات التي وجدتها « آتية » في ، وأعنى : دملثة الخلق والحب
والعزغان بالجميل .. وأهم من هذا كله ، الإدراك بأنني أحتاج
لرعايته ، والرغبة الملحة في الانتفاع بهذه الرعاية .

كانت تعوزه كل هذه الصفات . وكان هذا الذي أردت أن
أفقه العلم . لا يعنبرنى أكثر من متخلق يبعث على السام
والفجر ، ولا يحسن من الأمور سوى الثثرة . وكان — من
ناحية أخرى — يعجب بنفسه بوصفه شخصاله شأنه في المنزل .
فكان يقالى في تقدير الخدمات التي يحسب أنه كان يؤديها
بالوضوء التي كان يحدثها . وكان يرى أن غؤوسه ومعاوله
أنفع كثيرا من كل كتبى القديمة ! .. ولقد كان مصيبا بعض
الشيء ، ولكنه — اعتيادا على هذا — كان يزهو ويستكبر في
صورة تدعو المرء إلى الإغراق في الضحك . وكان يحاول أن
يمثل مع الفلاحين دور سيد من سادة الريف . فما لبث أن
أخذ يعاملنى نفس المعاملة . بل أنه راح يعامل « ماما » كذلك ! ..
وإذ بدا له أن الاسم « قزوتريد » لم يكن نفسه ما يميزه ،
هجره واتخذ له اسم السيد دى « كوتيل » . وهو الاسم
الذى عرف به فيما بعد في « شامبرى » وفي « موريين »
حيث تزوج !

ومجمل القول إن هذا الشخص البارح لم يلبث أن أصبح
كل شيء في المنزل . بينما أصبحت أنا
سوء الطالع ساقى إلى إغضابه ، فإن

تلقى اللوم بدلا منى ، ولهذا السبب فإن خوفى من تعريضا إلى سلوكه الفظ كان يدعو إلى أن أجيبه إلى كل رغبانه وعندما كان يقبل على تكسر الأخشاب - وهو عمل كان يفخر به كل الفخر - كنت أفضه متفرجا عاطلا ، ومعجبا صامتا بقوة وجلده على العمل ! على أن سجاياها لم تكن فى مجموعها بالسجايا القبيحة . . لقد كان يحب " ماما " لأنه ما من أحد كان يستطيع أن يمسك نفسه عن حبها . ثم أنه لم يظهر لى شيئا من الفخور أو الكراهية . وكان فى اللحظات التى يستولى فيها السكون عليه ، بنمت إلينا عادئا ، ثم يعترف فى صراحة بأنه لم يكن إلا أحمق . . ولا يلبث - بعد ذلك مباشرة - أن يرتكب حماقات جديدة . زد على ذلك أن إدراكه كان محدودا ، كما كان ذوقه وضيقا . حتى لقد كان يتعثر على المرء مجادلته ، أو الشعور بالراحة معه . ولم يقتنع بالظفر بأشد النساء فتنة وسحرا ، بل أنه جمع - على سبيل التغير - بينها وبين وصيفة عجوز حراء الشعر خلاهما من الأسنان ، وكانت " ماما " تحتل خدماتها - التى نثر فى النفس الاشمزاز - فى صبر وإناة ، وإن كانت تضيق بها كل الضيق ! وإن شاهدت هذا اللؤم الجديد ، بلغ منى الحقد والغيل يملقها . على أننى لاحظت شيئا آخر - فى الوقت ذاته - كان أشد تأثرا فى نفسى ، ودفعنى إلى اليأس أكثر من أى أمر آخر وقع حتى ذلك اليوم . وكان هذا الشيء هو غفور فى مسلك " ماما " نحوى . أخذ يربذ رويدا رويدا !

ذلك أن الحرمان الذى غرضته على نفسى ، والذى نظاهرت

هى بالموافقة عليه ، إنما هو أحد تلك الأمور التى لا تغتظها النساء قط - وإن تظاهرن بقبولها ! - لا بسبب ما حرمن عن منه ، وإنما بسبب الشعور بعدم الاكتراث الذى ينفوى عليه الأمر . ولو أنك أخذت - على سبيل المثال - أوثر النساء عقلاء وأكثرهن فلسفة وأقلهن شيقا ، لوجدت أن الجريمة الوحيدة التى لا تغفرها هذه المرأة للرجل قط - ولو كان اهتمامها به فيها عدا ذلك أضرال ما يكون - هى أن يكون بوسعه أن يستمتع بها ولكنه لا يفعل . . . ولكن مفهومها أن هذه القاعدة بلا استثناء ، إذ أن العاطفة - مهما تكن طيبة وقوية - لا تلبث أن تتغير لدى المرأة بسبب الحرمان الذى لا يابث له سوى الفضيلة والحب والتقدير . . ومنذ ذلك الحين ، لم أعد أجد لدى " ماما " تلك الصلة الوثيقة التى تربط بين قلبين ، والتى كانت تغمر قلبى دائما بأحلى المنع . ولم تعد تبوح لى بأسرارها ، اللهم إلا أن تشكو من ذلك الدخيل . أما عندما يكونان معا على صفاء ، فأننى لم أكن أحظى بأسرارها . . ولم تلبث - آخر الأمر - أن انتهجت نحوى مسلكا باعد بينى وبينها تدريجا ، ومع أن حضورى ظل مبعث سرور لها ، إلا أنه لم يعد ضرورة لا غنى لها عنها ، حتى لقد كنت أقضى أياما بطوليا دون أن أراها ، فما كانت لتفطن إلى ذلك !

ووجدتني - دون أن أفطن - معزولا وحيدا فى هذا المنزل الذى كنت فيه قبل ذلك بهما . أصبحت أحبها فيه حياة مزدوجة كما

تدرجاً أن أغض الطرف عن كل ما كان يقع في هذا المنزل ، بل أنني أخذت اعتزل أولئك الذين كانوا يقبضون فيه . ولكي أحجب نفسي العذاب المتصل « رحت أحبس نفسي مع كتي . أو أذهب فابكي وأتأوه ما شاء لي الهوى وسط الغابات . وسرعان ما أصبحت تلك الحياة فوق ما يطيقه إنسان ، وشعرت بأن الوجود الشخصي مع البعد القلبي بالنسبة لامرأة كنت أعزها كل هذا الاعزاز ، كان يهيج شجوني . . وأن الكف عن رؤيتها ، أقل قسوة ! ولذلك قررت أن أهجر المنزل . . ولقد تلت لها هذا ، فإذا بها تحبذه ، بدلاً من أن تعارضه . . وكانت لها صديقة في « جرينوبل » - تدعى السيدة « ديبيان » - كان زوجها صديقاً للسيد « دى مابل » « محافظ مدينة ليون » . ولقد اقترح السيد ديبيان أن أتولى تعليم أولاد السيد دى مابل . فقبلت . ورحلت إلى ليون دون أن أسبب لنفسى - بل دون أن أشعر تقريبا - بأقل أسف على غراق كان مجرد التفكير فيه - فيما مضى - يبعث فينا آلاماً كنزعات الموت !

وكانت لدى المعرفة الضرورية - تقريبا - لكي أكون مربياً « واعتقد أنني أوتيت موهبة لذلك . وقد اتسع لي الوقت - في السنة التي قضيتها بمنزل السيدة دى مابل - كي أكتشف عن حقيقة نفسى ، فإذا ما غطرت عليه من ساحة ورقة ، كنبيل بأن يجعلنى أهلاً لهذه المهنة ، لولا ما كان يشوبه من حسدة الطبع . . فقد كنت كالملاك الكريم ، طالما سارت الأمور على ما يرام ، وطالما كنت أرى تعبى وعنائى - للذين لم أكن أقتصد نبيها - يؤثيان ثماراً . ولكننى كنت أعدو شيطاناً إذا

ما انقلبت الأمور . وعندنا كان يستعصى على تلويدى شيمى . كنت أهدى كالجنون ، فإذا بدت منهما إمارات تنم عن خبث وعصيان ، فأننى كنت أتمنى لو استطعت أن أقتلها . . وما كان هذا المسلك ليكتفل لهما العلم أو الأدب . . وكنا غلامين يختلف طبع كل منهما عن الآخر كل الاختلاف : أحدهما فى الثامنة أو التاسعة من العمر ، ويدعى « سانت ماري » ، له وجه جميل ، وعقل متفتح . وكان نشيطاً ، طائشاً ، لمعوا ، ماكراً . . إلا أن مكروه كان يتسم دائماً بالمرح ! . . أما الأصغر - واسمه « كونديللاك » - فقد كان غيبياً أو يكاد ، تافها كسولاً ، أوتى عناد البغل . . وكان عاجزاً عن أن يتعلم شيئاً !

ولقد أكرهت على تقسيم على بين الاثنين ، كما هو واضح للقرارى ، ولعلنى كنت مستطعياً بشيء من الصبر والهدوء أن أوفق فى على ، ولكننى كنت خلواً منهما ، ومن ثم فأننى لم أحرز مع تلميذى أى تقدم ، وكانت النتيجة غاية فى السوء . . وما كنت لأفكر إلى المثابرة ، وإنما كان يعوزنى الاتزان والكياسة بوجه خاص . . إذ أننى لم أكن أعرف من الأساليب التى تستخدم مع الأطفال إلا ثلاثة ، كانت كلها دائماً عقيمة عديمة الجدوى ، وكثيراً ما كانت تعود عليهم بأبلغ الضرر . . وهذه السبل الثلاث هى : العاطفة ، والمجادلة ، والغضب . ولقد تأثرت ذات مرة من « سانت ماري » تأثراً ذرفت معه الدمع ، وحاولت أن أثير فيه عاطفة مماثلة ، كأنها كان فى وسع الطفل أن يتأثر تأثراً صحيحاً ! . . وفى مناسبة أخرى أكرهت نفسي فى مجادلته ، وكأنه كان قادراً على أن يعترف : « وما كان ليح فى

بعض الأحيان إلى جدال غاية في المكر والدهاء ، فقد اعتقدت أنه ولا بد ذكي ، ما دام يعرف كيف يجادل ! .. أما « كونديللاك » الصغير ، فقد كان أشد جلبا للصيق والفضج ، إذ أنه لم يكن يفهم شيئا ، ولا يجيب عن أى سؤال ، ولا يثير رأى مؤثرا . . . كان عتيذا لا ينزعج عن موقفه . ولم يكن موافقا في شيء اللهم إلا في إثارة غضبي . وإذا ذاك : كان يغدو هو العاقل وأنا الطفل !

لقد تبينت كل أخطائي . وكنت أدركيا تمام الإدراك . إذ أنني درست أخلاق تلميذى وأفلحت في سبر غورهما . ولا اعتقد أن حيلهما انطلت على مرة ، ولكن ما جدوى تبين الشر إذا كنت لا أعرف كيف أعالجه . . . ومع أنني كنت استشف كل شيء ، إلا أنني لم أكن أمنع شيئا . ولم أفلح في شيء . . . كان كل ما افعله هو عين ما كان يتبشى لى إلا افعله !

ولم يكتب لى - فيما يتصل بأمر نفسى - من النجاح . أكثر مما كتب لى فيما يتعلق بتلميذى . وكانت السيدة « دسنان » قد أوصت بى السيدة دى مابلى . وطلبت منها أن تهيب عاداتى وأن تطيعنى بطابع يتفق والمجتمع الراقى . فجهمت السيدة في ذلك بعض الجهد ، وأرادت أن تعلمنى كيف أنسب البيت الذى أنزل فيه ، بيد أنني أيدبت من الارتباك والخجل بل والنقباء ما شبط همتها ودعاها إلى اليأس منى . ولكن هذا لم يمنعنى من الوقوع في حبها بطريقتى المعهودة . وقد علمت على أن نلاحظ هذا ، وإن لم أجرو أيدا على البوح لىا بحبى . ولم يكن من طبيعتها أن تتوعد قط إلى رجل ، ومن ثم فقد

ذهبت غمزائى ونظرائى وتأوھاتى أدراج الرياح ، وسرعان ما سئمتها ، إذ رايت أنها لم تكن تؤدى إلى شيء !

وكنت أثناء إقامتى مع « ماما » قد فقدت تملها الرغبة في السرقات الصغيرة ، إذ أنني حين رايت أن كل شيء قد بات بلك يدى ، لم أعد أجد ما يدعو إلى السرقة ! فضلا عن أن المبادئ السامية التى انتهجتها كانت كفيلة بأن تجعل منى في المستقبل شخصا ساميا لا يأتى أمثال هذه الصقائر ، وهذا ما صرت إليه - يقينا - منذ ذلك الحين . . . بيد أن هذا لم يكن راجعا إلى أننى استاصلت الداء من جذوره ، وإنما كان مرده إلى أننى تعلمت التغلب على ما كان يبتائبنى من إغراء . وكان الخوف كثيرا ما يتهلكنى من أن أوغل في السرقة - كما كنت أفعل في طفولتى - إذا عاودتنى الرغبة وتهيات لى الفرصة . وقد تيدى لى الدليل على ذلك في دار السيد « دى مابلى » . غيرالرمع من كثرة الأشياء الصغيرة التى كانت تحيط بى ، والتى كانت في متناول يدى ، إلا أنني لم أولها نظرة واحدة . . . غير أن رغبة قوية تهلكنى في الحصول على نبيذ أبيض بسيط المفعول اسمه نبيذ « أربوا » ، كان لذيذ الطعم ، وقد طاب لى كثيرا بعد أن تناولت منه بضغ كؤوس على المائدة . . . وكان كثيرا بعض الشيء ، وقد زهوت بمهارتى في تنقية النبيذ ، فعمدت إلى بهذا النوع بالذات ، فعمت بتنقيته ، ولكنى أفسدته أثناء ذلك - على أن الفساد لم يلحق إلا مظهره ، فظل لذيذ الطعم ، وكنت أنتهز الفرصة لأخذ بطيى أرجاجاب من الخبز والحبن أأجرعها عندما يحلو لى ، ولكنى - بسوء الحظ -

لم اك أقوى على أن أشرب دون أن أقرن الشراب بالأكل ، فما حيلتى فى الحصول على الخبز ؟ .. كان من المستحيل على أن احتفظ بشيء منه . ولو أننى أرسلت الخدم لشراؤه ، لانفضح أمرى ، وكان ذلك - فى الوقت نفسه - إهانة ، أو شبه إهانة ، لرب البيت ، كذلك كنت أخشى أن اشتريه بنفسى ، فكيف يستطيع سيد مهذب - والسيف إلى جانبه - دخول مخبز وشراء رغيف من الخبز ؟ .. وأخيرا تذكرت الملجأ الأخير الذى لجأ إليه أمير كبير قبل له أن الفلاحين لم يكونوا يجدون الخبز ، فأجاب بقوله : « إذن دعوهم يأكلون الفطائر ! » .. ولكن : يا للهشقة التى كابدتها فى الحصول على الفطائر ! .. كنت أخرج وحدى فى طلبها ، نأحتار المدينة بأكملها فى بعض الأحيان من طرف إلى طرف ، وأمر بثلاثين محلا من محلات الفطائر . قبل أن ادخل أحدها . وكان من الضروري ألا يكون فى المحل قير شخص واحد ، وأن تكون سمات هذا الشخص بشوشة جدا ، قبل أن يستقر رأيى على المفامرة .. وما أن كنت أنوز بكعكتى الصغيرة العزيزة ، وأحكم غلق باب غرفتى على ، حتى كنت أنى بزجاجة نبيذى من قاع صوان بغرفتى .. وباللنشوات الصغيرة اللذيذة التى نعت بها وحدى وأنا أقرأ بضع صفحات من رواية ! .. فقد كنت أحب دائما أن أقرأ وأنا أتناول طعابى إذا كنت وحيدا ، غين القراءة أثناء الطعام ، كانت دائما البوابة التى تموضنى عن سمر أخلو إليه . وكنت التهم صفحة ثم ازدد لقمة ، وكان كتابى كان يتناول الطعام معى !

وأنا لم أكن أبدا فاسقا أو سكران ، بل الواقع أننى لم أنهل



فقد كنت أحب دائما أن أقرأ وأنا أتناول طعامى الذى كنت وحيدا .

في حياتي قط ! .. وهكذا توالى سرقاتي الصغيرة . التي لم تك
تخلو تهما من الحرص والحذر . بيد أنها لم تلبث أن اكتشفت .
إذ فضحت الزجاجات امرى . ولم توجه إلى أية ملاحقة . إلا
أن القبول لم يعد موكولا إلى « وقد تصرف السيد » دى مابلى »
في هذا كله تصرفا كريما معقولا . فقد كان رجلا شهيدا .
يخفى تحت ستار من الخشونة الملائمة لمنصبه زعنة رقيقة
حقا « وطيبة قلبا نادرة ! .. كان ذكيا عادلا . بل إنه
كان لطيفا . وهو أمر لا تنتظره من ضابط من ضباط البوليس
الراكب . وقد قدرت له تسامحه فأصبحت أكثر نعلقا به .
وحلنى هذا على أن أمكث في منزله فترة أطول مما كان ينبغي
لى . ولكنى وقد كرهت آخر الأمر مهنة لم أكن أصلح لها —
بعد أن رججت بنفسى في موقف كله تعب . ولم يكن فيه ما يسر .
وبعد سنة من التجربة لم اقتصد فيها شيئا من حيدى —
تررت أن أترك تلميذى وأنا مقتنع بأننى لن أفلح في تنشئتهما
تنشئة صحيحة . وكان السيد دى مابلى يرى هذا جيدا كما
كنت أراه . على أننى لا أعتقد أنه كان يقدم على فصلى — من
تلقاء نفسه — لو لم أكنه مؤونة العناء . . ومن المحقق أن عذا
التساهل المفرط — في حال كهذه — ليس مما أقره !

ومما زاد في عدم احتمالى لمركزى . أننى كنت أقارنه على
الدوام بذلك المركز الذى خلفته ورأى : ذكرى « شارميت »
الغالية . وذكرى حبيبتي وأشجارى . ونبعى . وبمقانى —
وفوق هذا وذاك — ذكرى تلك التى أشعر أننى خلقت من أجلاء
والتي كانت حياة كل شيء وروحه . وعندما كانت تعادنى

ذكرى متعنا وحياتنا البرينة . كان قلبى يريزح تحت شعور
من الضيق والاختناق يسلبنى الشجاعة والقدرة على أن أفعل
أى شيء ! وقد راودتنى — مائة مرة — رغبة عنيفة في الانطلاق
لفورى على قدمى . والعودة إلى السيدة دى ناران . . كنت
على استعداد لأن أموت لفورى راضيا . لو قدر لى أن أراها
مرة أخرى !

ولم أستطع — آخر الأمر — أن أقاوم هذه الذكريات الرقيقة
— التى كانت تنادىنى إليها — مهما يكن الثمن . فقلت لأنفسى
إننى لم أتذرع بما يكنى من الصبر والكرم والود . وأننى لو
كنت قد أجيدت نفسى أكثر مما فعلت لظلت أعيش معها في
ملاقة من الصداقة الخالصة . وقد وضعت أجمل المشروعات
في العالم وتحرق شوقا إلى تنفيذها !

وهكذا . تركت ذات يوم كل شيء ونفذت كل شيء . ثم
شرعت في رحلتى أنهب الأرض فيها . فوصلت إلى الدار بعد
استخدام جميع وسائل المواصلات التى توفرت لى في صدر
شبابى . . ووجدتنى عند قدميها مرة أخرى : أواه ! لقد كنت
أموت مقتبعا . لو أننى وجدت — عند عودتى — في استقبالها
إياى . أو في عينيها . أو في عناقها . أو — أخيرا — في قلبها .
ربيع ذلك الذى كنت أجده من قبل . والذى كانت نفسى مفعمة
به في عودتى !

واحسرتها على ما يصادف البشر من فتنة . . .
تلقتنى « ماما » بذلك القلب الطيب الذى لا يموت إلا بولها .

ولكنى بحثت عبثا عن الماضي الذي ولى إلى غير عودة . وما أن مكثت معها نصف ساعة ، حتى شعرت بأن سعادتي السابقة قد زالت إلى الأبد ، ووجدتني في نفس المركز المحزن الذى اضطررت إلى الهرب منه دون أن أستطيع توجيه اللوم إلى إنسان ! .. ذلك أن « كورتل » لم يكن في قرارة نفسه فتى شريفا ، وقد لاح عليه السرور - لا الضيق - لمأى . ولكن كيف أستطيع أن أحتمل وجودى كشخص زائد عن الحاجة ، عند تلك التى كنت لها كل شيء ؟ « والتى لن تكف عن أن تكون لى كل شيء ؟ » كيف أستطيع أن أعيش غريبا في منزل كنت أشعر أننى ابنه ؟ .. بل إن رؤية الأشياء التى شيدت هنائى الماضى ، كانت تزيد المفارقة إيلا . وكنت خليقا بأن أغسود أقل الما فى أى جو آخر للمعيشة ، فإن شعورى بأننى كنت أذكر دون انقطاع كل تلك الذكريات الحلوة ، كان يبيح في صدرى الإحساس بفداحة ما فقدت .. وإذ راحت الحشرات - التى لم يكن من ورائها طائل - تنهش ظبى ، واستبدت بى أشد ألوان الكآبة سوادا ، أخذت الود بالوحدة في غير أوقات الطعام ، وانفردت بكبتي ، وسعيت إلى أن أجده فيها بعض التسلية النافعة !

وشعرت بأن الخطر - الذى كنت أخشاه طويلا - بات وشيك الوقوع « فأخذت أجهد عقلى من جديد ، محاولا أن أجد من نفسى وسيلة للتحصن ضدّه إذا ما فضبت موارد « ماما » .. فلقد كنت أدير شئوننا المنزلية على أساس أن لا تزداد الأمور سوءا « أما بعد أن تركتها فقد تغير كل شيء ..

كان مدير ماليّتها مسرعا ، يريد أن يخال بجواد أصيل وعربة .. وكان مولعا بتشييل دور النبيل أمام الجيران ، كما أنه كان - في كل ذلك - يؤدي عملا لا يعرف عنه شيئا . وكان معاشي « ماما » مستنفدا مقدما . إذ كانت الدفعات التى تواتبها منه - كل ثلاثة أشهر - مرهونة ، وكانت متأخرة في دفع الإيجار ، وقد تراكمت عليها الديون ، وتوقعت أن يحجز على معاشيها « أو أن يقطع عنها نهائيا .. ومجمل القول أننى لم أر أملى إلا الخراب والكوارث ، وبدأت لى تلك اللحظة وشبكة ، حتى لقد تجسم أمام ناظرى كل ما تظوى عليه من مظائع !

وكانت غرقى العزيزة الصغيرة هى ملهاتى الوحيدة ، وبعد أن بحثت طويلا عن أدوية لعلاج قلقى العقل ، فكرت في أن أبحث عن علاج للمتعاب التى كنت أتناها بها ، وهدت إلى أفكارى القديمة ، وبدأت فجأة أبني القصور في أسبائبا ، محاولا أن أنقذ « ماما » المسكينة من النهاية القاسية التى كنت أراها على وشك التردى فيها ! .. لكنى لم أكن أشعر أننى على علم كاف ، ولا كنت أعتقد أننى موهوب إلى حد يكفى لأن يلعب نجوى بين رجال الأدب ، أو أن أجمع ثروة بهذه الوسيلة .. والهمتنى فكرة جديدة - خطرت لى - بالثقة التى عجرت عنها مواهبي المتوسطة .. ذلك أننى لم أكن قد أقلمت عن دراسة الموسيقى عقما كلفت عن تدريسها ، بل أننى - على النقيض من ذلك - كنت قد درست نظرياتها دراسة تكفى لأن أعتبر نفسى عالما في هذه الناحية من الفن . وبينما كنت أجمع الصعوبة التى صادفتنى في تعلم قراءة

الكبرى التى كنت لا ازال الاقيها فى الغناء بمجرد النظر إلى « النوتة » ، اخذت أفكر فى ان هذه المشقة قد تكون راجعة إلى طبيعة الأمر وليس إلى عجزى وقصورى ، لا سيما وأننى كنت أعلم أنه ليس من السهل على أى إنسان ان يتعلم الموسيقى . وعندما فحصت ترتيب العلامات الموسيقية وجدت انها كثيرا ما تنم عن سوء ابتكار .. وكنت قد فكرت طويلا فى التعبير عن السلم الموسيقى بالأرقام ، وذلك لتفادى رسم الخطوط والعلامات المدرجة عند الرغبة فى كتابة أبسط النغمات . ولم تكن تموفنى سوى صعوبات تتصل بالطبقات والزمن وتقيم « النوتة » .

وقد عاودتنى هذه الفكرة من جديد ، فلما أتعمت النظر فيها ، وجدت ان هذه الصعوبات ليست مما يتعذر التغلب عليه .. وافلحت فى تنفيذ فكرتى ، فاستطعت آخر الأمر ان اكتب أى موسيقى - يوما يكن شأنها - بأكثر ما يمكن من الدقة .. بل ان بوسعى ان اقول : بأكثر قدر من السلاطة . واعتبرت نفسى - منذ تلك اللحظة - من اصحاب الثراء ! .. ولم اعد أفكر - وأنا شديد الشوق إلى ان تقسمه معى ثروتى - تلك المرأة التى كنت مدينا لها بكل شئ - إلا فى الارتحال إلى باريس ، موقنا من أننى سأحدث انقلابا بمجرد عرض مشروعى على المحفل (الأكاديمية) ! .. وكنت قد حملت معى - من ليون - قليلا من المال ، كما أنني بعثت كتبى . وهكذا لم يمض أسبوع ، حتى أصبح قرارى معدا للتنفيذ ، فرحلت أخيرا عن (سافوا) ، حاملا معى مشروعى الموسيقى ، وأنا مغمم بالأفكار

الرائعة التى الهمنيها هذا المشروع ، كما رحلت من قبل عن (تورين) مصطحبا نافورتى الصغيرة !

تلك كانت أخطاء شبابى وعبوبه ، سردت قصتها بإخلاص صادق يرضى قلبى . وإذا قدر لى - فيها بعد - أن أجد السنوات التالية من عمرى ، سنوات التضح . بأية فضيلة من الفضائل : فلن أكون - فى ذلك - إلا منتهجا عين الصراحة التى أتبعتها من قبل ، فهذه هى نبضى وغايتى !

على أنه من الواجب ان اتوقف هنا .. إن الزمن كفىل بان يدفع كثيرا من الاستار والأحجية . وإذا قدر لمفكراتى ان تنتقل إلى الأجيال المقبلة ، فقد تفهم هذه الأجيال يوما ما كان ينبغى ان أقول ! .. وإذا ذاك سيتبين السر فى إخلادى إلى الصمت !

الكراسة السابعة

سنة ١٧٤١

بعد عامين من الصمت والصبر . أعود إلى القلم بالرغم مما كنت قد اعتزمت . غامسك أيها القارىء، حكك على الأسباب التى تضطررنى إلى ذلك . فلن يكون بوسعك أن تحكم إلا بعد أن تقرأ ما أنا قائل !

لقد تبين أن شبابى الوداع مضى ينساب فى حياة معتدلة؛ كثيرة الرفق ، دون ما ضائقات بالغة ، ولا فقرات رخاء عارم . . . وكان هذا الاعتدال — إلى حد كبير — نتاج طبيعتى التى جمت بين التوثب والضعف ، ومن ثم مضى أقل اندفاعا إلى الإقدام . منها إلى التأثر بالمثبطات . . . وأنها لتخرج من تقاعدها بفورات ، ولكنها لا تلبث أن تعود بتقاعس واستقرار . . . كما أنها تحملنى دائما — بعيدا عن الفضائل الكبرى ، وأكثر بعدا عن الرذائل الكبرى — إلى حياة الخمول والدعة التى كنت أظننى قد خلقت لها . دون أن تمكننى إطلاقا من تحقيق أى شيء عظيم . سواء كان طيبا أو خبيثا !

ألا ما أعظم اختلاف الصورة التى سارسها عاجلا . . . فإن القدر الذى ظل خلال ثلاثين عاما يحسابى ميولى ، راح يعارضها ثلاثين عاما أخرى ، وسيتجلى كيف أن هذا التعارض المستمر بين مركزى وميولى ، قد خلق عيوباً جسيمة ، وتعاينات لم يسمع لها مثيل ، وكل الفضائل — فيها عدا القوة — التى تجعل من البلى أعمالا مجيدة !

لقد كتب الجزء الأول بأسره من اعترافتى ، من الذاكرة . . ولا بد أننى ارتكبت كثيرا من الأخطاء فيه ، أما وأنا مضطر إلى كتابة الجزء الثانى من الذاكرة — كذلك — فمن المحتمل أننى سأرتكب مزيدا من الأخطاء . . . فإن الذكريات الناعبة التى تبقت لى عن أعوامى الجميلة ، التى انقضت فى هدوء وبراءة ، قد تركت ألف أثر مائن أحب أن أسترجعه دون ما توان . . . ولستوف يتجلى عاجلا مدى اختلاف هذه الأعوام عن بقية عمرى . إن استعادة ذكراها لى لون من المראה المتجددة . . وبدلا من أن أضاعف مرارات حالى الراهنة بترك الذكريات الباعثة على الأسى ، فإننى أقصيها إلى أبعد ما أستطيع ، وكثيرا ما أنجح فى ذلك « إلى درجة أننى لا أقوى على العثور عليهما عند الحاجة . . . وإن هذه المقدرة على نسيان الهموم بسهولة « لعزاء أسبفته السماء على ، وسط تلك اليوم التى راق للقدر أن يهبطها يوما على رأسى . فإن ذاكرتى التى تستعيد بمقدرة غدة ما يستحب من الأمور ، هى العامل المرجح السعيد الذى يقالب خيالى الفطيع الذى لا يجعلنى أرى سوى القاسى من أحداث المستقبل !

إن كل الأوراق التى جمعتها كى تعيننى على التذكر ، وكى اهتدى بها فى هذا المشروع ، قد انتقلت إلى أيد أخرى ، ولن يقدر لها أن تعود إلى يدي . . . ومن ثم غلست أهلك مرشدا أميناً أستطيع أن أعتد عليه ، اللهم إلا واحدا ، يتمثل فى سلسلة الأحاسيس التى كانت تهم عن تناسخ نمو كبائى ، وعن الأحداث المتعاقبة التى كانت لها مسبقا ولها نتيجة لتلك الأحاسيس والمشاعر . . . إننى لأنسى جميعا . . . ولكنى

لا أستطيع ان اتنبأ اخطائى ، كما اتنبأ أقل نسيانا لمشاعرى الطيبة ، فإن ذكرها أزعج لى من ان تمحى عن صفحة قلبى إلى الأبد . ولقد أستطيع ان احذف شيئا من الوقائع أو أحررها ، وقد ارتكب أخطاء فى التواريخ ، ولكن من المتعذر ان يختلط على الأمر - أو ان اخطئ - إزاء ما حملتنى عواطفى على فعله . وهذا هو الموضوع الرئيسى هنا . فإن الغرض الحقيقى لاعترافاى هو ان اكشف بدقة عن دخصة نفسى فى جميع مواقف حياتى . . غايتى إنما وعدت بان أروى قصة نفسى . ولكى اكتبها بأمانة ، لا أراى بحاجة إلى مذكرات أخرى ، إذ يكفينى ان أعود للغوص فى أعماقى ، كدائى حتى الآن !

على ان ثمة فترة تتألف من ست أو سبع سنوات ، أمك لحسن الحظ - معلومات وثيقة عنها ، بمثابة مجموعة من خطابات معينة ، استقرت النسخ الأصلية لها فى حوزة السيد « دى بىرو » . وهذه المجموعة - التى تنتهى فى سنة ١٧٦٠ - تشمل جميع الفترة التى مكثتها فى « الصومعة » - (الارميتاج) - ونزاعى الكبير مع من كانوا يزعمون أنهم أصدقائى . . وإنها لفترة من حياتى جديرة بالذكر ، غنى منبع كل البلايا الأخرى . أما بالنسبة للخطابات الأصلية الأقرب عهدا ، والتى بقيت فى هوزتى - وهى قليلة العدد جدا - غايتى لن أنسخها وأضيفها إلى هذه المجموعة التى قدر لها ان تكون أنصم من أن أرجو أن أوفق فى إخفاؤها عن عيون رقبائى (١) ،

(١) العبارة التى ذكرها « روسو » هى : « أخفاها عن أعين (أرجوسائى)

وإنما سأسلكها فى سياق هذا المؤلف نفسه ، عندما يبدو لى أنها كفيلا بان تلقى أضواء على الوقائع ، سواء لصالحى أو ضدى . ذلك اننى لا أخشى قط ان ينسى القارىء اننى اكتب اعترافى ، وأن يظن اننى اكتب تقريرا أو ببرا لما تخفى حيانى . . وإنما يجدر به الا يتوقع ان أمسك عن ذكر الحقيقة إذا كانت فى صفى وصالحى .

وفيا عدا ذلك ، فليس لهذا القسم الثانى من حصة يشترك فيها مع القسم الأول سوى هذه الحقيقة ، وليس له من ميزة عليه إلا بقدرة أهمية الأمور التى يتخسرها . وفيما عدا ذلك ، فلن يخفق هذا القسم فى ان يكون مقاييرا لمبايعة من كائنة الاعتبار (١) . فلقد كتبت الأول بلذة وسرور وأرقياح ، فى

اللبطة « . . وأرجوسائى هى جمع « أرجوس » . وهو تمير مجارى - نان « أرجوس » اسم يطلق فى أساطير اليونان على عملاق ذى مائة عين ، أماسه الزمة « هيرا » - عندما تولدها الفكرة - ليراتب « بو » - ومشوقة الاله « زيوس » ، اننى كانت قد مسخت على شكل بقرة !

!!! التمير الذى أورده « روسو » هو : « لن يخفق فى ان يكون أقسل شيئا » . وهو ما لا أحسمه بقصده ، فالواقع أن هذا الجزء من اعترافاته - وهو الذى يشمل الكرامات من ٧ الى ١٢ - يضم أحداثا ومعلومات على قدر كبير من القيمة قد يفوق قدر ما ورد فى القسم الاول - وإنما اختار « روسو » هذا الوصف لأنه كان - عندما كتبه هذا القسم - ضحية لانفعالات نفسه تاسية ، أوصت اليه بأن أعز أصدقائه ،

(ووتون) أو في قصر « ترائى » ، وكانت لكل الذكريات التي تواردت على خاطري مباحج جديدة . ولقد رحت أسترجعها دون انقطاع ، وباستمتاع متجدد ، فاستطعت أن أراجع وانفتح ما أوردته من أوصاف - دون ما ملل أو ضيق - حتى أصبحت راضيا عنها . أما اليوم ، فإن ذاكرتى وعقلى الكليين يكادان يجعلاننى عاجزا عن كل عمل ، ولست أشغل بهذا القسم إلا مكرها ، والأسى يعتصر قلبي . . إنه لا يمثل - بالنسبة إلى - سوى محن وخيانات وفدر وذكريات تحزن النفس وتمزقها . . إننى لأنزل للندى من كل شيء ، كى أوارى في ليل الزمان ما أنا موشك أن أقوله . . وإننى إذ اضطر إلى الكلام - بالرغم منى - أعمد كذلك إلى الاستخفاء ، وإلى التحايل ، وإلى محاولة الخداع ، وأنحدر إلى تصرفات أنا أبعده الناس عن أن أكون قد خلقت لممارستها !

إن للسبق الذى أوجد تحته عيونا، ولجدران المحيطة بى أذانا . وإننى - إذ يحف بى جواسيس ورفقاء أشرار ويقظون ، وإذا يتوزعنى القلق والهلم - لأسطر على الورق في عجلة بضع كلمات مفككة لا أكاد أجد وقتا لمراجعتها . فما بالكم بتمسحيها ! . . إننى أدرك أن أعدائى لا يزالون - برغم الحواجز الهائلة التى تقام حولى دون انقطاع - في خوف دائم من أن تجد الحقيقة

الكرامات المست الأولى - قد تأمروا عليه مع ملك بروسيا ، فقام بلامهم ، وظل يفتل وهو متكر ، لا يكاد يأمن الى استقرار . ومن هنا ندرج سر التضام والأسى والشك والفتون التى تطبع حقيقته هذا .

منفذا تنسرب منه . فكيف يتسنى لى أن أدفع بها إلى النور ؟ . لسوف أحاول ، وأنا قليل الرجاء في النجاح . فبمذا الذى يقول إن في هذا مادة لصور مستحبة ، ولإضفاء ألوان جذابة على هذه الصور ؟ . . إننى لهذا أنذر المقبلين على قراءة هذا ، بأن ليس ثمة شيء - في سياق هذا الحديث - يستطيع أن يقتهم المسام ، اللهم سوى الرغبة في استكمال التعرف على إنسان ، وسوى الحب الصادق للحق والصدق !

تركتونى - في القسم الأول - وأنا راehl محسورا إلى باريس ، مخلفا قلبي في (شارميت) ، حيث أتممت آخر قلعة لى في اسبانيا(١) ، معزما أن أعود إلى هناك يوما فأطرح عند قدمى « باما » - . إذ تكون قد أرادت إلى نفسها وسجبتها - ما أكون قد أحرزت من كنوز ، ومطمئنا إلى طريقتى الموسيقية بوصفها ثروة محققة أكيدة !

وتخلفت بعض الوقت في (ليون) لأزور معارفى ، ولأحصل على بعض التوصيات التى أفيد منها في باريس ، ولأبيع كتبى الهندسية التى كنت قد جعلتها معى . ولقد رحب بى الجميع ، فأظهر السيد والسيدة « دى مابلى » اغتيابا لرؤيتى ، ودعوانى للغداء عدة مرات ، وتعرفت لديبها بالراهب « دى مابلى » ، كما كنت قد تعرفت من قبل بالراهب « دى كونديللاك » ، وكان الاثنان قد أقبلا لزيارة شقيقهما . ولقد أعطانى الراهب

« دى مابلې » خطابات تقدمه إلى أناس في باريس ، منها واحد للسيد « دى فونتيل » ، وآخر للكونت « دى كاييرس » . وقد اتاحت لي الرسائلتان معرفة شخصيتين لطيفتين جدا . لا سيما السيد الأول الذي لم يكف حتى موته عن أن يؤثرني بوده ، وعن أن يمنحني — في الأحاديث التي كانت تدور في خلواتنا — نصائح كان خليقا بي أن أحسن الإفادة منها .

وزرت السيد « بورد » الذي كنت قد تعرضت به منذ وقت طويل ، والذي كثيرا ما ساعدني بقلب كبير وبأعظم سرور صادق . ولقد ألفيته في هذه المناسبة على حاله التي عيبتها . فقد كان هو الذي باع كتبي ، كما أعطاني من لسه — أو حصل لي من الغير — على خطابات توصية طيبة . . . زرت السيد وكيل الحكومة ، فقد كنت مدينا له بمعرفة السيد « دى بورد » ، كما أدين له بالتعرف إلى الدوق « دى ريشيليو » . الذي مر بليون في ذلك الوقت ، مقدمي السيد « بالو » إليه . وقد أحسن السيد « ريشيليو » استقبالي ، ودعاني إلى أن أزوره في « باريس » — وهذا ما فعلته عدة مرات — ولكن . . . دون أن يكون لهذه الشخصية الرفيعة — التي سأتكلم عنها كثيرا قريبا بعد — أي نفع لي !

كذلك زرت الموسيقى « دافيد » الذي أولاني عونته في ضائقتي في إحدى رجالتي السابقة ، إذ أعارني — أو منحني — قلنسوة وزوجا من الجوارب ، لم أردھا إليه قط ، ولا هو سألتني أن أردھا أبدا ، برغم أننا تقابلنا كثيرا منذ ذلك الحين . على أنني لم ألث أن قدمت إليه — فيما بعد — هدية تعادل تلك الأشياء

تقريبا . وبوسعي أن أتحدث عن نفسي بأشياء أفضل من هذا ، لو أنني كنت بصدد ما كان يتبقي عمله ، لا ما عبقه فعلا . . . وهما حالان ليستا سواء ، لسوء الحظ !

كذلك رأيت النبيل المسخي « بيريثون » ، فلم أعتقد سخاء المعبود ، فقد منحني عين البهية التي كان قد قدمها من قبل إلى « برنار » اللطيف إذ دفع أجر مقعدي في عربة البريد السريعة . . . وزرت الجراح « باريسو » ، أحسن وأفضل الناس عملا . كما قابلت عزيزته « جودغروا » التي كان على علاقة مستمرة بها منذ عشر سنوات ، والتي كانت كل مؤهلاتها تقريبا تتمثل في لطف الخلق وطيبة القلب ، والتي لم يكن في وسع المرء أن يراها لأول مرة دون أن يوليها حسن اهتمامه ، ولا أن ينارقها دون ما اشفاق ونائر ، إذ أنها كانت في آخر أطوار النسل ، الذي لم يلبث أن مات به بعد ذلك بقليل . وليس أقدر على كشف الميول الحقيقية لأي إنسان ، من أخلاق أولئك الذين يتعلق بهم (١) . . . وقد كان بوسع أي امرئ رأى

(١) أردف روسو — في هامش مؤلّفه — معلقا على هذا بقوله : « ما لم يكن تد خدع في اختياره من الأبدية ، أو ما لم تكن شخصية المرأة التي تعلق بها قد تغيرت — بعد ذلك بآثار مجبوعة من الظروف غير المسادية — فإن من المستحيل أن تكون هذه القاعدة مطلقة . ولو أريد إقرار هذه القاعدة دون تعديل ، لجاز الحكم على « سقراط » بشخصية زوجته « كساتيت » ، أو « نيون » بشخصية صديقه « كاليبوس » . . . وهذا خابق بأن يكون أبعد الاحكام من الامتثال ، وأكثرها خلافا . ونرى هذا ، لا ينبغي أن تطبق هذه القاعدة هنا على زوجتي تطبقا بسى إليها .

« جودفروا » اللطيفة أن يدرك شخصية « باريسو » الطبيب .
 إننى مدين لكل هؤلاء الكرام . ولقد أغفلتهم جميعا —
 فيما بعد — لا عن جحود ، بالتأكيد ، وإنما نتيجة ذلك الكسل
 المتعبد الذى كثيرا ما يظهرنى بمظهر الجاحد ! . . بينما الواقع
 أن ذكرى خدماتهم لم تبرح فؤادى قط ، كما أن اظهارهم على
 عرقتى ما كان ليكيدنى ما تكبدنيه المثابرة على ذكره . ولقد
 كانت المواظبة على التراسل أمرا فوق طاقتى دائما ، فأتى ما أن
 أبدا فى الشعور بتكاسلى فيها ، حتى يحلنى الخجل والحرية
 فى طريقة إصلاح عيبى على مضاعفة هذا العيب ، فإذا بى أكتب
 عن الكتابة بالمره ! ومن ثم غقد لذت بالصمت إزاء هؤلاء ، حتى
 بدأ أننى نسيتهم . ومع ذلك فإن « باريسو » و « بيريشون » لم
 يلفيا بالا ، فكنت أجدهما دائما كما عهدتهما . أما فى حالة السيد
 « بورد » ، فلن يلبث أن يتبدى كيف أن الانتقام للشعور بالاهمال ،
 حل — بعد عشرين عاما — محل الحب الصادق والذكاء البديع !
 وما ينبغى لى أن أنسى — قبل مبارحة ليون — شخصية
 لطيفة زرتها فى اغتباط لم اشعر قط بهنله — وقد تركت فى
 فؤادى ذكريات جد رقيقة . تلك هى الانسة « سير » ، التى
 تحدثت عنها فى القسم الأول (١) ، والتى جددت تعارفى بها عندها

=

انسيانا للخداخ مما كنت أنصور ، ولكنها ذات خلق ماهر ، راجع ، خال من
 أى خبث ، جدير بكل تقديرى ، وهذا ما ميمظل يحظى به ما حييت .

(١) الكراسة الرابعة . وقد كتب لها « روسو » يوما أروع خطابات غرامى
 فى كل مختلفاته الأدبية !

كنت فى دار السيد « دى مايلى » . ولما كان لدى متمسح من
 الوقت ، فى هذه الرحلة ، غقد رأيتها كثيرا ، ومال إليها قلبى
 فى وجد قوى . ولدى من الاعتبارات ما يحملنى على أن أظن
 أن قلبها لم يكن على النقيض ، بيد أنها أولتنى من الثقة ما بدد
 كل إغراء بأن أسمى استغلالها . ولم تكن تلك شيئا ، ولا كنت
 أنا أمك أكثر منها ، وكان مركزنا جد متشابهين ، إلى درجة
 لا تغرى بأن نتحد ، لا سيما وأننى كنت — بالآراء التى كانت
 تملكنى — بعيدا كل البعد من التفكير فى الزواج . ولقد أنبأتنى
 بأن تاجرا شابا ، يدعى السيد جنيف ، كان يبدو راعيا فى أن
 يرتبط بها . وقد التقيت به عندها مرة أو اثنتين ، فترأى لى
 أنه شاسب أمين شريف ، وكان معروفا بذلك . وإذ خيل لى
 أنها كانت تحبه ، تميت أن يتزوجها — وهو ما فعله فيما بعد —
 فأسرعت بالرحيل كي لا أعكر صفو موافقهما البريئة ، مزجيا
 لسمادة هذه الشابة الفاتنة دعوات ، لم يقدر لها أن تستجاب
 على هذه الأرض إلا لأجل قصير . . وأأسفاه . . جد قصير ! . .
 فقد علمت فيما بعد أنها ماتت بعد عامين أو ثلاثة من زواجها !
 ولما كنت قد شغلت طيلة رحلتى بحسرات عاطفية ، فقد
 أحسست — ولا أزال أحس فى كثير من الأحيان ، كلما فكرت
 فى ذلك — بأنه إذا كانت التضحيات التى يقدم عليها المرء فى
 سبيل الواجب والفضيلة تكبده ثمنا غالبا ، إلا أنه لا يلبث أن
 ينطق الجزاء مثلا فى الذكريات الناعمة التى تظلمها له تلك
 التضحيات فى قرارة فؤاده !

وإذا كنت قد رأيت باريسو — فى خطبى السابقة — من
 ناحية لا تجعلها أهلا للإعجاب، فإننى رأيت — فى هذه الرحلة —

جانيتها اللامع . على أن هذا لم يكن الشان بالنسبة لسكناى ،
فقد ذهبت - حسب ارشاد السيد بورد - للإقامة في نزل
« سان ككتان » ، بشارع (ديه كوردييه) . على مقربة من
« السوربون » . وكان شارعاً وضيقاً ، ونزلاً وضيقاً . وحجرة
وضيقة . ومع ذلك فقد اعتاد هذا النزل أن يأوى رجالاً
محترمين ، من أمثال جريسيه ، وبورد ، والراعيين الشقيقتين
« دى مابلى » ، وكوفيدلاك . وكثيرين غيرهم - وإن لم أعثر
فيه ، لسوء الحظ ، على واحد منهم - غير أنى التقيت شاب
يدعى السيد « دى بوتفون » . كان ريتساً أعرج ، محامياً .
بحرص على انتقاء الفاظه . وقد تعرفت عن طريقه إلى السيد
« روجان » الذى أصبح الآن أقدم أصدقائى . وعن طريقه
تعرفت إلى الفيلسوف « ديدبرو » ، الذى ساكتر من الحديث
عنه فيما بعد .

* * *

ولقد وصلت إلى باريس في خريف سنة ١٧٤١ . وكل
مواردى خمسة عشر « لوى » ، ومسرحيتى الهزلية « ناريس » ،
ومشروعى الموسيقى . ولما لم يكن لدى وقت أضيعه في محاولة
تدبير انفاقها على خير وجه ، فقد أسرعت إلى استغلال خطابات
التوصية التى كنت أحملها . وأى شاب يصل إلى باريس مزوداً
بشكل وسيم ! ومعلناً عن نفسه بمواهبه . تمين بأن يتأكد
دائماً من أنه سيجد ترحيباً . وقد كنت كذلك . فمكنتى هذا
من أن أحظى بنعم كثيرة ، وإن كانت لم تساعدنى مادياً بدرجة
تذكر . ومن كافة الأشخاص الذين حملت إليهم التوصيات ،
لم يثبت سوى ثلاثة أنهم تابعون لى ، وهم : السيد داميسان

- وكان سيداً من (سافوا) ، كان إذ ذاك من الفرنسيين ، وأحبته
كان ذا حظوة لدى الأميرة « دى كارينيان » ثم السيد « دى بوز » ،
سكرتير ديوان الخطوط وحارس الأوسمة بديوان الملك . .
وأخيراً الأب « كاستيل » الجزويتى ، مخترع « الكاغيسان » (١)
البصرى . وكانت خطابات التوصية للأخبرين منهم صادرة من
الراهب « دى مابلى » .

ولقد تكفل السيد داميسان بما كانت تمس إليه حاجتى .
إذ عرفنى إلى اثنين ، أحدهما السيد « دى جاسك » ، رئيس
برلمان (بوردو) (٢) ، الذى كان يحذق العزف على الكمان حذفاً
يثقاً . . وثانيهما الراهب « دى ليون » ، الذى كان يقيم إذ ذاك
في السوربون ، وكان راهباً شاباً ، موفور اللطف ، مات في زهرة
عمره ، بعد أن تالق في المجتمع لمضغ سنوات تحت اسم
السيناليه روهان (٣) . وكان كل منهما مشفقاً بتعلم الطلحين ،

(١) الكلايسان آلة موسيقية ، و « الكلايسان البصرى » آلة ذات مفاتيح
تتمثل - إلى جانب الأوتار - بمكعبات بلونة ، فإذا عزف عليها - كما يعزف
على الآلة الموسيقية - ثابتت الألوان تنابع الأثغام ، بحيث تمشى الألوان
الاشمائية النعنية الأولى ، مع الأثغام السبعة الأولى في الموسيقى . وكانت
غاية المخترع ، أن يحدث المؤثرات النعنية بالألوان !

(٢) في الأصل : الرئيس ذو القنسوة المخطلة السوداء المستدرة !

(٣) يحتمل من سيرة « الشيفالييه دى روهان » . فلم تحدث من يحمل لقب
« شيفالييه » - أى فارس - وينطبق عليه ما ذكره « روسو » عن التألق وعصر
العصر ، سوى « الشيفالييه لويس دى روهان » ، الذى اشتهر في

فرحت أدرسه لهما بضعة أشهر ، مما أنعش مواردى المالية الناضبة . ولقد أولانى الأب « ليون » وده ، ورغب فى أن يتخفى سكرتيرا له . ولكنه لم يكن غنيا ، فلم يكن بوسعہ أن ينفق لى مرتبا يتجاوز ثمانمائة فرنك . . فرغضت منصبه وأنا آسف ، إذ لم يكن مرتبه يكفى لنفقات سكنائى وتغذيتى ومستلزمات معيشتى .

أما السيد « بوز » ، فقد استقبلنى استقبالا طيبا جدا . وكان عالما ، ومشغوفا بالمعرفة ، ولكنه كان متفطرسا بعض الشيء . وكانت السيدة دى بوز خليقة بأن تكون ابنته ، لا زوجته ! وكانت لامعة الفكاه ذات مهابة . وقد تناولت الغداء فى دارهما بضع مرات ، وما كان أحد ليشعر بمثل ما كنت اشعر به من خلل وارتباك فى محضرها ، فقد كان مسلکها غير المتكلف يجرئنى ويجعل مسلکى أدمى إلى الضحك . . فإذا قدمت لى طبقا ، كنت ادفع « شوكتى » فألتفت — فى تواضع — قطعة صغيرة لهما تقدمه لى ، بطريقة كانت تجعلها ترد إلى خادماها الطبق الذى كانت قد أعدته لى ، وهى تدبر وجهها لى لا أراها وهى تضحك ! . . ومع ذلك ، فما كان يساورها أى

شهد الملك لويس الرابع عشر ، وأعدم . ولكن هذا حاشى بين سنتى ١٦٣٥ و ١٦٧٤ : أى قبيل مولد « ووتسو » . و « روهان » الموحيد الذى عامره « ووتسو » هو الأمير ادوا دى روهان — الذى عاش بين سنتى ١٧٢٤ و ١٨٠٣ — وكان كاردينالا ، ولكنه لم يكن « شيفاليه » . ولعل الأمر التنبى على « ووتسو » .

ريب فى صلاحية رأس هذا الرقيق الشاب ، ولم يفهما أن ترى فيه بعض الذكاء . ولقد قدمنى السيد دى بوز إلى صديقه السيد « دى ريومور » ، الذى اعتاد أن يحضر إلى داره لتناول الغداء فى أيام الجمعة ، وهى أيام انعقاد اجتماعات محفل العلوم . ولقد حدثه السيد دى بوز عن مشروعى ، وعن الرغبة التى كانت لدى فى أن أضعه تحت اختيار المحفل ، فغكفل السيد دى ريومور بالاقتراح ، فلم يلبث أن حظى بالقبول !

وفى اليوم المحدد لمناقشة المشروع ، تولى السيد دى ريومور تقديمى والتعريف بى . وفى اليوم ذاته — ٢٢ أغسطس سنة ١٧٤٢ — تشرفت بأن قرأت على المحفل المذكورة التى أعدتها لذلك . ومع أن هذا المحفل الجليل كان عظيم المهابة والرهبة — يقينا — فإننى كنت أمامه أقل ارتباكاً منى أمام السيدة دى بوز ، واستطعت أن أؤدى القراءة وأن أجيب على الأسئلة بنجاح . فاستقبلت الرسالة بتقدير ، وجلبت لى التهانى ، بما أدهشنى أكثر مما سرنى . . فما كنت لأتصور أن أى امرئ لا ينتمى إلى المحفل — أيا كان — يبدو لأعضائه ذا إدراك سليم ! وكانت اللجنة التى تولت مناقشتى تتكون من السادة دى ميران ، وهيلو « ودى فوشى » . وكان ثلاثتهم من الأكفاء دون ما ريب . . ولكن لم يكن بينهم واحد بلم بالموسيقى إلما كافيا . . على الأقل — لأن يجعله فى وضع يمكنه من الحكم على مشروعى !

سنة ١٧٤٢

وفى خلال مناقشتى مع هؤلاء السادة — شيفاليه — شاك أكثر منى فى دهشة — أن العلماء — لا كانوا أقل من سواهم

تحملاً ، في بعض الأحيان ، إلا أنهم أكثر تشبهاً بما يكون لديهم من آراء ، وكانهم يجدون في ذلك لونا من التعويض . غيَطر بما كانت معارضة هؤلاء السادة واهية ، وخاطئة في الغالب ، ومع أنني كنت أردها بحجج قاطعة — برغم تبنيي — كما ينبغي أن أعترف ، وبرغم سوء تعبيري — إلا أنني لم أوغق مرة واحدة إلى أن أحملهم على أن يفهموا قولي وأن يقتنعوا به . وكنت أبهت دائماً للسهولة التي كانوا يخطئونني بها — مستخدمين في ذلك بعض العبارات الرنانة — دون أن يكونوا قد فهموا شيئاً . ولقد اكتشفوا — حيث لا أدري — أن راهباً يدعى الأب « سوهيتي » ، كان قد تصور فكرة كتابة السلم الموسيقي بالأرقام . وكان هذا كافياً لأن يزعموا أن طريقتي لم تكن جديدة . وقد يكون الأمر كذلك ، إذ أنني وإن لم أسمع قط بالأب سوهيتي ، ومع أن طريقتي في كتابة النغمات الرئيسية السبع في الترانيم الكنسية دون أي تفكير في الثنائيات ، لا تستحق — في أي اعتبار — أن تقاس بابتكارى البسيط الملائم للكتابة جميع أنواع الموسيقى الممكن تصورها ، في غير مشقة ، بوساطة الأرقام : من طبقات ، ووقفات ، وثنائيات ، ومساافات وتوقيات ، وتقييم . . وكلها أشياء لم تخطر لسوهيتي ببال إطلاقاً . . بالرغم من كل هذا ، فقد كان من الصحيح تماماً أن يقال إنه — فيما يتعلق بالتعبير الأولى عن النغمات الرئيسية السبع — كان أول مبتكر في هذا المضمار . ولكنهم (١) لم يكتفوا بأن يعزوا إلى هذا الابتكار البدائي أهمية أكثر مما كان

(١) يقصد « روسو » أعضاء المحفل الذين تولوا مناقشته .

يستحقها ، وإنما أبوا أن يقفوا عند هذا ، وبمجرد أن حاولوا أن يتكلموا عن المبادئ الأساسية للطريقة ، لم يقولوا سوى لغو .

كانت الميزة الكبرى لطريقتي ، هي الاستغناء عن التبديل والطبقات ، بحيث يمكن كتابة أية قطعة ونقلها حسب الرغبة ، ومهما تكن الطبقة المنشودة ، بوساطة التبديل المقترح في حرف ابتدائي واحد عند بداية اللحن . ولكن هؤلاء السادة كانوا قد سمعوا ببعض مدمي الموسيقى في باريس يقولون إن طريقة العزف بتبديل الطبقات غير ذات قيمة . ومن هنا ، قلبوا أبرز مميزات طريقتي إلى اعتراض ضدها يتعذر التغلب عليه ، وانتهوا إلى تقرير أن طريقتي صالحة للأداء الصوتي ، وغير صالحة للأداء الآلي ، بدلاً من أن يقرروا — كما كان ينبغي — أنها صالحة للأداء الصوتي ، وأكثر صلاحية للأداء الآلي . وبناء على تقريرهم ، منحنى المحفل شهادة ملينة بالاطراء البديع للغاية ، يتبدى خلال سطورها أنه — في الواقع — لم ير أن طريقتي جديدة ولا نافعة . . ولم أشعر قط بأن من الواجب أن أزين بمثل هذه الوثيقة مؤللي الذي سميت « رسالة في الموسيقى الحديثة » ، ولجأت فيه إلى تحكيم الرأي العام !

ومن حقى — في هذه المناسبة — أن ألفت النظر إلى أن المعرفة الممتازة بالشيء — على شريطة أن تكون شاملة عميقة — أفضل من كافة الأضواء التي تلقىها الثقافة والعلوم ، في تمكين المرء من إصابة الحكم ، إذا لم تكن هذه الأضواء مقترنة بدراسة خاصة للموضوع المعروض على بساط البحث . وكان الاعتراض القوي الوحيد ، الذي وجه إلى طريقتي ، « صحيحاً من نوعه » .

جميع أولئك الذين كانوا في طليعة المبرزين في ميدان الأدب في (باريس) . ومن ثم فأنتى كنت على معرفة قائمة بهم ، عندما وجدتني - فيما بعد - مدرجا بفتة في سلوكهم . أما في الفترة التي أتحدث عنها ، فقد كنت - لفرط استغراقى في طريقتى الموسيقية - مصرا على أن أحدث بها انقلابا في هذا الفن ، وأن أحرز بهذا شهرة ترتبط دائما في ميادين الفن الجليل - في باريس - بالثراء ! .. ولهذا احتبست نفسى في غرفتى وعكلت على العمل شهرين أو ثلاثة في حمية لا سبيل إلى وصفها ، لأشرح - في مؤلف أقدّمه للرأى العام - المذكرة التى قرأتها على المحفل . وكانت العقبة تتبطل في العثور على ناشر يتكفل بمؤلفى ، نظرا لأن الرموز الجديدة كانت تتطلب بعض نفقات ، في حين أن الناشرين لا يعثرون دراهمهم على رؤوس المبتدئين ، مع أننى كنت أرى أن من الإنصاف أن يعود على مؤلفى بالخبز الذى التهبته وأنا أكتبه !

وعثر لى « بونفون » على « كايو » - الأب - الذى عقد معى اتفاقا على أن تقسم الربح ، بغض النظر عن « الامتياز » (١) الذى كان على أن اتكفل بدفع نفقاته وحده . وقد أساء « كايو » - المذكور - تدبير الأمر ، بحيث أن النقود التى دُعمتها لأحصل على الامتياز ذهبت أدراج الرياح ، ولم أخرج بدريهم واحد من هذه الطبعة ، التى كانت - في الواقع - ضئيلة

وما أن شرحت له ردى ، حتى تبين ضعفه ، فقال : « أن علامتك صالحة جدا ، من حيث أنها تحدد القيم الموسيقية ببساطة ووضوح ، كما أنها تعين المسافات بدقة ، وتبين دائما النغم المفرد في حالة ازدواج النغم ، وهى أمور لا تيسرها طريقة النونة العادية . . ولكن علامتك غير صالحة من حيث أنها تتطلب جهدا ذهنيا لا يتناسب دائما مع سرعة الأداء » . واستطرد قائلا : « أن وضع علامتنا الموسيقية يتجلى للعين دون حاجة إلى الاستعانة بهذا الجهد ذهنى . فلذا أرتبط نغمان - أحدهما مرتفع جدا ، والآخر منخفض جدا - بسلسلة من الأنتقام الوسيطة فإن بوسمى أن أرى - من أول نظرة - التطرق التدريجى من أحد النغمين إلى الآخر . . أما حسب طريقتك ، فلا بد لى - للتأكد من هذا التسلسل - من أن أورد كل ارتباك متعاقبة - الواحد بعد الآخر ومن ثم فإن النظرة الشاملة لاتملك بشيء !

ولاح لى أنه اعتراض مفحم ، فأفتررت لتوى بقوته ، في حين أنه بسيط ومدهش ! .. فهو اعتراض لا توحى به سوى الخبرة الواسعة بالفن ، ومن ثم فلا عجب في أنه لم يخطر ببال أحد من أعضاء المحفل ، ولكن هذه هى حال هؤلاء العلماء الكبار جميعا ، فهم يعرفون كل الأشياء ، بيد أن المالميم بكل شيء - على حدة - قليل « بحيث لا ينبغى للواحد منهم أن يقضى برأى إلا فيما يتعلق بالفرع الذى اختصه بدراسته !

وقد أتاحت لى زيارتى المتعددة لأعضاء لجنة مناقشة رسالتى ، ولغيرهم من أعضاء المحفل ، فرص التعرّف إلى

(١) نظام يعاين « حق النشر » ، يقصر « حق النشر » على مؤلف

أو ناشر معين .

ولكنى في هذه المرة الثانية ، كنت في الثلاثين من عمري ، وكنت قد وجدت نفسي في طرق (باريس) المعبدة ، حيث لا يستطيع المرء أن يعيش بلا موارد . ولن يدهش القارئ الذي انتهى بي إلى هذه النهاية ، سوى أولئك الذين لم يقرأوا بأعسان الجزء الأول من هذه المذكرات ! .. ذلك أننى كنت قد بذلت مجهودا كبيرا ، وإن لم يكن مثمرا ، فكنت بحاجة إلى استنجام . وبدلا من أن استسلم للفتن ، أسلمت نفسي لخمولى المعهود ، وللعناية الالهية ، ولكى ادع لهذه العناية وقتا كي تقوم فيه بدورها ، فقد أقبلت على اتفاق بضع قطع مالية من فئة «لوى» - كانت قد بقيت ممت - في غير ما تعجل . ودبرت نفقات مئمة البريئة بحيث لا اتخطى عنها ، فلم اعد اذهب إلى المقهى سوى مرة في كل يومين ، وإلى المسرح مرتين في الأسبوع . أما النفقات اللازمة لصحبة الغنيات ، فإننى لم أكن بحاجة إلى الحد منها ، لأننى لم أنفق «سو» واحد على هذه الناحية ، في حياتى ، اللهم إلا في مناسبة واحدة ، ساضطر إلى الحديث عنها بعد قليل .

الرواج ، بالرغم من أن الراهب « ديفونتين » وعد بالعمل على ترويجها ، كما أن غيره من الصحفيين تحدثوا عنها حديثا طيبا !

ولقد كانت العقيدة الكبرى في تجربة طريقتى ، هي أن أحدا لم يكن ليرضى بأن يضيع الوقت الذى يتطلبه تعلمها ، إذا هي لم تصبح الطريقة السائدة في الموسيقى . وقد قلت ردا على ذلك ، أن المران على أسلوبى في العلاقات الموسيقية ، يجعل الأفكار من الوضوح بحيث أن الذى يشرع في تعلم العلامات الموسيقية العادية ، يستطيع أن يقتصد من الوقت الذى يستغرقه تعلمها ، إذا هو بدأ بطريقتى . ولأقابلة الدليل العملى ، قدمت دروسا فيها - بالجان - لشابة أمريكية تدعى الأتيسة « دى رولان » ، كان السيد روجان قد عرّفنى بها . فإذا بها تصبح - خلال ثلاثة أشهر - قادرة على أن تقرأ على «نونتى» أى نوع من الموسيقى ، وأن تغنى بمجرد النظر إلى « النوتة » - باتقان يفوق اتقانى أنا - كل قطعة غير بالغة الصعوبة . وكان هذا التوفيق رائعا ، ولكنه ظل مجهولا . فقد كان أى امرئ سوى خليفنا بأن يملأ الصحف به ، أما أنا ، فبالرغم من أننى أوثقت المقدرة على اكتشاف الأشياء المفيدة ، إلا أننى لم أعمد قط إلى إبراز قيمتها !

وهكذا تحطمت « نافورتى الصغيرة » مرة أخرى (١) .

(١) يشبه « روسو » مشروعه الموسيقى ، بالتأفورة الصغيرة التى بنى عليها آمالا عندما بارح (تورين) ، والتى أورد قصتها في الكرامسة الثالثة بملجزه الأول .



مطبوعات كتابي إصدار جديد

عزيزي القارئ ..

إذا أردت أن تعرف قيمة هذا الكنز الأدبي الخالد الذي توافيك به (مطبوعات كتابي) اليوم ، فإليك ما كتبه عنه المفكر المطمع الأستاذ «سلامة موسى» في عدد ١٩ نوفمبر عام ١٩٥٥ من جريدة (أخبار اليوم) ، إذ قال : «اعترافات جان جاك روسو من الكتب التي يجب أن تترجم إلى لغتنا قبل ١٠٠ أو ١٥٠ سنة ...»

.. كما كتب الأديب والشاعر الكبير الأستاذ «عبد الرحمن صدقي» في مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ ١٤ فبراير ١٩٣٩ يقول : «انقضى نيف ومائة وستون سنة على وفاة «روسو» ، وانصرف الأدباء وجمهوره القراء عن مطالعة كتب «روسو» أخرى ، ولكنهم لم ولن ينصرفوا عن مطالعة (اعترافاته) ، تلك أن الآراء في السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق بدخلها التغيير والتبديل ، أما نجوى النفس البشرية فهي لا تتغير ولا تتبدل ..»

.. والواقع أن هذه (الاعترافات) التي تقدم (مطبوعات كتابي) إليك اليوم أول ترجمة أمينة ، كاملة ، لها باللغة العربية ، هي أدق وأصدق مصدر لسيرة المفكر العبقري «جان جاك روسو» ولقد كان من أهم الميزات التي كتبت الخلود لهذه الاعترافات ، إنها كانت أول عمل أدبي يكشف صاحبه فيه عن نفسه ، فقد سجل «روسو» في هذا الكتاب أدق أحداث حياته - خيرها وشرها ، طيبها وخبيثها - دون أن يجفل من مواجهة الحقيقة !

هاني مراد

